مكتبة الاسكندرية القديمة سيرتها ومصيرها

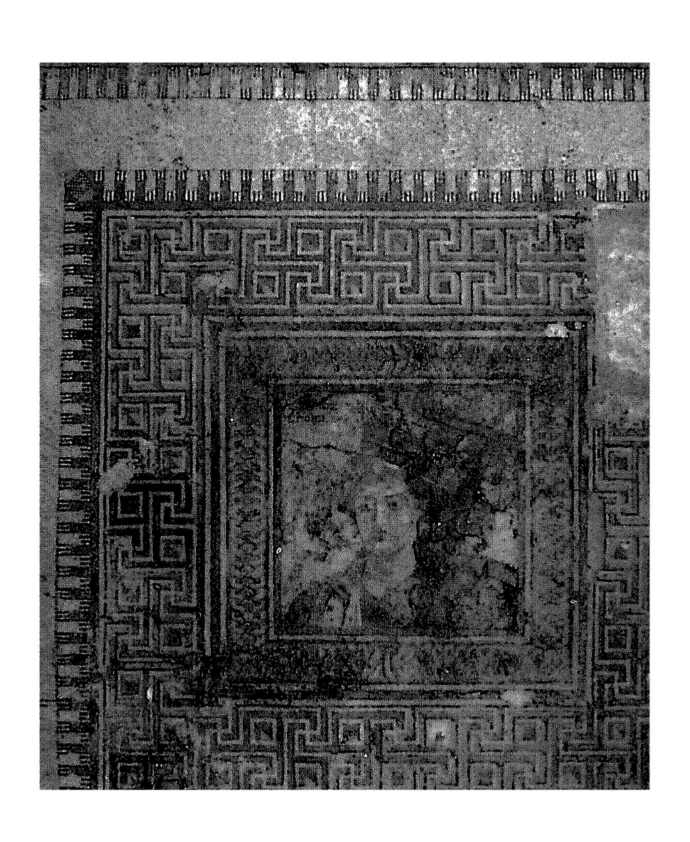
تأليف

مصطفى العبّادي





مكتبة الاسكندرية القديمة سيرتها ومصيرها



فسيفساء تصور الاسكندرية « ربة البحر »، عمل سوفيلوس، بالألوان
(قرن ثاني ق.م.) لوحة امامية.

مكتبة الاسكندرية القديمة سيرتها ومصيرها

مصطفى العبّادي

اليونسكو/برنامج الامم المتحدة للتنمية

صدر عام ١٩٩٢ عن
منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة
٧، ميدان فونتنوا، ٧٥٧٠٠ باريس
بمساهمة مالية من برنامج الأمم المتحدة للتنمية

نضّد وطبع في ورش اليونسكو

الترقيم الدولي الموحد للكتب
ISBN 92-3-602632-X

طبع في فرنسا

الى خير من نقدني... زوجتي

مقدمة

بقلم فيديريكو مايور،
المدير العام لليونسكو

ان هذا الوصف لتاريخ مكتبة الاسكندرية القديمة ومصيرها قد يذكّرنا بقصة أخرى عن مكتبة خيالية هي المكتبة التي وصفها اومبرتو ايكو في روايته التي عنوانها « اسم الوردة » والتي تتضمن تأملات عميقة في موضوع سعي الانسان لاكتساب المعرفة فعندما عاد الراوي في نهاية الرواية الى أطلال الدير الذي وقعت فيه، قبل ذلك بعدة سنوات، أحداث درامية عنيفة، شرع في القيام بمهمة شاقة تتمثل في اعادة تكوين محتويات المكتبة المخربة، من اجل الأجيال القادمة.

« ان المبنى (...) الذي كان خرابا واطلالا كان يبدو مع ذلك قائما يتحدى الزمن (...). وفي الداخل اختلطت أعمال الفن المحطمة بأعمال الطبيعة (...).

وعندما كنت أجوس خلال الأطلال المتناثرة كنت أجد في بعض الأحيان قصاصات من جلد الرّق التي تسللت من غرفة نسّاخ الدير أو من المكتبة وظلت مدفونة كما تدفن الكنوز في باطن الأرض (...).

وأنفقت ساعات طويلة للغاية أحاول أن افكّ مغاليق هذه البقايا. وكنت في أغلب الأحيان أستطيع أن استنتج ماهية المصنف الأصلي من كلمة أو صورة قاومت الفناء. وعندما كنت أعثر بعد ذلك على نسخ أخرى من تلك المصنفات، كنت ادرسها بشغف ومحبة، كما لو كان القدر قد ترك لي تلك

الوصية، أو كما لو كان التعرف على النسخة التالفة هو امارة واضحة من السماء تقول لي : خذ واقرأ. وفي نهاية عملي الدؤوب في اعادة تركيب تلك الأجزاء، وجدت أمامي نوعا من المكتبة المصغرة، يعتبر رمزا للمكتبة الكبيرة التي اختفت : مكتبة مكونة من قصاصات وجذاذات وجمل مبتورة وأجزاء ممزقة من الكتب ».

اما مكتبة الاسكندرية فلم يبق منها حتى هذا القدر من البقايا والأطلال. فلم تسفر البحوث الأثرية والحفائر عن أية مفاتيح ملموسة تعرّفنا على شكل المكتبة العظيمة والموسيون الملحق بها وتطورها على مرّ العصور والمصير الذي آلت اليه. أما معلوماتنا عن المكتبة فهي مستمدة كليّة من علم دراسة النصوص القديمة ومن البحوث الدؤوبة المخلصة للمؤرخين والباحثين الذين قاموا بتمحيص الشواهد والأدلة المختلطة التي وصلتنا من الماضي بغية اعادة تكوين صورة متماسكة مقبولة لتلك المؤسسة التي اندثرت.

لقد اعتمد كاتب هذه الدراسة على ثروة من البحوث والمصادر الأصلية لكي يقدم لنا وصفا لمكتبة الاسكندرية يجمع بين دقة التفاصيل وشمول التناول، وذلك بالرغم من أنه يجب أن ينظر اليه شأن كل أعمال تدوين التاريخ بوصفه عملا قابلا للتطوير والتنقيح. ان المؤلف يرتب الشواهد المتوافرة بحيث يرسم صورة خلّابة لانشاء الموسيون والمكتبة العظيمة ولأنشطة الأوساط العلمية التي كانت تقيم في المنطقة الملكية. وفضلا عن ذلك فانه يدرج انشاء المكتبة في الاطار التاريخي العريض لغزوات الاسكندر وما صاحبها من اتساع آفاق عالم البحر المتوسط، وانشاء مدينة الاسكندرية في مواجهة جزيرة فاروس عند دلتا نهر النيل، ونمو المدينة في ظل حكم أسرة البطالمة حتى صارت واحدة من العواصم الفكرية والتجارية العظمى في العالم القديم. واخيرا ينتقل بنا الى واحد من أشد الموضوعات اثارة للجدل والخلاف، وهو الموضوع المتعلق بمكتبة الاسكندرية وبمصيرها النهائي، فيقوم بتمحيصه تمحيصا لا شك أنه سيشكل اسهاما

مثيرا في الجدل الدائر بشأنه. وان اضطلاع المؤلف باعادة تشكيل صورة المكتبة القديمة على نحو تفصيلي، ليعد في واقع الأمر بمثابة انشاء « لمكتبته الصغرى، التي تعد رمزا للمكتبة الكبرى التي اندثرت ».

ويمكننا أن نضيف الى ذلك أنها تعد رمزا لرمز : اذ يتضح من هذه الدراسة انه اذا كانت مكتبة الاسكندرية قد أثارت هذا القدر الكبير من اهتمام الناس على مر العصور واستدعت تكريس كل هذه الجهود العلمية لاستجلاء أسرارها، فان ذلك انما يرجع الى قيمتها الفريدة من حيث تجسيد بعض المعاني. ففي اطار غزوات الاسكندر نفسه تجسد المكتبة حلم الوحدة العالمية. وهي تمثل محاولة ـ ربما كانت غير مسبوقة ـ لاقامة صرح شامخ يمثل ذروة المعرفة ويضم حكمة المؤلفين الاغريق وحكمة المؤلفين الأجانب في مصنفاتهم المترجمة وفضلا عن ذلك، يبدو أن المكتبة قد اقترنت بنمو ادراك عميق للمعرفة بوصفها أداة، مثلما اقترنت بالسعي لاكتساب المعرفة من خلال الجهود المتضافرة والنهج التوفيقي. ومن الأمور ذات الدلالة في هذا المجال أن المكتبة قد ارتبطت ببعض صور التقدم في مجال العلوم، التي بدأ يضعف ارتباطها بالفلسفة وبدأت تكتسب مزيدا من الطابع التجريبي. ومثل المنارة التي كانت توجد على جزيرة فاروس المجاورة (والتي كانت تعد احدى عجائب الدنيا السبع) تعدّ مكتبة الاسكندرية أيضا منارة وعلامة على طريق الاستنارة في تاريخ الانسانية.

ان مشروع احياء مكتبة الاسكندرية القديمة، الذي تضطلع به اليونسكو بناء على طلب الحكومة المصرية وبدعم مالي من برنامج الأمم المتحدة للتنمية، انما يرتكز في المقام الأول على مغزاه الرمزي. فهذا المشروع لا يشكل نوعا من الجهود الرامية الى اعادة بناء أحد المعالم الأثرية التي اندثرت، ولكن الغرض منه هو احياء ذكرى مكتبة الاسكندرية بالطريقة الوحيدة المناسبة وهي بعث تراثها العالمي في صورة حديثة. ونتيجة لمسابقة معمارية دولية نظمت بالتعاون مع الاتحاد الدولي للمعماريين، أصبح لدينا تصميم حديث رائع لمكتبة الاسكندرية الجديدة. وستقوم المكتبة

بتكوين مجموعاتها في غضون سنوات قلائل ـ وفقا لمفهوم الحكومة المصرية وتحت رعاية لجنة دولية تضم كثيرا من الشخصيات البارزة ـ بحيث نضع تحت تصرف الباحثين والدارسين رصيدا هائلا من المعرفة يتركز بوجه خاص على تاريخ وثقافة حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط، وان كان يضم ايضا مواد من جميع المناطق طبقا للرسالة العالمية للمكتبة. وبذلك تسهم المكتبة في تنمية المنطقة التي تقع فيها، كما تسهم في فهم تلك المنطقة في جميع انحاء العالم.

واود أن أشكر الاستاذ العبّادي على اجراء هذه الدراسة القيّمة التي جاءت في الوقت المناسب، والتي من شأنها أن تزيد الاهتمام بمكتبة الاسكندرية الجديدة من خلال القاء الضوء على المكتبة القديمة. كما اشكر ايضا برنامج الأمم المتحدة للتنمية الذي أمكن بفضل عونه السخي نشر هذا المصنف. ونحن جميعا نشعر بالامتنان لمساهمته في حملة اليونسكو الرامية الى دعم ومساندة هذا المشروع الذي يستجيب للوصية الموجهة الى البشر كافة والتي ورد ذكرها في مستهل هذه الكلمة هي « خذ واقرأ »، وذلك عن طريق احياء معلم فريد في التاريخ الثقافي للانسانية.

فيديريكو مايور
المدير العام لليونسكو
٢٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٩

المحتويات

كلمة المؤلف

استهوى موضوع مكتبة الاسكندرية القديمة، وخاصة مشكلة مصيرها، كثيرين من الكتاب والقراء على السواء. فمنذ القرن الثامن عشر نجد الدارسين والمولعين باقتفاء الأثر في ألغاز التاريخ يجتهدون باصرار وحماس في بذل قصارى جهدهم لحل هذا اللغز المحيّر. ورغم أن حدّة الخلاف قد هدأت الآن، وفقدت كثيرا من حرارتها التي تميزت بها حتى منتصف القرن العشرين، بحيث يمكن القول أنه أصبح هناك اتجاه عام يسود بين معظم الدارسين الجادين، بأن المكتبة كانت قد اندثرت قبل الفتح العربي بنحو قرنين من الزمان. ولكن لا يزال هناك بعض المتحمسين من الجانبين يندفعون الى اتخاذ مواقف عاطفية بين حين وأخر. ولهذا السبب، وبهدف جلاء بعض ما يزال عالقا بهذه النقطة من غموض، أفردت أحد فصول الكتاب لمشكلة مصير المكتبة.

على أن الكتاب كله وضع أصلا لتحقيق هدف آخر، وهو التأكيد على أن دراسة حياة المكتبة بطبيعتها وانجازاتها تفوق مشكلة نهايتها قيمة واهمية، فهي اكثر كشفا وأشد دلالة على الحركة العلمية الفذة التي ازدهرت في رحابها وتحت تأثيرها. ولقد بقيت الانجازات العلمية للاسكندرية القديمة نبراسا ومشاعل يستضيء بها علماء العصور الوسطى من المسلمين والمسيحيين على السواء، وكذلك أعلام الانسانيين في عصر النهضة الأوروبية. ولعله ليس من المبالغة أن نقول إن المعرفة قبل عصر الاسكندرية

كانت اقليمية الى حد كبير، وأنها تحت تأثير انشاء أول مكتبة عالمية بالاسكندرية، أصبحت المعرفة عالمية أيضا.

وهكذا تمثل المكتبة وتوأمها المجمع العلمي المعروف بالموسيون تجربة هامة في تاريخ الثقافة العالمية ؛ وهي جديرة بأن تعاود الأجيال المتلاحقة دراستها. وكما هو الحال بالنسبة للمواضيع الكبرى في التاريخ، هناك دائما فرصة لتناول جديد وتصور جديد. ولا تقتصر جدوى مثل هذه المحاولات على اضافة علمية أو اجلاء جانب غامض في المعرفة الانسانية، ولكن العقل الحديث كثيرا ما يستمد من تجربة ماضية قبسا يستهدي به في موقف راهن. وما من شك أن المشروع الحالي لاحياء مكتبة الاسكندرية القديمة شاهد على ذلك. ولقد شاركت وعايشت مراحل هذا المشروع منذ أن كان خاطرا في خيال قلة قليلة من أساتذة الاسكندرية الى أن أصبح مشروعا هندسيا وثقافيا متكاملا، تعتنقه الدولة في مصر وترعاه منظمة اليونسكو العالمية. وكثيرا ما كتبت وحاضرت معرفا بمكتبة الاسكندرية القديمة، ولكن حين شرعت في وضع هذا الكتاب، وجدت عبارة ثيوفراسطس تلح على عقلي، وهي قوله : « إذا قرأ مؤلف عمله، عليه أن يعيد كتابته ». وهذا هو ما حدث.

ويسعدني أن أوجه الشكر لجناب السيد فيديريكو مايور، مدير عام منظمة اليونسكو، لتفضله بكتابة المقدمة عن مشروع مكتبة الاسكندرية الجديدة. كما أتوجه بشكري الخاص الى السيد جاك توكاتليان، رئيس ادارة المعلومات للبرامج والخدمات باليونسكو، الذي كان أول من اقترح عليّ فكرة وضع كتاب باللغات الثلاث الانجليزية والفرنسية والعربية. كما أود أن أعبر عن تقديري لصبره وتفهمه للموقف وعدم الزامي بتاريخ التسليم المحدد للكتاب.

معظم الصور التوضيحية لقطع من المتحف اليوناني الروماني بالاسكندرية، ويسعدني أن أؤكد شكري وتقديري لروح التعاون الحقة لدى المسؤولين، السيدة دريه سعيد، المديرة، والسيد إدوارد كامل، مساعد المدير، وسائر العاملين، مم

يسّر لي العمل في المتحف والافادة من مقتنياته القيمة. أما المصورات فهي من عمل السيد سامي متري، رئيس قسم التصوير بالمتحف المصري بالقاهرة، وله مني صادق الشكر والتقدير لكريم استجابته. كما أني مدين بالشكر لزميلي وصديقي الدكتور عبد الحميد كليو، قسم الجغرافيا بجامعة الكويت، لتفضله بعمل خريطة الاسكندرية القديمة رغم مشاغله الكثيرة.

واخيرا يأتي دور لا يتضح مباشرة في ثنايا الكتاب، وهو اهتمام زوجتي ومساعدتها في جميع مراحل اخراج الكتاب في اكمل صورة ممكنة. فلم يقتصر دورها على مراجعة النسخة الانجليزية مراجعة كاملة، ولكن قراءتها الناقدة كثيرا ما ألزمتني بمراجعة ما كتبت مما ساعد على الارتقاء بالشكل النهائي للكتاب واسلوبه. وفي اهداء هذا الكتاب اليها وفاء لبعض ديني.

مصطفى العبادي
الكويت، مارس ١٩٨٩

قائمة الصور الايضاحية

قائمة الصور الايضاحية

الصور والخرائط الواردة في هذا الكتاب قدمها المؤلف مشكورا

الباب الأول

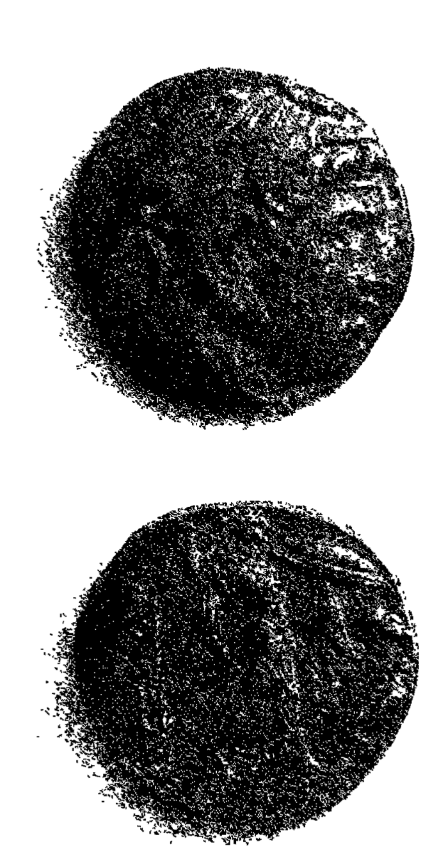
الخلفية الثقافية والاجتماعية

الفصل الأول

الاسكندر المكتشف

كان لفتوحات الاسكندر الأكبر في القرن الرابع ق.م. في قارات العالم القديم الثلاث، أوروبا وآسيا وافريقيا، نتائج خطيرة متعددة. فالى جانب نتائجها المباشرة سياسيا وعسكريا، هناك نتائج أخرى شديدة التأثير على مستقبل الثقافة والفكر الانساني، مثل حرية الانتقال والتجارة بين أقطار العالم، واخضاع أقاليم نائية كانت من قبل مجهولة للدراسة والاستكشاف؛ مما أدى الى اتساع آفاق المعرفة الانسانية، بدرجة يمكن مقارنتها بما حدث نتيجة للكشوف الجغرافية في القرن الخامس عشر، أو غزو الفضاء في عصرنا هذا.

ولقد حدثت مغامرة الاسكندر الفريدة هذه في فترة من التاريخ، كان العالم اليوناني قد حقق ما يقرب من أن يكون معجزة في الابداع الفكري في مجالات الأدب والفن والفلسفة. ورغم ذلك فان موطنه مقدونيا، بحكم موقعها في منأى عن المدن اليونانية الرائدة في الجنوب، وأدنى الى الشمال غير المتحضر، فلم يكن ينظر إليها باعتبارها واحدا من مكونات الثقافة اليونانية الكلاسيكية. ولكن نتيجة لسياسة حصيفة واقعية انتهجها بصورة متصلة عدد من ملوكها، تقدمت بسرعة هائلة في القرنين الخامس والرابع ق.م، دون أن يدرك إغريق الجنوب الأكثر تحضرا حقيقة أبعاد ذلك التقدم. فقد سعى ملوك مقدونيا، من أرخيلاوس الى فيليب الثاني، الى التجديد والتحديث، الذي كان



عملة فضية من فئة أربع دراحمات عليها صورة الاسكندر الاكبر، أصدرها
بطليموس الاول (٣٢٣ - ٢٨٤ ق م)

يعني بالنسبة لهم الأخذ بأسباب الحضارة الهللينية. فقد كان من صميم سياستهم العامة التأكيد على الأصل الهلليني للأسرة الملكية المقدونية وهو أمر يمكن إرجاعه الى القرن الخامس ق.م.[1].

تمشيا مع هذا الموقف المُعْلَن وجدنا القصر الملكي يحتضن ويؤوي كثيرا من أعلام الثقافة من الاغريق، أمثال بنداروس وباخيليدس من الشعراء الغنائيين ؛ أبقراط أبو الطب ؛ تيموتيوس الشاعر وواضع الألحان الغنائية ؛ زيوكسيس Zeuxis الرسام ؛ خويريلوس Choerilus الشاعر الملحمي ؛ أجاثون الشاعر التمثيلي، وأخلدهم ذكرا يوريبيدس، الشاعر التمثيلي الذي غادر أثينا ليقضي أعوامه الأخيرة في مدينة بيللا عاصمة مقدونيا. ولعله هناك كتب عابدات باخوس، التي تعتبر أكثر المسرحيات إثارة في الأدب اليوناني بأسره. ولقي الأغريق في شتى المجالات ـ وخاصة المنفيون السياسيون ـ كل ترحيب ليستقروا في مقدونيا. وحين تمكن فيليب المقدوني من أن يضع يده على مناجم الذهب على حدوده الشرقية، اجتذب بريق الذهب فيضا من الأغريق، فنانين وأطباء من مدرسة أبقراط، وفلاسفة وموسيقيين ومهندسين ورجال ادارة وسكرتيريين، من جميع أرجاء بلاد اليونان. وهكذا لم يكن مستغربا أن وقع اختيار فيليب على أرسطو ليشرف على تربية ابنه الاسكندر وتعليمه، فقد سار في ذلك على نهج مألوف في الأسرة المالكة المقدونية.[2]

كان لأرسطو من غير شك تأثير واضح في تعليم الاسكندر وتنشئته ؛ وكذلك كان الأمر بالنسبة للكتب الكثيرة التي قرأها. فقد كان الاسكندر ـ كما وصفه بلوتارخس ـ « محبا للأدب ومحبا للاطلاع ».[3] لم يكتف ـ كما ينتظر من أمثاله من القادة العسكريين ـ بقراءة كتب المؤرخين مثل هيرودوت[4]، أو زينوفون وفيلستوس (Philistus)[5]، ولكن اشتهر بشغفه بأشعار تيليستيس Telestes وفيلوكسينوس Philoxenus، وبمسرحيات ايسخولس وسوفوكليس ويوريبيدس[6]. ومما يدل على صدق شغفه بالأدب، ما يرويه أثينايوس أنه أثناء احدى حملاته في

فارس شارك في ندوة أدبية بأن أنشد من الذاكرة مشهدا كاملا من مسرحية « أندروميدا » للشاعر يوريبيدس[٧].

ولكن تعلقه بأشعار هوميروس، فاق حبه لسائر الأدباء، فكانت ملحمة الالياذة رفيق أسفاره، وحيثما ذهب احتفظ بنسخة منها، حتى أثناء نومه، مع خنجره تحت وسادته؛ واشتهرت باسم « نسخة خزانة الجواهر »، التي يقال إن أرسطو صوّب نصها له، فاكتنزها في صندوق ثمين للحلى كان قد غنمه من الفرس[٨].

وهناك جانب آخر تميزت به شخصية الاسكندر، وهو عقليته المتطلعة للمعرفة واكتناه المجهول، والتي لم تكفّ عن تقليب النظر في كل ما يعرض لها. وخير شاهد على هذه الحقيقة، أن كبار علماء العصر الهللينستي نظروا الى حملاته على أنها قدّمت « اضافة مادية هائلة للمعرفة في مجال الجغرافيا »، على حد قول اراتوسثنيس[٩]. كما أكد استرابون أن الاسكندر لم يتوان عن القيام باستكشاف البلاد التي فتحها[١٠]. ففي معترك عملياته العسكرية، يظل جزء من تفكيره يعمل بحدة في ملاحظة كل ما يقع عليه نظره، واجتلاء حقيقة أمره، واستخلاص النتائج منه.

مثال ذلك موقفه من منابع النيل. فمنذ أقدم العصور يمثل نهر النيل ظاهرة غريبة حيرت أرقى العقول وأكثرها علما. فهذا النهر العظيم الذي ينحدر من الجنوب الى الشمال، من منابع « في أقاليم نائية لم يرها انسان، لأنها في الصحراء...؛ وبينما تبدأ سائر الأنهار في التناقص عند الانقلاب الصيفي، وتستمر في التناقص المطرد تدريجيا أثناء أشهر الصيف بعد ذلك، نجد هذا النهر وحده يشرع في الفيضان في ذلك الوقت، وتزداد كمية مياهه زيادة كبيرة يوما بعد يوم، حتى تنتهي بأن تغطي معظم أرض مصر تقريبا »[١١]. ولقد تقدم بتفسيرات مختلفة عدد من المفكرين، من أمثال طاليس وهيرودوت وأرسطو، بالاضافة الى الكهنة المصريين، ولكن اللغز بقي بغير حل، وانتهى التساؤل ـ حسب عبارة ديودور ـ الى « ضروب من الظن أو الاجتهادات النظرية »[١٢].

كذلك شغل الاسكندر بالرغبة في اكتشاف منابع النيل، التي « ظنّ أنه اكتشفها » ـ كما يقول أريانوس[١٣] ـ عندما وصل الى

شمال الهند. هناك عند رافد لنهر السند يسمى هيداسبيس Hydaspes، لاحظ أن الأمطار الموسمية الغزيرة تسبب فيضان ذلك النهر في الصيف ؛ كما هو الحال بالنسبة لنهر النيل. ولكن أوجه الشبه لم تقف عند ذلك ؛ فهناك أيضا تماسيح في نهر السند ؛ كما لاحظ الاسكندر أن نوعا معينا من الفول ينمو على شاطىء أحد روافد السند يشبه الفول المصري.

ويمكننا أن نتصور حماس الاسكندر عندئذ، فسرعان ما وضع نظرية تفسر هذه الملاحظات، انتهى فيها الى أن النيل ينبع في تلك الأقاليم من الهند باسم السند، ويسير بعد ذلك مسافة شاسعة من الصحراء، حيث لا يعرف الاسم الأصلي، ثم يطلق عليه الاثيوبيون والمصريون اسم النيل عندما يصل مجراه الى البلاد الآهلة بالسكان مرة ثانية، حتى يصب آخر الأمر في البحر المتوسط. عند ذلك لم يتمالك الاسكندر نفسه من الفرح لما حسبه حلا نهائيا للغز النيل، فاندفع يكتب عن اكتشافه في خطاب لوالدته أوليمبياس. وقبل أن يبعث بالخطاب، أمر بحذف هذه الفقرة عن النيل، بعد أن علم الحقيقة، بأن السند يصب في المحيط الهندي، وليس له صلة بمصر[١٤].

وباعتباره قائدا حصيفا حكيما، حرص الاسكندر دائما على استكشاف ودراسة الأرض التي يمر بها جنوده دراسة وافية مسبقا. وقد احتفظ لنا أريانوس بوصف ينبض حيوية لعملية عبور نهر يقال له اكيسين في الهند، وقت الفيضان. ومن المرجح أن هذا الوصف مأخوذ عن بطليموس بن لاجوس، أحد رفاق الاسكندر وقواده، الذي يقول « ان الاسكندر تعمد عبور نهر أكيسين في أكثر أجزائه اتساعا، ليستفيد من بطء اندفاع التيار »[١٥]. ونقلا عن سيرة الاسكندر التي كتبها بطليموس، يذكر أريانوس، كيف أن الاسكندر بنفسه بعد استيلائه على بعض أقاليم الهند، قام باستعراض غنائمه من الخيل والماشية، وانتقى أفضل الأبقار لتنقل الى مقدونيا لتعمل في أرضها[١٦].

وجدير بالملاحظة أن تلك العقلية المتطلعة للمعرفة والاستكشاف لم تكن قاصرة على الاسكندر فحسب، ولكنها

وجدت جلية لدى عدد من رفاقه وقرنـائه الذين نشـأوا معه في القصر الملكي في بيللا، وتلقوا التعليم ذاته ؛ وأفـادوا من البيئة الثقافية التي أحاطت بالعاصمة المقدونية. وتؤكد هذه الظاهرة فقرات من الكتب التي ألفها رجال مثل كـاليسثنيس ونيارخس وبطليموس.

فاذا أخذنا نيارخس Nearchus، على سبيل المثال، الذي قاد القوة البحرية في الرحلة الاستكشافيـة الكبرى من السنـد الى الفرات، وكتب سجلا بها يَنمّ عن نضج عقليته وكمال اعداده، فهو يبدي اهتمامـا واضحا بـدراسة الطبيعـة في الهند، وسكـانها وتقاليدهم. ولسـوء الحظ لم يبق لنـا من مؤلفـه سوى فقـرات مقتبسة في أعمال استرابون وأريانوس[١٧].

على أن حملة نيارخس لم تكن سوى جزء من خـطة كبرى للاستكشاف كانت متمثلة في عقلية الاسكندر المتوثبة. بمجـرد عودته الى بابل عام ٣٢٤ ق.م. شرع في الاعداد لمشروع طموح للابحار حول سواحل الجزيرة العربية حتى مدينة هيـروبولس Heroopolis على ساحل مصر على البحر الأحمر. ولقد بذلت جهود كبرى لاعداد الاسطول المناسب. فالقوة التي قـادها نيـارخس أبحرت شمالا من الخليـج الى الفرات ؛ بينمـا جيء بسفن من الساحل الفينيقي، بعد فك أجزائها ونقلها برا الى موقع ثابساكس Thapsacus على الفرات، وهناك أعيد تجميعها وبناؤها، وأبحرت جنوبا الى بابل[١٨]. أما البحارة وغيرهم من العمال اللازمـين فقد أمكن توفيرهم بتشغيل صيادي المحار والأصداف والذين تتصـل أعمالهم بالبحر في فينيقيا والسواحل المجاورة. وتم بناء ميناء كامل الاعداد يتسع لايواء ألف سفينة حربية. وأوفد رسول الى فينيقيا وسوريا بمبلغ خمسمائة تالنتون لاستئجار أو شراء رجال ذوي خبرة بـالسفن والبحر. « فـالواقع، كـان لدى الاسكندر فكـرة تأسيس مستوطنات على امداد ساحل الخليج وعلى الجزر المواجهة للساحل ؛ فقد تخيل أنها قد تصبح بلدا مزدهرا مثل فينيقيا »[١٩].

وقبل الشروع في تنفيذ الحملة لزم اجراء استكشاف أولي للخليج ؛ وفعلا أوفد الاسكندر لهذا الغرض ثلاث بعثات للتعرف

وكتابة تقارير عن أحوال الخليج وساحل الجزيرة العربية. الأولى هي بعثة أرخياس Archias الذي قدم تقريرا بوجود جزيرتين على مسافة من مصب الفرات؛ أصغر الجزيرتين وأقربهما « كانت كثيفة الأشجار، وبها معبد الالهة أرتيمس ». وقد أطلق عليها الاسكندر اسم ايكاروس (بطل احدى الأساطير اليونانية واسم جزيرة صغيرة في بحر ايجة)؛ وهي المعروفة الآن بجزيرة فيلكا في دولة الكويت. الثانية وأبعد الجزيرتين أطلق عليها اسم تيلوس « فكانت أكبر مساحة، وفي معظمها أقل أشجارا وحيوانات، ولكنها صالحة لزراعة كافة المحاصيل النباتية ». وهي المعروفة الآن بالبحرين. أما البعثتان الأخريان، فاحداهما ترأسها أندروستنيس Androsthenes وذهبت أكثر جنوبا، مبحرة حول جزء من شبه الجزيرة العربية؛ والبعثة الأخرى قادها هيرون Hiero، ويقال انها « ذهبت أبعد من البعثتين السابقتين ».[٢٠]

ولكن الحملة التي أعد لها هذا الاعداد، لم توضع موضع التنفيذ، وذلك بسبب موت الاسكندر المفاجيء في سنة ٣٢٣ ق.م.، وماتت معه جميع أحلامه وتطلعاته. ولكن التقارير الاستكشافية التي كان قد أمر بها بقيت من بعده، وأثارت حركة لم يسبق لها مثيل من الدراسة العلمية للأرض وطبيعتها وسكانها. وساد احساس عام بوجود روح جديدة في الجو، روح نهضة في المعرفة الانسانية. في هذا الجو العام ولدت فكرة المكتبة والموسيون في الاسكندرية.

الفصل الثاني

الاسكندرية عاصمة عهد جديد

تجربة بيئة في تعدد الأجناس والثقافات

من بين جميع المدن العديدة التي أسسها الاسكندر في أرجاء امبراطوريته الشاسعة، اثبتت مدينة الاسكندرية التي بمصر أنها أعظمها شأنا وأبقاها على الزمن. وكما تختلط الحقيقة والخيال عندما نتناول أي موضوع يتعلق بالاسكندر، الذي أصبح حتى في حياته أشبه بأسطورة بكل جزئياتها، كذلك لم تفتقر مدينته التي أسسها على ساحل مصر الشمالي لهذا العنصر الأسطوري. فقد رُوي لنا أن الاسكندر عند اختياره موقعا مناسبا، استهدى في ذلك بتوجيه هوميروس نفسه، معلمه الروحي فيقال إنه ظهر للاسكندر في الحلم، وأنشده أبياته المشهورة من ملحمة الأوديسة عندما التجأ مينيلاوس الى جزيرة فاروس. واستجابة لهذا الحلم، كما يروي بلوتارخس، « غادر الاسكندر مخدعه في الحال، وذهب الى فاروس، التي كانت آنئذ لا تزال جزيرة صغيرة تقع الى الجنوب الغربي بالنسبة للمصب الكانوبي (حاليا أبي قير) لنهر النيل... وما ان ألقى نظرة على المكان حتى أدرك مزايا ذلك الموقع. فهي عبارة عن لسان من الأرض اليابسة، أشبه بالبرزخ، متناسق الأبعاد طولا وعرضا. فعلى أحد جانبيه تقع بحيرة كبيرة، وعلى الجانب الآخر البحر، الذي شكل هناك ميناء فسيحة. وقد حفزه هذا الى القول : « إن من خصائص هوميروس الباهرة، أنه مهندس ممتاز » ؛ وأمر بأن تخطط مدينة مناسبة لطبيعة الأرض، مع كل ما يلزم لها من ملحقات »[١] وبعد ذلك تورد مصادرنا

القصة المسلية كيف أن المهندسين أثناء عمل خطوط رسم المدينة على الأرض، نفد ما كان معهم من الطباشير، فاستخدموا دقيق القمح بدلا منه. وبعد أن انتهى كل شيء وحضر الملك ليرى رسم التصميم، فجأة ارتفعت في السماء كسحابة سوداء من جانب النهر والبحيرة أعداد لا حصر لها من طيور كبيرة من أنواع مختلفة، ثم انقضت على الموقع وأكلت الدقيق كله. وخشي الاسكندر أن يكون ذلك نذير شر، ولكن العرافين أسرعوا لازالة مخاوفه من ذلك الطالع، وأكدوا له أن المدينة سوف تنعم بالوفرة، وأن الناس من جميع الشعوب سيقصدونها ليرتزقوا منها[٢].

ولكن مثل هذه القصص، منذ العصور القديمة لم تؤخذ أخذا جادا ؛ وهذا هو استرابون في القرن الأول قبل الميلاد، يعلن أكثر من مرة أنه « لا يمكن قبول القصص التي شاعت وانتشرت بهدف تمجيد الاسكندر على الاطلاق، فقد كان هدف مروجيها هو النفاق وليس الحقيقة. »[٣]

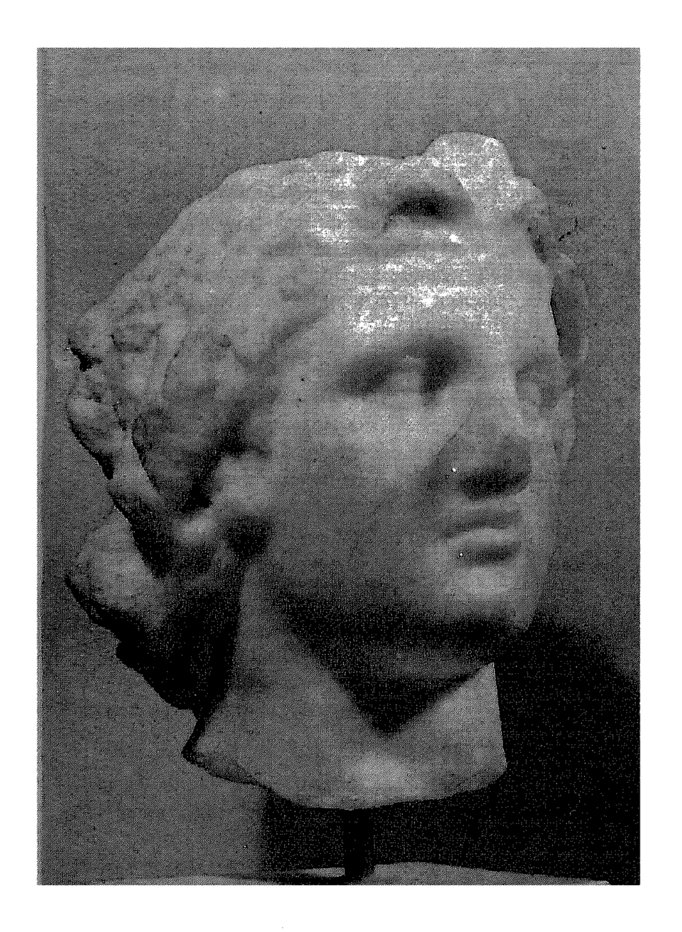
ولقد أثارت الأبحاث الحديثة الشكوك حول القيمة التاريخية لواحد من أشهر مصادرنا التاريخية عن الاسكندر، وهو كتاب أريانوس ومصدره بطليموس ؛ بينما حاول الباحثون الحديثون الافادة من سير الاسكندر ذات الطابع الشعبي والتي كانت موضع شك المؤرخين من قبل[٤]. وهكذا اكتسبت سيرة الاسكندر شبه التاريخية قيمة ذاتية، وخاصة في الاخبار المتعلقة بمصر، فبالنسبة لموضوع تأسيس الاسكندرية، نجدها تحتفظ بمعلومات مستمدة فيما يبدو من أوساط مطلعة على دخائل الأمور. فمنها نعرف أن الاسكندر عقد مباحثات مع مجموعة من المهندسين والاستشاريين، نذكر منهم كليومينيس من نقراطيس ودينوقراطيس من رودس وكراتيروس من أولينثوس وهيرون من ليبيا[٥]. ومن سوء الحظ أنها لا تخبرنا بما دار أثناء هذه المناقشات ؛ ولكن ملاحظة وردت على لسان هيكاتايوس من أبديرا Hecataeus of Abdera ـ من معاصري الاسكندر ـ قد تلقي ضوءا على ما قد دار من مناقشات. فهو يصف ساحل مصر الشمالي بأنه « بلا ميناء تقريبا »[٦] وبعد مرور نصف قرن يعيد

أراتوستثنيس الملاحـظة ذاتها ويضيف حتى الميناء الذي كان لمصر، « ميناء فاروس لا يسمح بدخول مصر »، مما زاد من صعوبة الوصول الى مصر من البحر[٧].

يبدو أن هذا الخط من التفكير هو الذي ساد بين الاسكندر ومستشاريه. فيبدو من المؤكد أنه كان هناك ميناء في جزيرة فاروس؛ ويكفي أن نذكر ابيات هوميروس التي تشير الى رحلة مينيلاوس أثناء عودته من طروادة، وأنه توقف « عند جزيرة في البحر الزاخر أمام « إيجبتوس »، ويسمونها فاروس، على مسافة يوم واحد تقطعه السفينة، تدفعها ريح مؤاتية. يوجد بها ميناء له مراسي جيدة، منها يقود البحارة سفنهم شامخة الى البحر. »[٨].

يتضح من هذه المعلومات القليلة المتفرقة حقيقتان : الأولى، أن البحارة الاغريق وجدوا مشقة في الدخول الى مصر من البحر، نظرا لأن الساحل الشمالي للبلاد كان يفتقر الى ميناء آمن دائم. ثانيا، أن الميناء الوحيد المتاح أمامهم لتوقف سفنهم قبل دخول مصر، كان ميناء جزيرة فاروس، والذي كان معروفا للأغريق منذ القرن الثامن ق.م.

ويخبرنا هيرودوت أن جميع السفن اليونانية، على الأقل منذ القرن السادس ق.م.، كانت ملزمة بأن تدخل مصر عن طريق مصب فرع كانوب[٩] (أبي قير حاليا)، والذي يبعد عن فاروس مسافة ثلاثين كيلو مترا تقريبا. وقد لا نجانب الصواب إذا أوردنا هنا استطرادا سريعا حول جغرافية هوميروس. فمن المعروف أن المسافة التي تفصل فاروس عن الساحل المصري أمامها مباشرة تبلغ ميلا واحدا، ويمكن أن تقطعها السفينة في أقل من ساعة، وليس في يوم كامل كما ورد في فقرة هوميروس سالفة الذكر. لتفسير هذا التناقض الظاهري، يجب أن ندرك أن هوميروس حين يقول « إيجبتوس » هنا، إنه يشير الى « إيجبتوس، النهر الذي تغذيه السماء » كما ورد في موضع آخر من الأوديسة، لأن اسم النيل لم يرد في أشعار هوميروس وأقرب مدخل له هو مصب فرع كانوب، ويستغرق الوصول اليه من فاروس رحلة يوم مع ريح مؤاتية.[١٠]

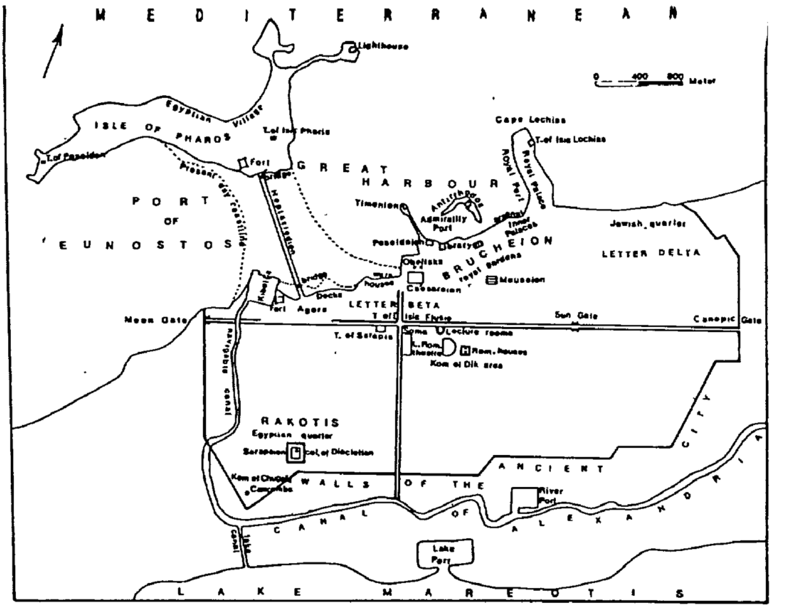


تمثال نصفي للاسكندر الأكبر - رخام (ربما قرن ثالث ق.م.)

وعند كانوب، كانت تجبى الرسوم الجمركية حسب ما ورد في قرار الملك نكتانيبو الأول (٣٧٨ - ٣٦٠ ق.م.)،[١١] وكما سبق أن ذكرنا كان الميناء الوحيد الذي كان باستطاعة السفن اليونانية أن ترسو فيه قبل دخولها الى النيل هو ميناء فاروس. ويؤكد هذه الحقيقة وجود آثار أرصفة ميناء في البحر الى شمال وغرب الجزيرة[١٢] أما عن الساحل الذي تقع أمامه الجزيرة، فان الرواية التاريخية اليونانية، كما سجلها استرابون والسيرة المنسوبة لكاليسثنيس تشير الى وجود عدد من القرى، التي كانت أكبرها راقودة. وقد كانت لها وظيفة عسكرية لحماية مدخل الدلتا من ناحية الغرب، من البر والبحر معا.[١٣]

ولا شك أن البحارة والتجار اليونانيين ـ قبل الاسكندر بعدة قرون ـ كانوا على ألفة تامة بالسواحل المصرية الشمالية، وخاصة منطقة كانوب وجزيرة فاروس وقرية راقودة، وكانوا مدركين لامكانياتها الملاحية. فمنذ القرن السابع ق.م. والاغريق يستقرون في مصر بأعداد متزايدة، في دافني (قرب دمياط) ومنف ونقراطيس (قرب دمنهور). وفي الوقت نفسه كان النشاط التجاري بين البلدين في تزايد مستمر، وأن بعض التجار الاغريق كانوا يحققون ثروات كبرى كما تشير فقرة من أشعار باخيليدس من القرن الخامس ق.م.، بقيت لنا على بردية قديمة. وفيها يصور أحلام فتى قد لعبت بلبه الخمر، « فكأن منزله يزخر بالذهب والعاج، وكأنه صاحب سفن مشحونة قمحا تسري على صفحة البحر المتلألىء، جالبة له الثروة العريضة من مصر »[١٤]

كان هؤلاء البحارة والتجار والمهاجرون في حاجة الى ميناء صالح مستديم، لأن المراسي التي كانت موجودة عند كانوب والفرما (بيلوزيوم Peluseum) لم تكن كافية ولا صالحة لأغراض الملاحة الكبرى المنتظمة. فقد كانت ضحلة وغير مستديمة لوقوعها عند مناطق تراكم طمي نهر النيل عند مصباته. وكان ترسيب الطمي يتجه اتجاها شرقيا بتأثير تيار بحري يسير من الغرب الى الشرق على طول الساحل المصري الشمالي. ومن ثم يجب أن يكون موقع الميناء المثالي لمصر في غرب الدلتا، حتى لا يتعرض لتأثير طمي النيل.

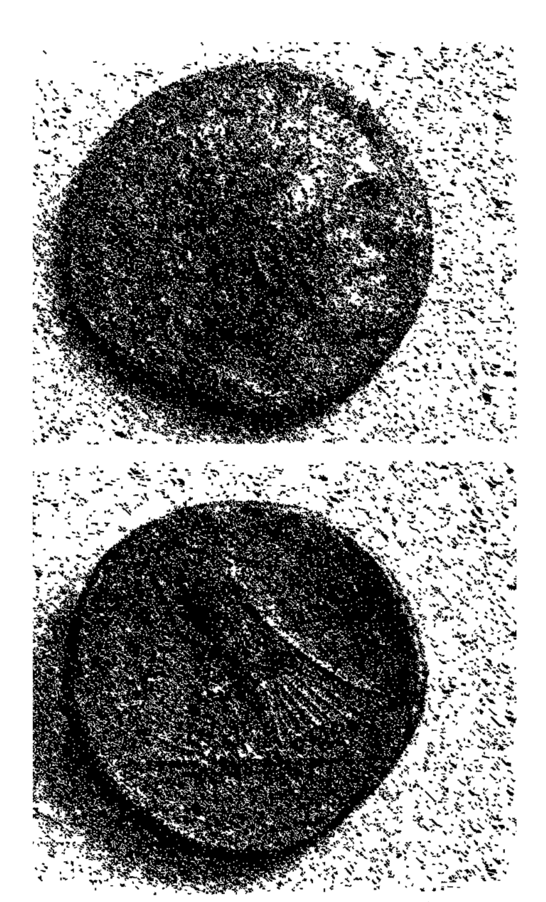


خريطة الاسكندرية القديمة

ولم يكن الاسكندر رجل بحر من حيث التربية والتدريب، ولكنه كان رجلا ذكيا لا يتردد في طلب مشورة ورأي الخبراء، ونجده قد فعل ذلك عندما أقدم على تأسيس الاسكندرية، فاجتمع بخبرائه كما ذكرنا، واستمع الى مناقشاتهم بشأن الظروف الطبيعية والمناخية لاختيار الموقع المناسب للميناء الجديد. ولا بد قد طرح في هذه المناقشات الاقتراح العملي ببناء جسر أو رصيف يصل جزيرة فاروس بالساحل قرب قرية راقودة غرب الدلتا. فبهذا العمل تتحقق الحماية اللازمة للميناء الجديد (الشرقي) من تأثير التيار البحري، وفي الوقت نفسه تمثل جزيرة فاروس في امتدادها حاجز أمواج طبيعي ضد تأثير الرياح الشمالية (الأتيسية). بالاضافة الى ميزات أخرى واضحة، لأن بحيرة مريوط الى الجنوب تيسر الاتصال المباشر بالنيل؛ كما أن قناة قصيرة من الفرع الكانوبي تحل مشكلة تزويد المدينة بالماء العذب بصورة منتظمة. ولا جدال أن ذلك كان أفضل اختيار لموقع يقوم عليه أنسب ميناء لمصر على ساحل البحر المتوسط.

بناء على هذه الأسباب اتخذ الاسكندر قراره، وكلف المهندس دينوقراط بوضع تصميم المدينة الجديدة. ثم استأنف رحلته غربا لتحقيق بغيته في الحج الى معبد الإله آمون في سيوة خلال شتاء ٣٣٢ – ٣٣١ ق.م.؛ وفي طريق العودة توقف ثانية عند موقع الاسكندرية لمعاينة واقرار مخطط المدينة كما رسمه دينوقراط. ثم عين كليو مينيس من نقراطيس ـ وزير ماليته في مصر ـ مشرفا على التنفيذ ومسؤولا عن التمويل. ويعتقد أن يوم التأسيس كان في ٧ أبريل ٣٣١ ق.م.[١٥]. ومنذ ذلك التاريخ بقيت الاسكندرية أهم ميناء في مصر.

كانت خطة الاسكندر في تأسيس مدنه واضحة بسيطة؛ تتضمن عادة اقامة حامية عسكرية مقدونية مع مجموعات من السكان المحليين، تضاف اليهم جالية يونانية.[١٦] ومن الواضح أن هذه العناصر توفرت في حالة الاسكندرية : جالية مقدونية،[١٧] وسكان مصريون من راقودة والقرى المجاورة،[١٨] وكذلك إغريق من المستقرين في نقراطيس ومنف[١٩]. أثناء حياة الاسكندر كانت

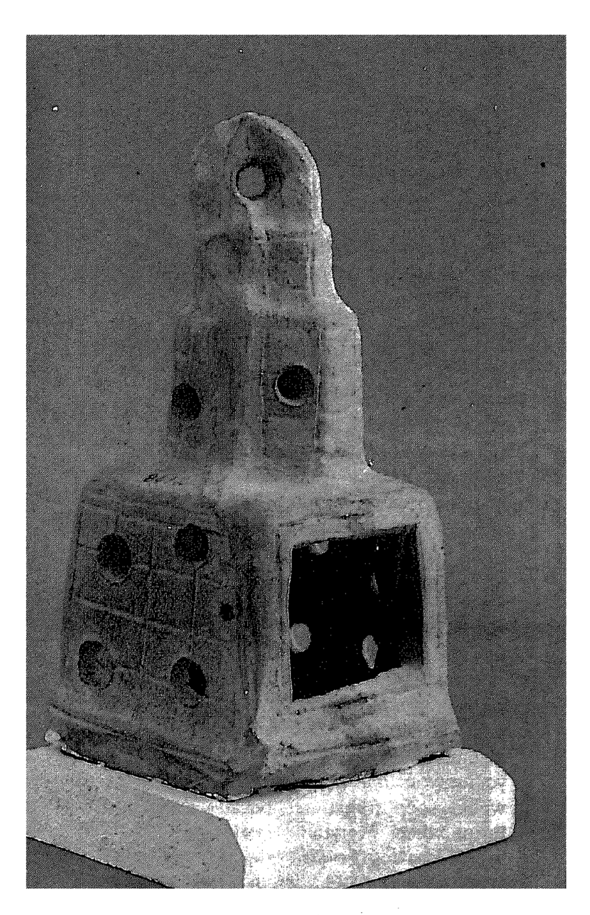


عملة فضية من فئة أربع دراخمات، عليها صورة بطليموس الأول سوتير
(٣٢٣ – ٢٨٤ ق.م)

المدينة تحت ادارة كليومينيس النشطة القوية، فنمت بسرعة الى ميناء مزدهر قادر على الوفاء بكل متطلبات تجارته العالمية في القمح[٢٠]. أما متى أصبحت الاسكندرية عاصمة لمصر ـ ولمدة الف عام تقريبا بعد ذلك ؟ فهو سؤال أثار جدلا بين العلماء. ولعل من المحتمل أن الاسكندر نفسه كان قد أرادها أن تصبح عاصمة، كما يفهم من عبارة وردت في سيرة ذات طابع شعبي كتبها يوستينوس ؛ فهو يقول إنه عند عودة الاسكندر من سيوة « أسس الاسكندرية، وأمر بأن تكون مستوطنَة مقدونية وعاصمة لمصر. »[٢١] ومما يؤيد هذا التفكير، أن دار سك العملة في مصر اقيمت في الاسكندرية، وليس في العاصمة القديمة منف[٢٢]. أما الانتقال الفعلي لأجهزة الادارة والحكم الى المدينة الجديدة فقد تأخر بعض الوقت بطبيعة الحال، ريثما تتم الاجراءات والانشاءات اللازمة. ويبدو أن ذلك لم يتم انجازه الى ما بعد وفاة الاسكندر في ٣٢٣ ق.م.، حين خلفه في مصر قائده بطليموس بن لاجوس، وهو الذي قام بنقل مقر حكمه وادارته الى الاسكندرية في ٣٢٠ ق.م.[٢٣].

كانت وفاة الاسكندر وهو في سن الثالثة والثلاثين مفاجأة كبرى، نتج عنها تغير الخريطة السياسية لكل اقاليم شرق البحر المتوسط، إذ اقتسم كبار قواده الامبراطورية. فأصبح كل واحد منهم « ساتراب » (وهو اللفظ الفارسي للقب والي) تحت ادارة مركزية. ومنذ البداية كان واضحا أن القادة لم يقنعوا بوضع الساتراب، وسلك كل منهم سياسة الحاكم المستقل ؛ حتى إذا كان عام ٣٠٦ ق.م. أعلنوا أنفسهم ملوكا، كلا في ولايته. وهكذا أسس بطليموس بن لاجوس أسرة ملكية باسمه في مصر، قدر لها أن تدوم ثلاثة قرون.

ويصف المؤرخ الروماني تاكتيوس الملك بطليموس الأول بأنه « أول من شاد ثراء مصر من المقدونيين عندما أضاف الى الاسكندرية، التي كانت قد تأسست قبله مباشرة، أسوارا حصينة ومعابد وعبادات جديدة »[٢٤] وتتمثل العبادات الجديدة في اتخاذ سرابيس إلها رسميا حارسا للأسرة المالكة،[٢٥] وعبادة



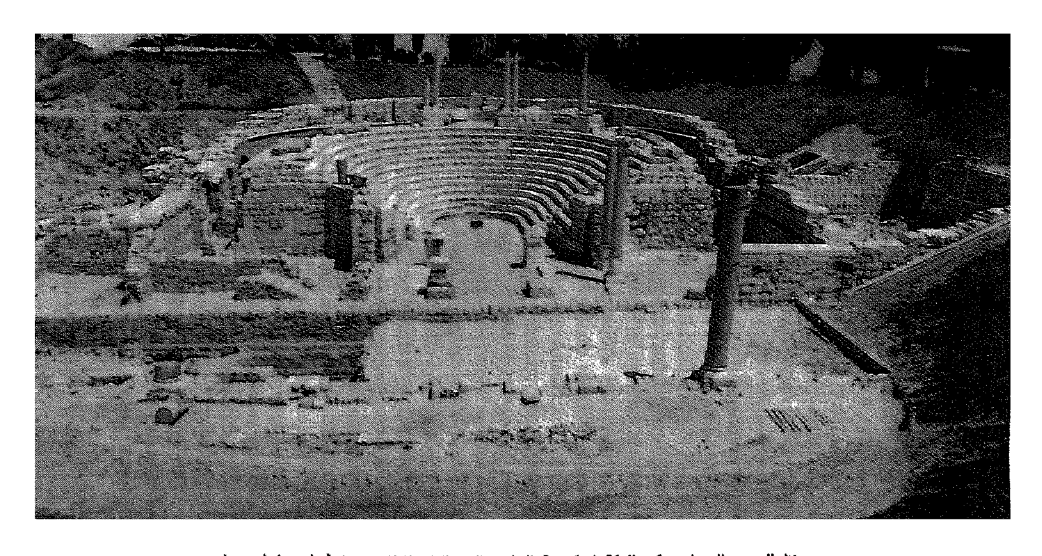
نموذج صغير من الفخار لمنارة الاسكندرية (عصر روماني)

الاسكندر باعتباره روحا حامية للمدينة. وقد اقترنت عبادة الاسكندر بتشييد ضريحه الفخم الذي عرف باسم « سوما » (Soma أو Sema)[٢٦]. كما شرع بطليموس الذي اتخذ لقب « سوتير » ـ في اقامة منارة الاسكندرية الشهيرة عند طرف فاروس[٢٧] عند مدخل الميناء الشرقي؛ وكذلك أسس المجمع العلمي المعروف باسم « موسيون » والمكتبة الملكية[٢٨] ويقع كل من الضريح والموسيون والمكتبة الملكية ضمن منطقة القصور الملكية التي يقول استرابون انها بلغت في اتساعها نحوا من ربع أو ثلث مسطح المدينة[٢٩].

وكما قد نتوقع، استغرق تشييد بعض هذه المؤسسات التي بداها بطليموس الأول سنوات امتدت عقدا أو عقدين أو أكثر، ولم يكتمل بناؤها الا في عهد ابنه بطليموس الثاني الذي اتخذ لقب فيلادلفوس (٢٨٥ – ٢٤٦ ق.م.) ولذلك نسبت بعض الروايات التاريخية المتأخرة العناية بجمال وفخامة الاسكندرية للابن أكثر من الأب، خاصة وأن عصر الابن فيلادلفوس كان يمثل ذروة في الرخاء والازدهار[٣٠].

كذلك أسهم بطليموس الثالث الملقب يوارجتيس الأول (٢٤٦ – ٢٢١ ق.م.) في رونق الاسكندرية وبهائها باعادة بناء معبد السرابيون في الحي المصري، وبه الحق فرعا من المكتبة الملكية، حين ضاقت الأخيرة بكثرة الكتب[٣١] واصبح السرابيون الجديد ومكتبته « الابنة » صرحا ومعلما من معالم الحياة في المدينة.

وهناك انطباع عام أن الاسكندرية بلغت ذروة العظمة والشهرة باعتبارها عاصمة عالمية خلال القرن الثالث ق.م. فنجد حكم فيلادلفوس بالذات مصورا أحسن تصوير في أدب ذلك العصر. فالشاعر ثيوكريتوس يمجد سلطانه على البلاد والشعوب الاجنبية[٣٢]. ويروي هيروداس في إحدى « ميمياته » من القصائد الهزلية، كيف تحاول امرأة عجوز اغراء شابة أن تتخذ عشيقا جديدا بدلا من السابق الذي لن يلبث أن ينساها بعد أن رحل الى مصر حيث سيجد كل ما يتمناه ويتخيله من « الثروة



منظر للمسرح الروماني ـ كوم الدكة، اسكندرية، البناء من القرن الرابع الميلادي، على أساس بناء أسبق وأقدم

والملاعب والسلطة والرخاء والمجد والمعارض، وفلاسفة وذهب وشباب ومعبد الملك والملكة (الأخوين adelphoi)، ملك كريم وموسيون، وخمر، وكل ما تشتهيه النفس، ونساء أكثر عددا من نجوم السماء تنافس بجمالهن الربات اللائي احتكمن الى باريس »[٣٣]. وجميعها مغريات كفيلة بأن تسلب أي رجل قلبه ولبّه.

وهكذا اجتذبت فرص العمل والثروة والشهرة المهاجرين من بلاد البحر المتوسط وكان الاغريق والشعوب الناطقة باليونانية من آسيا الصغرى أكثر المهاجرين عددا، يليهم مباشرة اليهود، الذين لهم بالاسكندرية جالية كبيرة منذ القرن الثالث ق.م. كما أن الانشاءات العمرانية المتعاقبة، وفي عبارة استرابون مستشهدا بقول هوميروس « بناء فوق بناء »[٣٤]ضاعفت أعداد السكان المصريين. وهكذا تكون أهل الاسكندرية من خليط من أجناس مختلفة. وقد لاحظ الشاعر ثيوكريتوس هذا الاختلاط، فصور في احدى قصائده الساخرة التقاء يونانيين يتكلمون لهجات مختلفة في أحد شوارع المدينة يوم عيد. فصور رجلا في الزحام يسخر من حديث امرأتين بمحاكاة لهجتهما، فانفجرت احداهما غاضبة، وأعلنت في فخر أنهما من سيراكيوز (بصقلية) ومن أسرة كورنثية الاصل مثل البطل الأسطوري بليروفون نفسه، وأنهما تتحدثان اللهجة البلوبونيزية. ثم تصيح متعجبة لسائر المارة « ألا يجوز للدوريين أن يتحدثوا الدورية، أو لا يجوز ؟ »[٣٥].

هناك إشارات تدل على وجود صلات مع بلاد نائية مثل الهند، كما يتمثل فيما حدث من تبادل السفارات بين الملك أسوكا وفيلادلفوس. فبعد أن اعتنق أسوكا البوذية، اعتبر نفسه رسولها الملكي، واتخذ من تعاليم جوتاما دينا عالميا دعى جميع الشعوب الى اعتناقه. ولقد أمكن العثور على أكثر من ثلاثين نقشا كتابيا، عرفت باسم « بيانات الصخور »، في أقاليم متفرقة من الهند ؛ وفيها أعلن أسوكا تعاليم بوذا. وورد في البيان الثالث عشر من منطقة جرنار أنه موجه صراحة الى خمسة ملوك هللينستيين،

احدهم بطليموس الثاني[٣٦]. وعرفت شوارع الاسكندرية مشهد النساك البوذيين في القرن الثالث ق.م.؛ وفي احد المواكب الملكية لاستعراض مقتنيات الملك الغريبة أو النادرة حوالي عام ٢٧٠ ق.م. شاهد الاسكندريون « فتيات هنديات، وكلابا هندية، وستة وعشرين بقرة هندية ناصعة البياض ».[٣٧]

وسرعان ما تبوأت الاسكندرية مكان الصدارة في التجارة العالمية، فقصدها كبار التجار ورجال المال من الأجانب، واتخذوا بها مراكز أعمالهم واوجه نشاطهم؛ ثم تطور الموقف واتصلت اسبابهم فكونوا شركات تجارية دولية للقيام بالعمليات الأكثر تعقيدا والأكثر تكلفة. وقد احتفظت لنا وثيقة بردية من القرن الثاني ق.م. بمثال فريد من هذه الشركات[٣٨]. وهي عبارة عن عقد قرض بحري لاستيراد البخور والعطور من بلاد الصومال في شرق افريقيا. ورغم سوء حالة البردية، فان ما بقي منها يساعدنا على ادراك أن هناك اثني عشر رجلا يشملهم العقد، ويمكننا أن نتعرف على المواطن الأصلية لسبعة منهم على النحو التالي : إثنان من ميساليا (بصقلية)، واحد من سالونيك (بالبلقان)، واحد من لكيديمونيا (اليونان)، واحد من إليا (إيطاليا)، واحد من قرطاجة، واحد (صاحب بنك) يبدو أنه روماني؛ جميع أسمائهم يونانية، ما عدا صاحب البنك اسمه روماني. ورغم اختلاف أعمالهم الأصلية، مثل السالونيكي والايلي والقرطاجي الذين كانوا يعملون في الاسطول أو الجيش، ولكنهم جميعا انجذبوا في الاسكندرية الى سوق التجارة والمال.

وخلافا لما كان عليه الوضع في القرن الثالث ق.م. نجد في منتصف القرن الثاني ق.م. ان اختلاف الموطن الأصلي ـ رغم استمرار تسجيله بعناية في الوثائق الرسمية ـ لم يعد ظاهرة ملحوظة لعين الزائر العابر. وهكذا نجد المؤرخ بوليبيوس، الذي زار المدينة حوالي عام ١٤٥ ق.م.، يقسم السكان الى ثلاث مجموعات فقط : المصريين والجنود المرتزقة والاسكندريين[٣٩]. وقد كان من السهل التمييز بين الفئات الثلاث، فمن السهل التعرف على الجنود المرتزقة بزيهم العسكري. وكان أكثرهم من

الاغريق أو سكان الأقاليم التي تأغرقت في البحر المتوسط؛ فقد كان أيسر طريق أمام الشباب من مناطق بحر ايجه في سعيهم وراء العمل والرزق، أن يسجلوا أنفسهم في عداد الجيش البطلمي. وهذا هو الشاعر ثيوكريتوس، أثناء طلبه رعاية « الملك بطليموس : افضل دافع أجر يتمناه عامل حر »، فنجده يسخر من نفسه قائلا « اذا لم تنل قصائدي الرضى الملكي، فيمكنني دائما أن اتـزر الحلة العسكرية، وأمتطي صهوة الجواد، مستبسلا في الهجوم على العدو؛ ولأمضي الى مصر ».[٤٠] وقد استقر هؤلاء الجنود المرتزقة في مصر، واستمرت سلالتهم وأمثالهم يعملون في الجيش البطلمي من بعدهم؛ فحتى السنوات الأخيرة من الحكم البطلمي، يذكر يوليوس قيصر في عام ٤٨ ق.م. أن الجيش البطلمي كان يضم « أعدادا من اللصوص وقطاع الطرق من سوريا وكيليكيا (بأسيا الصغرى) والبلاد المجاورة؛ وانضاف اليهم مجرمون ومنفيون، لأن كل من فر من عبيدنا وجد ملجأ آمنا وحياة رغدة في الاسكندرية، ما داموا يسجلون أنفسهم في عداد الجنود ».[٤١]

فئة ثانية لا تخطئها العين من بين سكان الاسكندرية، هم المصريون؛ فمنذ البداية كانوا يمثلون أكثر فئاتها عددا، نظرا لأنها كانت تزود المدينة بما يلزمها من الطبقة العاملة في شتى المجالات. وقد تجمع أغلبهم في الحي الجنوبي حول معبد السرابيون، حيث كانت تقوم قرية راقودة من قبل؛ وقد احتفظ كثير منهم بالزي المصري وباسلوب معيشتهم التقليدي. ولكن بعضا منهم، ممن ينتمون للطبقة المتوسطة وحرصوا على الارتقاء في السلم الاجتماعي، حاولوا الاندماج في الأوساط الهللينية وتشبهوا باليونانيين في أسمائهم ولغتهم وملابسهم. ومع نهاية القرن الثالث ق.م. طرأ تغيير على وضع المصريين، وذلك حين قلّت أعداد الجنود المرتزقة الواردة من الخارج واضطر البطالمة الى الاعتماد على مجندين من المصريين. وكانت نقطة التحول الأساسية في وضعهم حين حقق الجنود المصريون النصر في معركة رفح ٢١٧ ق.م.، بعد انكسار جناح الجنود المرتزقة



جندي على صهوة جواد، بالطة قبر من منطقة الشاطبي في الاسكندرية، حجر كلسي (من عهد البطالسة). يمكن استخدام هذه اللوحة لتجسيد قولة ثيوقريطس : « يلتف بعباءة المحارب ويفرج ساقيه... وينطلق متوجها الى مصر. » (انظر الصفحة ٤٦).

اليونانيين بقيادة الملك بطليموس الرابع. ويصور بوليبيوس ما حدث من تغير بقوله : « وشعر المصريون بالثقة بأنفسهم، وعمت ثورة بين الأهالي استمرت عدة سنوات. وبعد القضاء على الثورة آخر الأمر، كان العنصر المصري في البلاد قد أكد مركزه ولم يعد من الممكن انكاره »[٤٢] وفي عصر بطليموس الخامس ابيفانس (٢٠٥ – ١٨٠) نلتقي بشخصيتين مصريتين في مناصب خطيرة، وهما حورس وتياروس قائدا الوحدة الخاصة من الحرس الملكي[٤٣]. وبعد ذلك بقليل في عهد بطليموس السادس فيلوميتور (١٨٠ – ١٤٥ ق.م.)، نجد ديونيسيوس بيتوسرابيس، الذي يكشف اسمه المزدوج عن أصله المصري، والذي شغل منصبا رفيعا في القصر الملكي. وتمتع بيتوسرابيس بشعبية كبيرة بين المصريين داخل الاسكندرية وخارجها، حتى انه حاول قيادة ثورة وطنية ولكنه فشل[٤٤].

الفئة الثالثة والأخيرة في تقسيم بوليبيوس، هي التي أطلق عليها فئة الاسكندريين بالتعميم ؛ ورغم أنه لاحظ أنهم « خليط من الناس » ولكنه اعتبرهم جميعا « من أصول هيلينية » (أي يونانية)[٤٥]. وهو تعريف غير صحيح في تعميمه، فمن الواضح أنه أصدر حكمه بناء على المظهر الخارجي، لأن كثيرين منهم كانوا أسيويين اصطبغوا بالصبغة الهيلينية، كما هو الحال بالنسبة لجالية اليهود.

ويحسن بنا أن نذكر هنا أن اصطلاح « اسكندري » من الناحية الرسمية كان يطلق على من يتمتع بالمواطنة الاسكندرية، التي كانت منزلة قانونية محددة الحقوق منحها الملك لعدد محدود من رعاياه، أكثرهم من الهيلينيين، ويكونون طبقة متميزة في المجتمع. هؤلاء فقط كان يحق لهم رسميا أن يتخذوا لقب « اسكندريين » (Alexandreis)[٤٦].

باستثناء الكثرة الغالبة من المصريين، كانت معظم الجاليات الأخرى في منتصف القرن الثاني ق.م. قد اصطبغت بالصبغة الهللينية. ورغم أن البطالمة لم يمارسوا سياسة محددة لفرض الهللينية، ولكن اجراءات معينة ساعدت على هذا الاتجاه. فما من

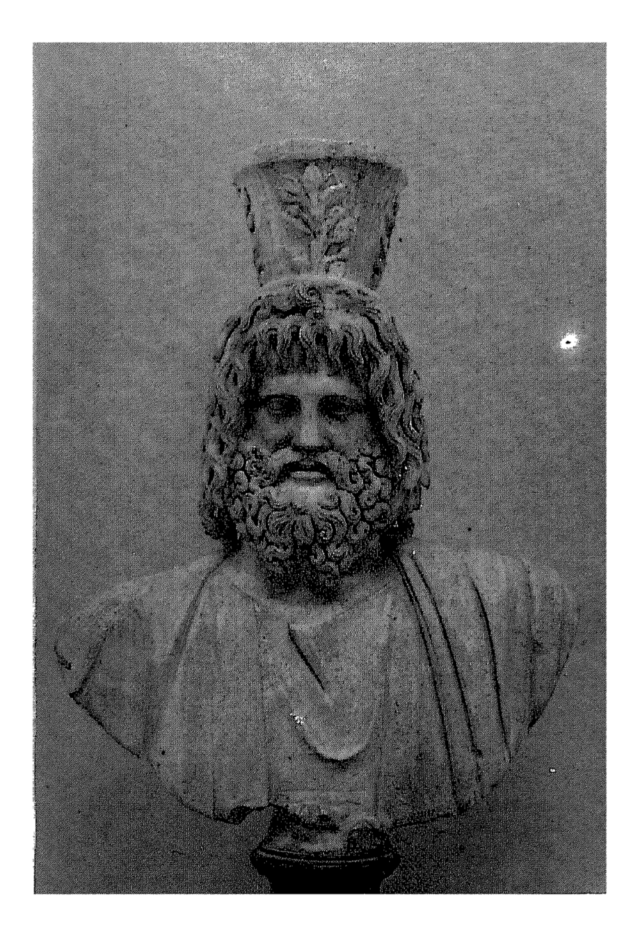
شك أن اتخاذ اللغة اليونانية لغة رسمية للدولة ساعد على شيوعها بين جميع الجاليات المختلفة كوسيلة للحديث العام. الى جانب المعهد الرسمي لتربية النشء من أبناء مواطني المدينة (الجمنازيون) والذي اعتبره استرابون أجمل مبانيها العامة، وجد كثير من المعاهد الخاصة (gymnasia) تلقى فيها أبناء سائر السكان قواعد التعليم العام على أسس يونانية أيضا[٤٧]. فلم يكن غريبا أن سادت اللغة اليونانية ؛ وفي خلال قرن ونصف اختفت أو كادت اللهجات المختلفة من شوارع الاسكندرية، وبدأت تتضح لهجة اسكندرية متميزة. وليس أدل على حدوث هذا التطور أن كاتبا يسمى ديمتريوس (من اداراميتيوس) وضع في منتصف القرن الثاني ق.م. مؤلفا عن « اللهجة الاسكندرية »[٤٨] ولا بد أن بوليبيوس حين وصف فئة الاسكندريين في تقسيمه بأنهم من أصول هيلينية، كان قد أخذ بمظهرهم الثقافي في لهجة حديثهم وثيابهم على نحو ما بدوا له.

وكذلك الحال بالنسبة لليهود وقت زيارة بوليبيوس للمدينة، فلم يكونوا يختلفون في مظهرهم الخارجي عن سائر الجاليات المصطبغة بالهيلينية، والتي كانت تزدحم بها الاسكندرية. كان اليهود يكونون جالية كبيرة، وتسكن واحدا من أحياء المدينة الخمسة، وهو ما عرف باسم الحي الرابع (دلتا في الحروف اليونانية). ومن مظاهر سرعة تحولهم الثقافي واصطباغهم بالهللينية أنهم منذ القرن الثالث ق.م. شعروا بالحاجة الى ترجمة التوراة الى اليونانية، وهي التي عرفت بالترجمة السبعينية Septuagint وسادت بينهم اللغة اليونانية مكان العبرية والآرامية ؛ وحتى الأسماء العبرانية الصميمة أصبحت نادرة بينهم، وانتشرت بدلا منها أسماء اسكندر وبطليموس وهيلينوس[٤٩].

ان وجود هذه الأجناس المتعددة جنبا الى جنب في مدينة واحدة كثيرا ما يؤدي الى احتكاك مستمر بينها، وأحيانا يتحول الى مواجهة أو صراع علني. ويبدو أن بطليموس الأول سوتير كان متنبها لهذا الموقف وانتهج سياسة مستنيرة تهدف الى التفهم

والتسامح المتبادل بين العنصرين الرئيسيين من عناصر المجتمع، المصريين واليونانيين. وتبدو معالم هذه السياسة واضحة في الآثار وما تبقى من كتابات تاريخية من الفترة المبكرة من العصر البطلمي. فمن بين القضايا الأساسية التي كان على بطليموس الأول أن يفصل فيها هي اختيار اله يرعى ويحرس اسرته الملكية. ولم يكن القرار سهلا، اذ يلزم أن يكون مقبولا لدى المصريين والاغريق معا، وبعبارة أخرى يجب أن يساعد على تآلف العناصر المتباينة المكونة للمملكة البطلمية. ولم يكن اختيار اله جديد من الامور التي يمكن ارجاؤها طويلا، ولكن لزم بشأنها الحذر الشديد والحيطة البالغة حتى لا يصطدم بحساسيات العواطف الدينية لدى رعاياه من المصريين والاغريق. ومن الواضح أن هناك اختلافات بين عقائد الشعبين الدينية، ولكن هناك أيضا أوجه شبه يمكن أن يعمل الخبراء على ابرازها. ولذلك سعى بطليموس للاستعانة بالخبراء في الشؤون الدينية من الشعبين. ومن أهم نصحائه ومستشاريه في هذا الأمر الكاهن المصري مانيتون الخبير بتراث وطنه، وتيموثيوس الذي ينحدر من أسرة أثينية اقترن اسمها بمعرفة الطقوس السرية للالهتين ديميتير وبرسيفوني، وكانت له خبرة شخصية بالمعابد اليونانية في إليوزيس ودلفي.[٥٠]

وتركز تفكيرهم حول عبادة محلية في مدينة منف، وهي عبادة عجل أبيس، الذي كان يعتبر مظهرا من مظاهر عبادة الاله أوزيريس. ولقد قام تصور أوزيريس في الديانة المصرية على أن له صفتين أو خاصيتين أساسيتين : الصفة الأولى هي أنه الاله الذي له السيادة في عالم الموتى، والصفة الثانية ـ ودون أن تتعارض مع الأولى ولعلها متممة لها ـ هي أنه الرقيب للحياة على الأرض. ومن ثم كان يصور على أنه عين الشمس التي ترى كل شيء، والتي تولد كل يوم في شخصية أوزيريس، ولذلك مثل في منف مع الاله بتاح باعتباره رب الحياة (أوزير ـ بتاح)[٥١]. أما عن الصلة بينه وبين العجل أبيس، فقد عبّر عنها هيرودوت في وصفه الطريقة الحمل به حملا طاهرا قدسيا : « أبيس هو عجل صغير،



تمثال نصفي للاله سرابيس، وعلى رأسه الرمز المميز كالاثوس ـ رخام (عصر روماني)

ولد لبقره يمتنع عليها أن تحمل ثانية من بعده، ويقول المصريون ان نارا تهبط على البقرة من السماء، وعن هذا السبيل تحمل ابيس ».[٥٢] ونتيجة لهذه المعجزة التي يتم بها الحمل به، كان ابيس يعتبر تجسيدا لرب الحياة باسم « أوزير ـ بتاح ». وبعبارة اخرى كان العجل اثناء حياته يمثل قوى الحياة الطبيعية والمادية، وبعد وفاته يتحد مع أوزيريس ويعبد باسم « أوزيريس ـ أبيس » او « أوزير ـ حابي » (Osorapis). ولم يقتصر تمجيده وعبادته على المصريين، ولكن لوحظ في منف أن عبادته شملت غير المصريين، وخاصة من بين الأغريق الذين كانوا قد استقروا هناك منذ زمن بسيماتيك وأمازيس.[٥٣]

وهناك اشارة مبكرة الى اهتمام بطليموس الاول بعجل ابيس سجلها لنا شاهد عيان معاصر، وهو هيكاتايوس من ابديرا (Heacataeus of Abdera) فيذكر انه بعد وفاة الاسكندر الأكبر مباشرة، وبمجرد أن تولى بطليموس بن لاجوس حكم مصر، توفي (عجل) أبيس في سن متقدمة بمدينة منف. وفي هذه المناسبة دفع بطليموس مبلغ خمسين تالنتون من الفضة مساهمة منه في نفقات جنازته.[٥٤]

ولكن نظرا لأن الاله الجديد يمثل الدولة البطلمية، فيجب أن يظهر بصورة لائقة اسما وشكلا. في ما يتعلق بالاسم، فقد استمر المصريون يستخدمون الاسم التقليدي، بينما وجد الاغريق مشقة في نطق الاسم أوزورابيس، ولذلك حُرف الاسم الى سرابيس Sarapis. وحسب التقاليد الدينية المصرية، نشأ له ثالوث، مع ايزيس زوجة وحورس ابنا لها. وسرعان ما نشأت معابد له في أرجاء البلاد، ولكن ما من شك أن معبد السرابيون في الاسكندرية كان أكثرها روعة، بينما استمر معبده في منف يتمتع باجلال خاص. لقد حرص الفقهاء الذين صاغوا شخصية سرابيس أن تكون له القدرة على أن يشبه مع آلهة أخرى. وخير دليل على اظهار هذه الخاصية منذ البداية ما يذكره هيكاتايوس عن تطابقه مع عدد من الالهة اليونانية والمصرية في وقت واحد، فيقول « لقد اعتقد البعض أن أوزيريس هو سرابيس، وآخرون

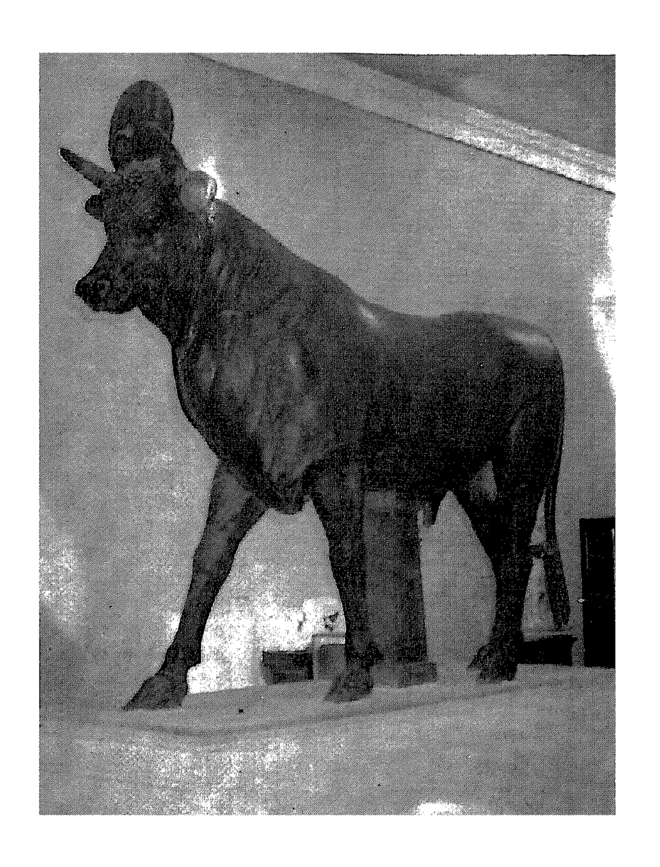


تمثال صغير للاله سرابيس وهو جالس، ترتكز يده اليمنى على أسد، اليسرى مفقوده-
حجر جيري عليه آثار الوان - بطن حارث، الفيوم

أطلقوا عليه ديونيسيوس، وآخرون بلوتون (رب الموتى)، وآخرون ايضا آمون، وبعض قالوا زيوس، وكثيرون يعتقدون انه الاله بان. »[٥٥]

وبينما تصور الأغريق آلهتهم عادة في صورة بشرية، كان المصريون يألفون تصور آلهتهم في صورة الانسان أو الحيوان على السواء. ولكن يجب أن نلاحظ أن أوزيريس هو الاله المصري الوحيد الذي صور دائما في ملامح انسانية، بينما كان اوزيريس/ابيس يعبد في الصورة الحيوانية للعجل وفي الصورة البشرية لأوزيريس. لقد لاحظ مارييت هذا التصور المزدوج للاله عندما قام بحفائره عند معبد السرابيون بمنف في ١٨٥١ – ١٨٥٢، واكتشف تابوتا خشبيا في واحدة من أقدم الجبانات لدفن عجول أبيس. وعلى غير المتوقع، لم يكن لعجل ولكن لانسان، وهو الأمير خا ـ ام ـ واسي، ابن رمسيس الثاني نفسه. وبين عدد من القطع الثمينة، وجد ثمانية عشر تمثالا صغيرا برؤوس بشرية ومنقوش عليها « أوزيريس ـ أبيس الاله العظيم، رب الخلود... » مبعثرة حول التابوت. وأكدت لوحة جرانيتية أن التابوت للأمير خا ـ أم ـ واسي نفسه، الذي كان يشغل منصب حاكم منف والكاهن الأكبر لبتاح، وأراد عند وفاته أن يدفن في جبانة عجل أبيس، تيمنا وتقربا. وفي غرفة أخرى تحت الأرض ذات جدران مزينة برسوم، استطاع مارييت أن يستبين رسمين مصور فيهما رمسيس الثاني وابنه خا ـ ام ـ واسي يقدمان القربان أمام عجلي أبيس[٥٦]. ويمكننا أن نتبين من هذه الصور من عصر الدولة الحديثة لأوزيريس ـ أبيس في هيئة بشرية أن بطليموس لم يسيء لمشاعر المصريين الدينية عندما قدم الاله أوزيريس ـ أبيس وهو سرابيس في صورة بشرية لرعاياه من الأغريق الوافدين حديثا، رغم أن المصريين في عصره كانوا قد أصبحوا أكثر الفة للصورة الحيوانية لألهتهم.

الخطوة التالية بعد ذلك هي تصميم تمثال مناسب لهذا الاله المعبود جدير بأن يوضع في معبده الجديد بالاسكندرية. ولعل من المحتمل أن تيموثيوس هو الذي اقترح نقل تمثال مهيب من



تمثال الثور المقدس ابيس، تبدو عليه مظاهر الفحولة والجلال، والقرص الشمسي والحية المقدسة بين قرنيه، من حجر البازلت الأسود. استخرج من دهاليز تحت الأرض في موقع سارابيوم في الاسكندرية (من عهد هادريانوس، ١١٧ - ١٣٨ بعد الميلاد).

سينوبي (بآسيا الصغرى) ينسب للمثال برياكسيس Bryaxis الى الاسكندرية. ويصور هذا التمثال الاله زيوس ـ ديس (وهو بلوتون رب العالم السفلي) في شخصية الأب الوقور. وقد اقتنع بطليموس فورا بالفكرة، واستطاع أن يقنع حاكم ذلك الاقليم أن يرسل اليه التمثال بعد أن تردد في بداية الأمر. وعند وصول التمثال الى الاسكندرية عرض على تيموثيوس ومانيتون فقررا أنه يمثل بلوتون/سرابيس. واكدا لبطليموس « أنه لا يمثل أي اله آخر سوى سرابيس ».[٥٧]

والآن بعد أن استقر الاله الحامي الجديد اسما وصورة، نجد بطليموس حريصا على أن يبرز مظهرا معينا من مظاهر شخصيته المتعددة وهو التماثل بينه وبين الاله ديونيسوس رب الطبيعة والخصب عند اليونان[٥٨] ولم يكن الدافع لدى بطليموس راجعا الى شعبية هذا الاله بين اليونانيين فحسب، ولكن لأن الملوك البطالمة أنفسهم ادعوا أنهم من نسل ديونيسوس[٥٩]. وتدريجيا تمكن بطليموس الأول من أن يقحم التماثل سرابيس ـ ديونيسوس على تقاليد العبادة المصرية المحلية في منف للاله « أوزورابيس ». ففي نهاية الطريق المزين بتماثيل أبي الهول على الجانبين، وفي تباين عكسي مع اسلوبه المصري الصميم، نصل الى ممشى مرصوف أطلق عليه الاغريق كلمة « دروموس » (dromos)، له طابع يوناني متميز بعمارته وتماثيله. وفي هذا الممشى عثر على مجموعة من التماثيل لحاشية ديونيسوس من الحيوانات : تماثيل من الحجر الجيري لأسد ونمر، وطاووسين بذيل منتشر، وكلب قوي الجسم ذي ثلاث رؤوس (لم تبق سوى الراس الوسطى) يمثل الحيوان الاسطوري «كيربيروس » cerberus حارس بوابة العالم السفلي. كل من هذه التماثيل كان في أحد حالين، يعتليه ديونيسوس أو يطأ أوراق وعناقيد العنب. وتنتهي هذه الحاشية الديونيسية ويُتممها تمثالا السِّيرانة (الكائن الاسطوري اليوناني، له رأس امرأة وجسد طائر) وتمثالا الهولة المجنحة اليونانية الطابع. واخيرا عند الطرف الغربي للممشى تقوم غرفتان للعبادة أو مصليان، احداهما



تمثال نادر للاله سرابيس من خشب الجميز (السيكامور)، به آثار تلوين ، ارتفاع ١٨٢ سم (عصر روماني)

مصرية الطابع، تضم تمثالا رائعـا من الحجر الجيـري لعجل أبيس، والغرفة الأخرى يونانية الطابع حيث كانت تتم بها طقوس العبادة، كما يتضح مما عليها من كتابات جدارية باللغة اليونانية. من هذا المزج يتضح لنا أن بطليموس الأول أراد عامدا أن يجعل الممشى في سرابيون منف نموذجا للدمج بين عبـادة أوزيرابيس وشعائر ديونيسوس، وبعبارة أخرى أن يخلق بيئة صالحة للعبادة حيث يلتقي المصريون واليونانيون معا ويشتركون في مجموعة من العقائد مقبولة لدى كل منهم.(٦٠)

اقحام آخر لعنصر يوناني صميم على البيئة المصرية في منف هو تشييد ذلك البناء أو الهيكل على هيئة نصف دائرة تحتضر سبعة تماثيل هللينستية لشعراء وحكماء يونانيين. ولسوء الحظ معظم التماثيـل مهشمة، ولكن أمكن التعـرف على أشخـاصها بمساعدة بقايا الأسماء المكتوبة أو الخصائص المصورة. فهذا هو هـوميروس يجلس في الوسـط، وعن يمينـه الفـلاسفـة طاليس وبـروتاجـوراس وأفـلاطون، وعن شمـاله الشعـراء هيسيـود وبندا روس وفيما يبدو ديمتريوس الفاليري مستندا الى تجسيد صغير لهرميس أحد توابع سرابيس. والسبب في ترجيح أن يكون التمثال الأخير لديمتريوس، هو ما يروى عنه أنه فقد بصره ذات مرة ثم استعاده ببركة من سرابيس، فكتب ترنيمة ظلت تنشد في أعياد الاله فيما بعد.(٦١) فاذا صح ان هذا التمثال لديمتريوس، فمن المرجح أن البناء كله من عمل بطليموس الأول.(٦٢)

كان اكتشاف هذا البناء العلماني اليوناني الصميم في وسط بيئة السرابيوم الدينية الجنائزية الطابع مفاجأة أقلقت ماريِيت، على حد قول لوير، وما زال الى الآن يشكل لغزا محيرا للأثريين والمؤرخين. فموقعه عند الانتقال من نهاية طريق تماثيل أبي الهول المصري الى بداية الممشى ذي الطابع اليوناني ـ المصـري يثير كثيرا من التساؤلات : فهـل هو بنـاء لقبر هللينستي يستحضر شخصيات مشاهير الرجال ؟ أو هو منحة لتجميل مسار المواكب ؟ أو هو صرح مقدس لديونيسوس ؟ أو هو تصميم يوناني ليوحي لزوار المعبد بحقيقة ما هو حادث من انتقال وتحول ثقافي كـان

سرابيس مجرد المظهر الروحي له ؟ أو أنه مجرد دليل على وجود مكتبة السرابيون بمنف كما هو الحال في الاسكندرية ؟[٦٣] تساؤلات كثيرة توحي بتفسيرات متعددة، ولكن لم نحظ بعد بجواب محدد يقنع الجميع. ومهما يكن من أمر، فلا جدال أن هذا البناء يرمز للتراث الثقافي اليوناني الذي أصبح يمثله الحكم البطلمي الجديد، كما انه من ناحية أخرى يوحي بالطمأنينة والسكينة لكثير من الاغريق المستقرين في منف العاصمة القديمة.

لقد سبق أن أشرنا الى أن عبادة سرابيس نشأت من عبادة أوزيرابيس في منف. وبعد أن أقرها بطليموس الأول رسميا انتقل مركزها مباشرة الى الاسكندرية حيث اقترنت باقامة تمثال جديد للعبادة هناك أحضر من سينوبي. لم يبق شيء من آثار هذه الفترة المبكرة في موقعه بالاسكندرية، واقدم ما وصلنا من ادلة اثرية من مركز العبادة الجديد تنتمي للمعبد الذي شيده بطليموس الثالث.[٦٤] ولسوء الحظ البقايا المكتشفة قليلة للغاية، وقد فقد تماما معالم البناء وأسلوبه الهندسي. ولكن يبدو ان هنا أيضا استخدمت أساليب وأنماط من الهندسة والعمارة متعددة توحي بالمزج بين العناصر اليونانية والمصرية، على نحو يشبه ما حدث في « الممشى » في السرابيون بمنف. ونظرا لأن الاسكندرية كانت مثال المدينة اليونانية في مصر كلها، فان معالم مصرية معينة جديرة بالملاحظة في سرابيون الاسكندرية، مثل :

أ) أن المعبد انشىء في الحي المصري حيث كانت قرية راقودة.

ب) أن لوحات التأسيس كتبت باللغتين اليونانية والمصرية، وأن اسم الاله كتب بالصورة المصرية أوزير ـ حابي.

جـ) يقال ان مسلتين مصريتين وضعتا أمام المعبد.

د) العثور حديثا على تمثالي أبي الهول، ولا يزالان في موقعهما الأصلي.

هـ) العثور على تمثال جميل من الجرانيت الأسود لعجل أبيس، حاليا بمتحف الاسكندرية.[٦٥] ان وجود هذه المعالم المصرية في المعبد الخاص بالاله الرسمي راعي البطالمة تنبىء عن استمرار المؤشرات البارزة التي أقام عليها مؤسس الأسرة

سياسته العامة وهي الحرص على التوفيق والتقارب بين العنصرين الرئيسيين من السكان.

كذلك انتهج بطليموس الأول أسلوبا آخر لتحقيق أهداف تلك السياسة، وهو محاولة « اعادة كتابة التاريخ » من أجل الترويج لأفكار معينة تعين على تحقيق غايته. وينبغي أن نتذكر في هذا المقام أن بطليموس الأول نفسه، الى جانب كونه سياسيا حصيفا واقعيا، كان رجلا مثقفا ومؤرخا كتب سيرة للاسكندر حظيت بتقدير الأجيال اللاحقة. ولا بد أنه كان على دراية بكتابات هيرودوت وأفلاطون التي أبديا فيها اعجابهما الشديد بتراث مصر وماضيها. وفي عصره كان هيكاتيوس من أبديرا خير من يمثل هذا الاتجاه بين اليونان، فشجعه بطليموس على الاقامة بمصر وكتابة تاريخ مصر من جديد (Aegyptiaca).[٦٦] ولكن وجهة نظر تاريخية واحدة، وفي هذه الحالة يونانية، لم تكن كافية بالنسبة لبطليموس، فلا بد من تقديم وجهة نظر مصرية عن تاريخ وطنهم، وهو ما قام به مانيتون.

ولسوء الحظ لم يصلنا عمل هيكاتايوس كاملا، ولكن فقرات مطولة بقيت ضمن كتاب ديودور الصقلي. وتدلنا هذه الفقرات أن كتاب هيكاتيوس عن تاريخ أو أخبار مصر كتب بتوجيه معين. ويتضح ذلك من منهجه في المقارنة المستمرة بين تراث المصريين وانجازاتهم مع اليونان، وغالبا ما ينتهي الى الاقلال من أهمية الدور اليوناني. فكثيرا ما يؤكد أن اليونانيين مدينون للمصريين، فيقول مثلا « وعلى العموم... يدعي اليونانيون لأنفسهم أكثر الأبطال والآلهة المصرية شهرة. »[٦٧] وبقدر ما تسمح به الفقرات التي اقتبسها ديودور، نجد أن هذا الاتجاه العام يتمثل ويتأكد في الموضوعات التي اختار هيكاتايوس الكتابة عنها. ويمكن تقسيمها الى قسمين رئيسيين : الديانة، والنظم والتقاليد.

وهو في مجال الديانة يسلك منهجا سبق أن انتهجه هيرودوت، وهو اثبات التطابق بين الآلهة اليونانية الكبرى مع اصولها المصرية : ديونيسوس ـ أوزيريس ديميتير ـ ايزيس، أبوللون ـ حورس، زيوس ـ أمون، هرميس ـ تحوت،

هيفايستوس ـ بتاح، بان ـ مين، حتى ربات الفنون التسع عند اليونان (musae) يرجعهن الى فتيات أوزيريس التسع اللائي دربن على اتقان شتى الفنون والمعارف. وينسب هيكاتايوس لحدثيه من المصريين آراء تشكك في الآلهة كان قد استقاها هو من استاذه بيرون Pyrrhon : « انهم يقولون، هناك آلهة كانوا يعيشون على الأرض حين كانوا بشرا فانين، ولكن بسبب حكمتهم ونعمهم التي اسبغوها على جميع البشر، نالوا الخلود، وبعضهم كانوا ملوكا في مصر ».(٦٨)

الى هنا، قد لا يتضح لنا الهدف السياسي البطلمي، ولكن بمجرد ما يشرع هيكاتايوس في أن يفرد لأوزيريس رواية سيرته وانجازاته وحده دون سائر الآلهة، يتضح الخط السياسي من الكتابة بجلاء. فيخبرنا أنه عندما « اعتلى العرش أوزيريس، جمع جيشا ضخما بقصد زيارة جميع أرجاء المعمورة وتعليم البشرية كافة زراعة العنب وبذر القمح والشعير ». وأنه اصطحب معه « رجالا متمرسين في الزراعة » وفي « الموسيقى » واستقبلته شعوب كثيرة باعتباره الها بسبب أفضاله. وكذلك « أسس كثيرا من المدن، وخلّف فيها رجالا يقومون على حكم البلاد وجباية الجزية ». ويضيف هيكاتايوس أن أوزيريس اقام لوحا كتب عليه : « أنا أوزيريس الملك، قدت حملة الى كل البلاد حتى بلغت الأقاليم غير المسكونة بالهند. » ويختم سيرته بأنه عندما عاد أوزيريس الى مصر نال منحة الخلود.(٦٩)

ان النقاط الواردة في هذه السيرة يمكن أن تخدم أكثر من غرض. فعن طريق تمجيد أوزيريس، يمتدح هيكاتايوس نموذجه الهللينستي سرابيس، ثم هناك تشابه واضح بين حملة أوزيريس وحملة الاسكندر، كما أن التأكيد على بشرية أوزيريس اصلا ثم تأليهه فيما بعد، يقدم تبريرا لاقامة عبادة الاسكندر في الاسكندرية، والتي يمكن أن تعتبر فوق ذلك تمهيدا لتأليه بطليموس الأول نفسه باسم « المنقذ » سوتير (Soter).

أحد جوانب الديانة المصرية كان من الممكن أن يقابل باستنكار من اليونانيين، ولذلك كان يلزم تبريره أو تفسيره، هو

مظهر عبادة الحيوانات المقدسة ويفعل هيكاتايـوس ذلك بطرح تفسير عقلاني يقوم على أساس حجتين متكـاملتين، يـؤكد انـه استمدهما من مصادر مصرية. في الحجة الأولى يقوم بالربط بين الحيوانات المقدسة حسب اقاليم مصر وبين عبادة أوزيريس على النحو التالي : بعد مقتل أوزيـريس وتقسيم اشلاء جسـده بين البلاد، قامت زوجته ايزيس باستعادة جميع قطع الجسد ما عدا عضو التذكير. ثم أخذت كل قطعة على انفراد وصاغت حولها من التوابل والشمع تمثالا لجسم انسان كامل. بعد ذلك قامت بدفن كل واحد من هذه الأجسام في أقاليم مصر المختلفة وكلفت الكهنة المحليين أن يقدموا من مراسم التبجيل ما يقدم للاله، وأن يهبوا له أحد حيوانات اقليمهم، على أن تظل في حياتها متمتعة بمظاهر التكريم التي كان يتمتع بها أوزيريس، وكذلك عند موتها تؤدى لها جنازة مماثلة لجنازته.[٧٠] وفيما يتعلق بتقديس عجل أبيس، فهو يؤكد أنه عبد كـإله من قبل جميـع المصريـين، نظرا لأن هـذا الحيوان ـ أكثر من غيره ـ كان خير عون (لأوزيريس ـ وايزيس) اللذين اكتشفا بذرة القمح، بمساعدتهما في بذر البذور وفي كل أعمال الزراعة التي تنعم بها البشرية.[٧١]

وفي الحجة الثانية يطور هيكـاتايـوس فكرة الفـائدة التي يقدمها كل حيوان مقدس لخدمة المجتمع أو الانسـان عامـة : فالكلب نافع في الصيد وحماية الانسـان، « فقد كـان الحارس الامـين لأوزيريس وايـزيس »، والقطة نـافعـة ضـد الأفـاعي والزواحف، والايبيس (أبو قردان) يحمي ضد الثعابين والجراد والديدان. أما تبريره لتقديس بعض الحيوانـات الأخرى مثـل الذئب والتمساح فأقرب الى عالم الأساطير.[٧٢]

وحين ينتقل هيكاتايوس من اللاهوت الى الأمور الدنيويـة، نجده يواصـل اعجابـه التقليدي بنـظم المصريـين وتقاليـدهم (nomima). من الأمور التي تهم بطليموس في علاقته بالاغريق بصفة خاصة، هو تقديم النظام الملكي كنـظام للحكم في صورة اكثر اشراقا بالمقارنة مع نظم الحكم الأخرى التي كانت معروفة في المدن اليونانية. ومرة ثانية، نجد هيكاتايوس على أتم استعداد



تمثال نصفي للآلهة ايزيس في الزي المصري، من حجر الغرانيت الأسود (من عهد البطالسة).

للاستجابة لمتطلبات الموقف السياسية. وعلى ذلك، عند وصفه اسلوب حياة ملوك مصر، يصورهم غير مستبدين، لا يتبعون أهواءهم. فجميع أعمالهم تخضع لقواعد تحددها القوانين، وليس ذلك بالنسبة لمهامهم الادارية فحسب، بل أيضا في شؤون حياتهم اليومية العادية. « فهناك أوقات محددة لكل شيء، ليس لعقد الاجتماعات والنظر في الأحكام فحسب، ولكن حتى لخروجه للنزهة والاستحمام والنوم مع زوجته، وباختصار لكل عمل في حياته ».[٧٣]

ويتناول هيكاتايوس كذلك عدة موضوعات أخرى لها طرافتها، مثل نظم القضاء، ونظم الطبقة العاملة، ولعل ذروة حديثه تستأثر بموضوع العلم والانجازات العلمية. فيذكر « المكتبة المقدسة » في معبد الرمسيوم في طيبة، ويقول ان أهل طيبة يعتبرون أنفسهم « أسبق واكثر الشعوب تقدما في مجالات الفلسفة ودراسة علم الأفلاك الدقيق ».[٧٤] ويورد بعد ذلك عددا من اليونانيين ممن اشتهروا بالحكمة والعلم، وكانوا قد وفدوا الى مصر ليتعرفوا على تقاليدها وعلومها.[٧٥] وبعد أن يبدأ ببعض الشخصيات الاسطورية، يذكر من الشعراء هوميروس، ومن الحكماء والمشرعين ليكورجس وسولون وافلاطون ممن أدخلوا كثيرا من النظم المصرية ضمن تشريعاتهم. ثم يذكر فيثاغورس « الذي أخذ عن المصريين تعاليمه عن الاله، ونظرياته الهندسية، ونظرية العدد، وتناسخ الأرواح بين الكائنات الحية ». وكذلك ديموقريطس الذي أمضى بين المصريين خمس سنوات، ومنهم تعلم كثيرا من المعارف المتصلة بالتنجيم، واوينوبيدس (Oenopides) الذي امضى ايضا بعض الوقت مع الكهنة وخبراء الأفلاك في مصر، وعلم منهم ـ بين معارف أخرى ـ دورة الشمس واتجاه مسارها ».[٧٦]

يدل العرض السابق أن ديودور الصقلي لم يقتبس باسهاب من هيكاتايوس فحسب، ولكنه استطاع أن يحتفظ لنا بكثير من فكره والأسس النظرية التي أقام عليها تاريخه المصري. ولسوء الحظ اذا ما انتقلنا للحديث عن مانيتون، نجد الموقف مختلفا كل

الاختلاف بالنسبة للفقرات التي بقيت لنا من كتابه تاريخ أو أخبار مصر.[٧٧] ويمكن تقسيم ما وصلنا منه الى قسمين : الأول الموجز وهو يتضمن قوائم تاريخية طويلة بالأسر الملكية المصرية واسماء ملوك كل أسرة. والثاني عرض حقبة غزو الهكسوس لمصر وعلاقتها بحياة موسى. ورغم ما تتميز به القوائم التاريخية من أهمية بالغة، الا أنها خالية تماما من تفصيلات الرواية الاخبارية، أما فيما يتعلق بالرواية التاريخية السهبة عن حقبة الهكسوس وموسى من كتابه « أخبار مصر »، فيعيبها أنها تعرضت لتدخل مستمر من جانب الكتاب اليهود طيلة القرون الثلاثة بين مانيتون ويوسيفوس المؤرخ اليهودي الذي وصلنا عن طريقه النص، بحيث أصبح الآن من العسير أن نستخلص النص الأصلي لمانيتون مما لحقه من زيف أو تحريف.[٧٨] ولا جدال أن فقدان تاريخ مانيتون المطول يعتبر خسارة كبرى، فان معرفته الوثيقة بالتاريخ واللغة المصرية وكذلك علاقته الشخصية بالملكين الأولين من البطالمة[٧٩] تجعلنا نتوقع أن يكون تناوله وعرضه لموضوعات مثل تلك التي تناولها هيكاتايوس بالغ الأهمية. ويكفي أن نذكر أن تقسيم الأسر المصرية الى ثلاثين أسرة والمعمول به الآن، يقوم أساسا على تقسيم مانيتون كما نعرفه في « الموجز ». كما أن خبرته الدينية باعتباره شغل منصب كاهن أعظم في هليوبولس، جعلته مؤهلا لشرح تفصيلات الديانة المصرية، وقد وصلتنا اشارات تدل على انه تناول العقائد والقصص الدينية لعدد من الآلهة مثل ايزيس وأوزيريس وابيس وسرابيس وغيرهم ومع تأكيده على قدم التاريخ المصري.[٨٠] ولكننا لا نستطيع أن نعرف له آراء معينة أو مواقف ذات توجيه سياسي في كتابته للتاريخ.

هناك مؤلف معاصر آخر له أهميته في فهم الصلة بين السياسة والحياة الفكرية في ذلك العصر، ونقصد به يوهيميروس من مسيني Euhemerus of Messene الذي عمل سفيرا لكساندر ملك مقدونيا (٣٠١ – ٢٩٧ ق.م.) قبل أن يستقر نهائيا في مصر في عصر بطليموس الأول وبداية الثاني.[٨١] ويعتبر يوهيميروس

من الناحية الفكرية شخصية متمردة في مجال العقيدة والدين، فقد عبّر عن موقف رافض للاعتقاد السائد في خلود الآلهة. ومن العبارات التي اقتبسها ديودور عن يوهيميروس قوله : ان الآلهة التي اعتاد الناس خطابها باعتبارها خالدة، معتقدين ذلك بسبب نعمها، كانوا في واقع الأمر بشرا في منشأ حياتها، ولكن بعضا منهم نالوا الصفات أو الألقاب التي تنادي بها حسب البلاد التي فتحوها ».[٨٢] وتدلنا هذه العبارة أنه وقع تحت تأثير معاصره الأكبر هيكاتايوس، كما أنه كان على معرفة بفلسفة الشك التي اشتهر بها بيرون في القرن الرابع ق.م.

أما بالنسبة لموقفه من سياسة سوتير، فقد وقف في جانب الاتجاه « التمصيري » بين الكتّاب الاغريق، كما يتضح من كتاب أطلق عليه عنوانا ذا دلالة وهو « السجل المقدس ». وبمقدار ما يمكننا أن نستنتج من الفقرات القليلة التي وصلتنا، يقدم في هذا الكتاب وصفا لنظام المعيشة على جزيرة خيالية تسمى بانخيا Panchaea في المحيط الهندي، أمام ساحل بلاد العرب (اليمن) السعيدة Arabia Felix. كان يعيش على هذه الجزيرة في منشأ الأمر آخرون قبل شعب بانخيا، ولكن طردهم أمون. اما شعب بانخيا فكان ينقسم الى ثلاث طبقات : الكهنة والمزارعين والجنود. ورغم أن في نظمهم ثلاثة حكام، ولكن السلطة المطلقة في جميع الأمور كانت بيد الكهنة. وتمتعت الجزيرة بوفرة العيش، ونعم شعبها بحياة سعيدة رغدة. وكانت الحياة الدينية تتركز في معبد رائع للاله « زيوس/ أمون رب القبائل الثلاث »، حيث توجد لوحة ذهبية كتبت عليها نعم الاله بالهيروغليفية.[٨٣] يتضح من هذه الملامح العامة لكتاب يوهيميروس أننا أمام عمل أدبي يوناني مما يعرف باسم « يوتوبيا »، وأن المؤلف استمد مادته الأساسية من التجربة التاريخية المصرية، وأنه تعمد أن يضفي على الجو العام للقصة شيئا من الجاذبية المصرية.[٨٤]

ويمكننا أخيرا أن نتساءل، ماذا كان رد الفعل اليوناني خارج مصر - ان وجد - على هذا النوع من الكتابات شبه التاريخية والتي كان يروج لها في الاسكندرية ؟ لحسن الحظ لدينا

موقفان متعارضان. الأول هو موقف أنتكليدس Anticleides الكاتب الاثيني العقلاني في النصف الأول من القرن الثالث ق.م.، الذي يبدو من فقرات كتابه الباقية عن الاسكندر أنه ضمنه استطرادا عن تاريخ مصر وحضارتها. وفي هذا الاستطراد يرجع للمصريين السبق في بعض المعارف، مثل الهندسة (مويرس) وفن الكتابة (مينا)، بالاضافة الى اختراعات أخرى.(٨٥)

الموقف الثاني معارض وأكثر طرافة، وهو موقف كاتب يسمى زينون وضع تاريخا محليا لجزيرة رودس.(٨٦) وفي حماسه لوطنه حاول أن يؤكد قدم الجزيرة، بأن وضع تاريخا اسطوريا يكشف عن حدوث رد فعل عنيف في نفسه ضد الاعلان المتكرر بالسبق المصري على لسان الكتاب اليونانيين. أما طريقته للرد على هذا الاتجاه « التمصيري » فلا تخلو من طرافة. فهو يذهب الى أن سكان رودس الأوائل يسمون « ابناء الشمس » (هليا داي Heliadae) كانوا أرقى الشعوب في المعرفة وخاصة علم التنجيم، وأن واحدا منهم رحل الى مصر وأسس المدينة التي يسمونها هليوبولس Heliopolis، وانه هو الذي علّم المصريين « قوانين علم التنجيم ». ثم يورد بعد ذلك نظرية مثيرة، يروي فيها زينون كيف أن الأغريق وغالبية الجنس البشري هلكت في الطوفان، وأن هذا هو السبب في « أن المصريين انتهزوا الفرصة وادعوا لأنفسهم معرفة علم التنجيم، ونظرا لأن الاغريق أنفسهم أصبحوا يجهلون المعرفة بالقراءة، ساد الاعتقاد بأن المصريين هم أول من قاموا باكتشاف الأفلاك ».(٨٧)

كانت هذه الادعاءات من الجانبين في معظمها ضروبا من التفاخر الأجوف، ومع ذلك فهي ذات دلالة في تعريفنا بجانب من الروح التي وجدت في الدوائر الثقافية في القرن الثالث ق.م. ونلحظ فيها اتجاهين في محيط الدراسات الأكاديمية، الأول هو الاهتمام البالغ بتاريخ الاختراعات السابقة وهو ما نسميه الآن تاريخ العلوم، وهو ركيزة اساسية لمسيرة البحث

العلمي والاكتشافات العلمية التي كانت حادثة في الوقت ذاته في الموسيون بالاسكندرية. والاتجاه الثـاني هو التعلق بـالماضي في كتابة التاريخ، وهو ما سيتطور تدريجيا الى دراسة تراث الماضي دراسة نقدية. ومن أجل أن يحقق هذان الاتجاهان غاية كما لهما، كـان لا بد من تـوفر المـادة العلميـة التي زخـرت بها مكتبـة الاسكندرية.

الباب الثاني

التاريخ

الفصل الثالث

الموسيون والمكتبات

اذا كان العرف قد استقر على أن بداية التاريخ مقترنة باكتشاف الكتابة في المجتمعات، فربما جاز لنا أن نقرن تأسيس المكتبات ببلوغ المجتمعات مستوى رفيعا من التحضر. والأمثلة على ذلك كثيرة، ففي مجتمع غلب عليه الطابع الديني مثل المجتمع المصري القديم، نجد أن الرواية التاريخية القديمة تخبرنا أن المعبد كان مركز التعليم. وقد سجل لنا هيكاتايوس الأبديري هذا التقليد القديم فيما رواه من أن الكهنة كانوا يعلمون الأطفال نوعين من الكتابة، أحدهما المسمى الكتابة « المقدسة » (هيروغليفي او هيراطيقي)، والآخر الاكثر شعبية وانتشارا (ديموطيقي) لأغراض التعليم العام، وأن الهندسة والحساب كانا يلقيان عناية خاصة باعتبارهما من المتطلبات الأولية واللازمة في مجال الحياة اليومية والعمل في المستويات الدنيا من الادارة المحلية. أما في مجالات الدراسات الأكثر تخصصا، كالفلك مثلا، فنعرف أن مواقع النجوم ونظامها وحركتها كانت موضع اهتمام خاص من المصريين. ويصف هيكاتايوس نشاطهم في هذا المجال بقوله : « لقد احتفظوا الى يومنا هذا بسجلات خاصة بالنجوم على مدى عدد من السنين يصعب تصديقه... وهم يراقبون بيقظة شديدة حركات الأفلاك ومداراتها ومنازلها، وكذلك تأثير كل واحد منها على كل نوع من مظاهر الحياة، التأثيرات النافعة والضارة... ونتيجة لخبرتهم الطويلة في هذا المجال أصبح لديهم معرفة مسبقة بالزلازل والفيضانات ».[1]

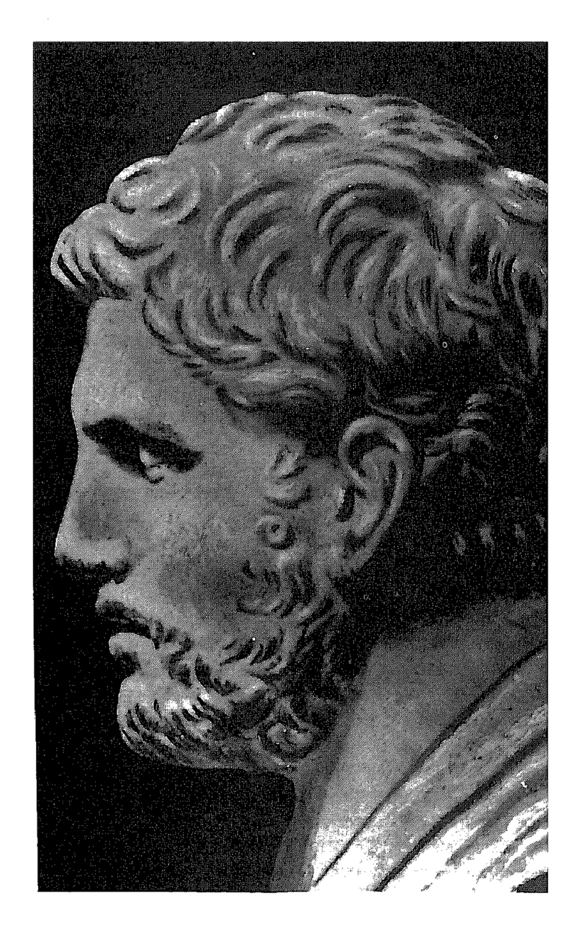
وهناك اعتقاد مصري أن الالهين ايزيس واوزيريس كانا يختصان أصحاب الفنون والاختراعات بمنزلة رفيعة(٢)، وفي الواقع ان الرواية التاريخية القديمة ـ كما وصلتنا ـ تدل على أن العلوم والبحث العلمي كانت وثيقة الصلة بالدين وحياة المعبد. فقد كان المعبد هو مستودع المعلومات، حيث احتفظ الكهنة « بالسجلات المقدسة » (hierai anagraphai) بكل الأحداث الهامة في حياة الامة. ومن التقاليد المألوفة بينهم أن تشتمل مباني كل معبد كبير على مكتبة أيضا. ويذكر هيكاتايوس أن المكتبة كانت جزءا أساسيا من معبد الرمسيوم، وكان مكتوبا على مدخلها « دار شفاء الروح »، واتصلت ببنائها تماثيل لمجموعة الآلهة المصرية.(٣) ومن المصادفات الطريفة والنادرة في تاريخ علم الآثار، أن اكتشف فلندز بيتري عند موقع « المكتبة المقدسة » مجموعة من البرديات الأدبية تمثل أقدم ما نملك من نصوص درامية ترجع الى الأسرة الثانية عشرة. ولعل هذا الكشف يقوم دليلا على صحة الرواية الهللينستية بأن المعابد المصرية احتفظت « بالسجلات المقدسة » بعناية بالغة.(٤)

وقد استقر تقليد إلحاق مكتبة بالمعابد المصرية محافظا عليه في العصر الهللينستي والروماني أيضا. فلم يكن معبد السرابيون بالاسكندرية وحده الذي ألحق به فرع من المكتبة الكبرى، فمن المعروف أنه وجدت مكتبة ملحقة بالمعبد البطلمي في ادفو(٥). وفي العصر الروماني كان لمعبد القيصريون في الاسكندرية مكتبة معروفة أيضا،(٦) وفي نهاية القرن الرابع يشير كاتب مسيحي الى أن معابد الاسكندرية كانت بها خزائن للكتب.(٧)

كذلك كان للقصور الملكية مكتباتها ودور وثائقها، وقد بقي لنا في قصر اخناتون بمدينة تل العمارنة قدر كبير من المراسلات الدبلوماسية الأجنبية مكتوبة على لوحات فخارية. ولم تكن الأوضاع مختلفة عن ذلك في دول الشرق الأدنى القديم، فقد كشفت الحفائر الأثرية بالعراق عن آثار عدة مكتبات ملكية مثل مكتبة قصر أشوربانيبال في نينوى من القرن السابع ق.م.، والتي عثر فيها على نحو عشرين الف لوحة فخارية مكتوبة. كما عثر في

أماكن أخرى على عديد من النصوص الدينية والأدبية أكثر قدما، مثل قصة الخلق وقصة الطوفان، مما يرجع تاريخ المكتبات بالعراق الى الألف الثالث ق.م. وفي سوريا، أمكن الكشف عن مكتبتين ملكيتين كبيرتين، احداهما عند رأس شمرا (أوغاريت) قرب اللاذقية، من القرن الرابع عشر ق.م.، والثانية اكتشفت حديثا عند موقع يقال له « إبلة » جنوب حلب، وترجع الى فترة تاريخية سابقة (٢٤٠٠ ـ ١٨٠٠ ق.م.) وقد أمدنا الموقعان بآلاف اللوحات الكتابية، تعتبر ثروة علمية وتكشف عن مدى غنى مكتبات تلك القصور ودور وثائقها.(٨) ويبدو أن تقليدا مماثلا وجد أيضا بأوروبا في عصر البرونز كما هو ثابت من اللوحات الكتابية التي وصلتنا من موكيني وكريت ببلاد اليونان. ولكن الموقف يتغير تغيرا هائلا مع بزوغ نجم المدينة اليونانية في العصر الكلاسيكي، ونسمع عن أول مكتبة عامة أسسها بيزستراتوس في أثينا في القرن السادس ق.م. ومع نشاط التأليف الأدبي والفكري يدخل تاريخ الكتاب المقروء مرحلة جديدة، وتزداد القيمة العلمية للمكتبات، وفي هذه المرحلة تحتل مكتبات أكاديمية أفلاطون ومدرسة أرسطو (المعروفة باسم اللقيون) مكانة خاصة، باعتبارهما أمثلة مبكرة من مكتبات البحث العلمي المتخصص في القرن الرابع ق.م.(٩)

بعد وفاة الاسكندر وانقسام امبراطوريته بين قادته الى ممالك مستقلة، نشأت بينهم منافسة محمومة، اذ أراد كل واحد منهم أن تكون مملكته هي الأعظم والأقوى وكذلك الأكثر رقيا في العلم والثقافة. ومن أبرز من خاض في هذا المضمار، البطالمة في مصر، والسلوقيون في سوريا وأسرة أتالوس في برغامون. فقد حاولوا تحقيق ذلك السبق في مجال العلم والثقافة عن طريق تأسيس المكتبات ومراكز البحث العلمي في عواصم دولهم، وهي على الترتيب الاسكندرية وأنطاكية وبرغامون. وتدريجيا وجدنا ظاهرة المكتبة العامة معلما أساسيا في معظم المدن الهللينستية، كبيرها وصغيرها. حتى أن مؤرخا مثل بوليبيوس في القرن الثاني ق.م. افترض وجودها أمرا مألوفا، كما يتضح من عبارته



راس ديميتريوس الفاليري (ت. ٢٨٤ ق.م. بقليل) فلورنسا (متحف أوفيزي)

الساخرة « انه من اليسير على أي شخص أن يكتب بالنقل من الكتب اذا ما أقام في مدينة مزودة بوفرة من الوثائق ومكتبة ».(١٠) هذا القول يصدق على الشرق الهللينستي، أما في غرب البحر المتوسط، فقد كان الأمر مختلفا، حيث تأخر تأسيس مكتبة عامة في مدينة روما الى القرن الأول ق.م. على أيام يوليوس قيصر واغسطس. رغم أن المكتبات الخاصة كانت معروفة بروما منذ القرن الثاني ق.م. على الأقل، وأشهر مثال عائلة اسكبيون الأرستقراطية التي كانت من أسبق البيوت الى اقتناء الكتب.(١١)

على أي حال جميع هذه المكتبات القديمة، وكذلك مكتبات العصور الوسطى من بعدها، قد هلكت تماما. وعلى كثرتها وأهمية عدد كبير منها، كانت أشهرها جميعا بلا جدال مكتبة الاسكندرية، ليس لكونها أكبرها واكثرها كتبا طيلة التاريخ القديم فحسب، ولكن لانها كانت مرتبطة أيضا بواحد من أهم مراكز البحث العلمي، وكان يقصدها العلماء من جميع أقطار البحر المتوسط. وحتى بعد اندثارها مع اضمحلال العالم القديم، استمرت ذكراها في كتابات مؤلفي العصور الوسطى، وقد ظل مصيرها واسلوب اندثارها نقطة نزاع بين دارسي التاريخ الى يومنا هذا. ولعل السبب وراء هذا الاهتمام الانساني غير المألوف هو ان المكتبة والموسيون، كانا الممثل الرئيسي لحضارة عصرهما، والأساس الذي قامت عليه ما يمكن أن نسميه جامعة الاسكندرية القديمة التي حملت لواء عالمية البحث العلمي والمعرفة اكثر من سبعة قرون متصلة.

ولعل العقبة الرئيسية التي نواجهها في محاولتنا تتبع تاريخ هذه المؤسسة الفريدة ثم مصيرها بعد ذلك، هو ندرة المصادر المتاحة لنا. فنحن مضطرون للتعامل مع معلومات جزئية منتزعة من اشارات عابرة مبعثرة في كتابات مؤلفين مختلفين لم تكن ضمن اهتماماتهم الرئيسية. أما الكتب التي ألفت عن المكتبة ومحتوياتها مثل الألواح، Pinakes وهي « السجل » الذي كتبه كاليماخوس، أو عن الموسيون الذي كتبه ارستونيكوس، فلم يصلنا شيء منها.(١٢). وفوق ذلك، يبدو أن عظمة المكتبة وشهرتها

جعلت المؤلفين يعزفون عن الكتابة عنها. وهذا هو أثينايوس في القرن الثاني، والذي استقى مادة كتابه من نحو ألف وخمسمائة مؤلف قرأها في مكتبة الاسكندرية، يقول « وفيما يتعلق بأعداد الكتب وتأسيس المكتبات وجماعة الموسيون، ماذا عساي أن أقول، فهي معروفة للناس جميعا ! ».[١٣]

ومع ذلك، فان تجميع هذه الجزئيات من المعرفة في نسق عام ليس أمرا عديم الجدوى، وقد تكررت هذه المحاولة أكثر من مرة بدرجات متفاوتة من النجاح. وكثيرا ما يعين تكرار التجربة بأساليب مختلفة على الوصول الى نتائج أرقى. ولكن نظرا لطبيعة المادة التي نتعامل معها من حيث جزئيتها وغموض مدلولها احيانا، فالمجال متسع للتفسيرات المتعارضة والاختلاف الحاد. وعلى ذلك، فموضوعنا محفوف في بعض جوانبه بدرجة عالية من الاحتمال، ولذلك لزم قدر كبير من الروية لسلوك دروبه.

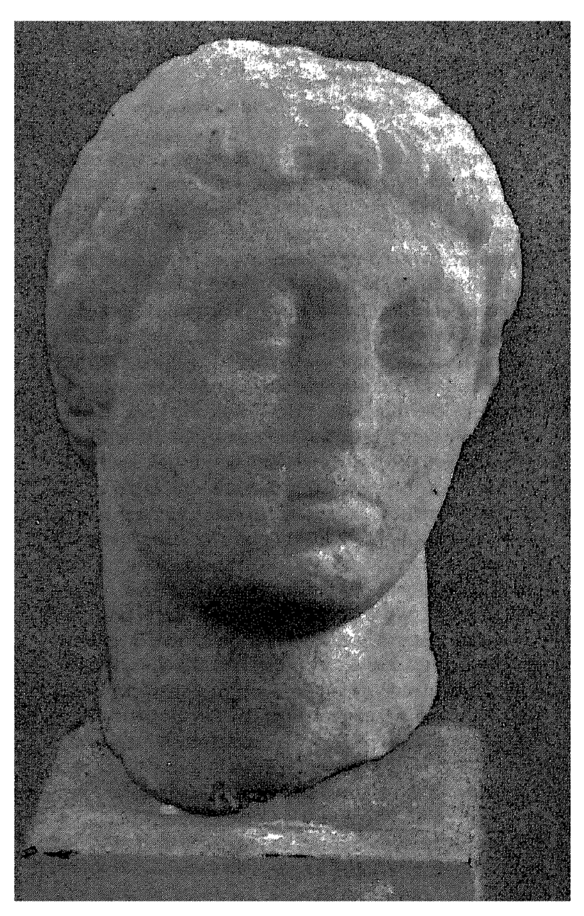
ديميتريوس الفاليري وعلاقته بالملكين الأولين

تورد مصادرنا روايتين مختلفتين بشأن تأسيس الموسيون والمكتبة، احداهما تنسب تأسيسهما لبطليموس الأول سوتير، والثانية لبطليموس الثاني فيلادلفوس، وأقدم مصدر نمتلكه يرجع الى القرن الثاني ق.م. وهو العمل المعروف باسم « رسالة ارستياس »، وهي لكاتب غير مؤكد الهوية، أثبت في هذه الرسالة قصة اختلطت بالخيال حول ترجمة التوراة الى اليونانية، وهي المشهورة باسم الترجمة السبعينية Septuagint وفيها يفترض المؤلف أن قصة الترجمة حدثت في عصر فيلادلفوس بناء على اقتراح من ديميتريوس الفاليري الذي كان « مسؤولا عن مكتبة الملك ».[١٤] وقد كان لهذه العبارة تأثير كبير على معظم الكتاب اللاحقين عندما تعرضوا لذكر ترجمة التوراة. ويكفي أن نذكر أن من بين من رددوا هذه الرواية فيما بين القرن الأول والقرن الثاني عشر فيلون اليهودي الاسكندري (ق. أول)، يوسيفوس اليهودي (ق. اول)، اثينايوس من نقراطس (ق. ثاني)، أبيفانيوس رئيس

المدرسة المسيحية بالقدس ثم اسقف كنيسة في قبرص (ق. رابع)، وتزتزيس الكاتب البيزنطي (ق. ثاني عشر)، وكذلك عند ابن القفطي من الكتاب العرب في القرن الثالث عشر.

أما الرواية الأخرى فقد وردت في مصدر واحد فقط ذكر صراحة أن سوتير هو مؤسس المكتبة، ونقصد به إرانيوس Iranaeus، من القرن الثاني الميلادي، وقال « ان بطليموس بن لاجوس كان يهدف الى أن يزود المكتبة التي أسسها في الاسكندرية بكتابات جميع الشعوب التي هي جديرة بالدراسة الجادة ».(١٥) وواضح أن هذه العبارة في صياغتها التأكيدية تحمل معنى الرفض للرواية الأولى التي تنسب المكتبة لفيلادلفوس، ومع ذلك فلم يكن لها تأثير كبير. وبعده مباشرة، كليمنس الاسكندري، في مطلع القرن الثالث، يتردد بين الروايتين فيوردهما في عبارة يشوبها شيء من الاضطراب، دون ترجيح أي منهما، وهي قوله في معرض ذكر قصة الترجمة السبعينية ان المكتبة تأسست « في عصر الملك بطليموس بن لاجوس أو كما يقول بعض الكتاب في عصر الملقب فيلادلفوس »، ولكنه لم يهمل ذكر اسم ديميتريوس الفاليري باعتباره المسؤول عن المكتبة.(١٦) وفي الواقع ان شهرة فيلادلفوس طغت على شهرة والده؛(١٧) وفي العصور الوسطى كان تأسيس المكتبة ينسب اليه بالتعاون مع ديميتريوس.(١٨)

ورغم أن الرواية التي تنسب التأسيس لفيلادلفوس تتمتع باتصال تاريخي مثير، الا أن أكثر الدارسين الحديثين أصبحوا الآن أكثر ميلا لأن يرجعوا الفضل في تأسيس الموسيون والمكتبة الملكية الى بطلميوس الأول سوتير.(١٩) والسبب في هذا الموقف هو التناقض الناتج عن الربط بين شخصيتي ديميتريوس وفيلادلفوس فيما يتعلق بترجمة التوارة، كما جاء في قصة ارستياس ورددها من بعده الآخرون. فنحن نعرف من سيرة ديميتريوس ما يجعلنا نرفض احتمال ارتباطهما أو قيام تعاون بينهما ويمكن أن نوجز سيرته في أنه كان تلميذا وفيا لمدرسة أرسطو (المشائية كما هو معروف)، ثم انه استطاع أن يقيم نفسه



راس بطليموس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ – ٢٤٦ق.م.) رخام

حاكما طاغية في أثينا مدة عشر سنوات، الى أن طرد عام ٣٠٧ ق.م. ويبدو أنه بعد ذلك ذهب مؤقتا الى مدينة طيبة بوسط اليونان، ومنها فر لاجئا الى سوتير في مصر، حوالي عام ٢٩٧ ق.م. على أكثر الاحتمالات. الى جانب كونه سياسيا متميزا، فقد كان كاتبا غزير الانتاج، وقد أبدى ديوجينيس لايبرتيوس ـ مؤرخ فلاسفة اليونان ـ اعجابا كبيرا بسعة ثقافته وتنوعها، واثبت قائمة بأعماله في مجالات متعددة متباينة : الحب والزواج، السياسة والنظم والحرب والسلام، وفي النقد والشعر والتاريخ[٢]... وفي الاسكندرية لم يركن لحياة النفي والسكينة، ولكن الملك بطليموس الأول استعان بخبراته المتنوعة واتخذه مستشاره. وقد وصلتنا أطراف من نشاطه في هذا المجال، اذ أشار على الملك « بكتب في النظام الملكي »،[٢١] كما استشاره الملك في شؤون التشريع والقانون.[٢٢] ولكن ما من شك أن دوره الأكبر كان في مجال العمل الثقافي وفيه تجلت ميوله الفكرية المشائية، فهناك اجماع بين جميع الكتّاب على أن ديميتريوس هو الذي اقترح على الملك فكرة انشاء مجمع علمي عظيم يطلق عليه اسم « موسيون » مع مكتبة عالمية تلحق به في الاسكندرية. مثل هذا الاقتراح كان مناسبا من جميع الوجوه، فهو يتفق كل الاتفاق مع رغبة سوتير في أن يجعل الاسكندرية مركزا للثقافة والحضارة فوق كونها عاصمة لدولة قوية. كما أن اعجاب سوتير بالمدرسة المشائية قد يرجع الى سني تعليمه المبكر مع الاسكندر على يد أرسطو في مدينة بيلا. أما استمرار تعلقه بهذه المدرسة فواضح من محاولته استقدام رئيسها بعد ارسطو وهو ثيوفراسطوس، ليشرف على تعليم ابنه، الذي سيصبح فيلادلفوس، وحين فشلت المحاولة، قبل سوتير الاستعانة بواحد من ألمع علماء الطبيعة بالمدرسة، وهو استراتون، تلميذ ثيوفراسطوس وخليفته.[٢٣] وظل ديميتريوس متمتعا بمكانة رفيعة في القصر طالما كان سوتير ملكا، ولكن الموقف تبدل بعد موته في ٢٨٣ ق.م. وخلفه ابنه، ذلك أن سوتير كان قد طلب في ٢٨٥ ق.م. رأي ديميتريوس بشأن اختيار شريكه في العرش من بين أبنائه من زوجتيه. وكان رأي



واحدة من خمس قاعات للمحاضرات، موقع كوم الدكة، اسكندرية (عصر روماني)

ديميتريوس أن يختار من أبناء يوريديقة، ولكن سوتير منح وراثة العرش لابنه من برينيقة. هذا الابن، الذي أصبح فيلادلفوس، لم ينس لديميتريوس هذا الموقف، فأمر بالقبض عليه وأبعده الى الدلتا حيث توفي ودفن في مقاطعة بوصير غير بعيد من ديوسبولس.[٢٤]

هذه المعلومات من سيرة ديميتريوس أقنعت العلماء الحديثين بأن التعاون بينه وبين فيلادلفوس يكاد يكون مستحيلا، في حين أن العلاقة الوثيقة بينه وبين سوتير، وخاصة خلال الأعوام العشرة الأخيرة من حياة الملك، التي حظي فيها ديميتريوس بمكانة رفيعة وثقة كبيرة هي التي مكنته من تنفيذ مشروعه الطموح بتأسيس مركز للبحث العلمي بالاسكندرية يفوق مدرسة ارسطو ذاتها في أثينا.

الموسيون :

يتفق تخطيط الموسيون مع ما هو معروف عن التخطيط الأساسي للمدرستين الفلسفيتين الشهيرتين في أثينا، اكاديمية أفلاطون ولقيون أرسطو، ويمكننا التعرف على الملامح الرئيسية المشتركة بين المنشآت الثلاث، من الأوصاف الثلاثة الآتية :

يذكر ديوجينيس لايرتيوس أن بوليمون رئيس الأكاديمية في الفترة ٣١٤ – ٢٧٦ ق.م. كان يعتزل الناس ويحبس نفسه في حديقة الأكاديمية، بينما يلزم تلاميذه صوامعهم الصغيرة غير بعيدين من معبد ربات الفنون (Mouseion) والرواق (ممر معقود) (exedera).[٢٥]

وكذلك الأمر بالنسبة للقيون، فقد وردت في وصية ثيوفراسطوس رئيسها في الفترة ٣٢٢ – ٢٨٦ ق.م. معلومات تفصيلية بعض الشيء. فمن نص الوصية نستنتج أن المدرسة ـ من وجهة النظر القانونية ـ كانت مؤسسة دينية، اشتملت على معبد للربات (Mouseion) به تماثيل للربات وتمثال نصفي لارسطو، وهناك رواق صغير (Stoidion) ورواق (Stoa) حيث وجدت لوحات مصور عليها خرائط بالأقاليم المكتشفة آنئذ، ثم

مذبح وحديقة وممشى (Perjpatos) ومساكن، وتنص الوصية على أن خلفاء ثيوفراسطوس وورثته يجب أن يعيشوا على هيئة جماعة تقوم على الألفة والصداقة، و « بشرط ألا يتصرف أحدهم في هذا الارث أو يحوله للاستخدام الشخصي، ولكن عليهم أن يحتفظوا به ملكية مشتركة بينهم كأنه معبد ».[٢٦]

أخيرا يورد لنا استرابون هذا الوصف للموسيون كما شاهده في الاسكندرية، « يقع الموسيون في منطقة القصور الملكية، وله ممشى (peripatos) ورواق (ممر معقود) (exedera)،[٢٧] وبيت كبير به قاعة للطعام لأعضاء الموسيون. وهم يشكلون جماعة واحدة لهم ملكية مشتركة، ومعهم كاهن يعينه الملك (أو الامبراطور في العصر الروماني)، وهو رئيس الموسيون ».[٢٨] هذا الرئيس الديني يؤكد الشخصية الدينية للمؤسسة.

ولا شك أن التشابه الواضح كان محاولة متعمدة من ديميتريوس لمحاكاة المدارس الفلسفية في أثينا، وخاصة اللقيون التي كان هو أحد تلاميذها الأوفياء وليس لدينا تفصيلات أخرى عن الأسلوب المعماري للبناء، فوق ما ذكر استرابون، ولسوء الحظ لم يصلنا كتاب أرستونيكوس عن الموسيون، والذي ربما تضمن معلومات ذات قيمة.[٢٩] كما أن اطلاق اسم « موسيون » Mouseion على مجمع الاسكندرية العلمي، لا يخلو من دلالة، فقد لاحظنا أن وجود معبد ربات الفنون والمعارف (موساي Mousai) كان ظاهرة مألوفة في المدارس الفلسفية الأثينية. فقد كان الاعتقاد الشائع أن هذه الربات هن مصدر الوحي في الفلسفة والفنون، ثم أضاف اليها فيتروفيوس العلم، مستشهدا بقصة فيثاغورس الذي اعتقد بأنه ما كان يتوصل الى اكتشاف في الرياضة، لولا وحي جاءه من الربات، وأنه تقدم لهن بالتضحية والحمد.[٣٠] وفي الواقع ان الجمع بين دراسة العلم والأدب تمثلت في اللقيون، وسوف نراها تتمثل بصورة اكثر تطورا في موسيون الاسكندرية.

وفي ظل الرعاية البطلمية، مع ما اشتهروا به من سخاء في الانفاق، نما الموسيون نموا سريعا وحاز شهرة عالمية خلال

سنوات قليلة من تأسيسه، ويرجع ذلك الى حرص البطالمة على استقدام أرقى العقول في ذلك الوقت. وقد سبق أن ذكرنا، كيف أن سوتير حين فشل في اقناع ثيوفراسطوس بالحضور الى الاسكندرية استقدم العالم الفيزيائي استراتون لتعليم ابنه. كذلك استجاب لدعوة سوتير اثنان من رجال الأدب والنقد ـ هما فيليتاس من قوص (Philitas of Cos) وزينودوتوس من افيسوس (Zenodotus of Ephesus) لمهمة الاشراف على الجوانب الأدبية في تعليم ابنه فيلادلفوس.[٢١] ولكن اهم من هؤلاء جميعا في ذلك العصر هو اسم اقليدس أبي الرياضيات، والذي يعتقد أنه ولد بالاسكندرية، وقد أهدى الى سوتير كتابه الخالد « أوليات الرياضة ».[٢٢] وقد واصل هذا التقليد باجتذاب ألمع العلماء في التخصصات المختلفة، خلفاء سوتير من الملوك البطالمة، الذين كانوا جميعا على مستوى رفيع من التعليم، وبعضهم عرف باهتماماته الثقافية أيضا.

فيما يتعلق بنظام العمل وادارة الموسيون، يتبين مما يذكره استرابون أن أعضاءه كانوا يكونون هيئة مستقلة تتمتع بملكية عامة مشتركة، ومنها يحصلون على نفقاتهم الضرورية. والى جانب الكاهن، يذكر استرابون منصبا اداريا هاما، وهو الابيستاتيس أي مدير الموسيون.[٢٣] وقياسا على الوضع في المعابد المصرية، كان الابيستاتيس هو الموظف المسؤول عن المالية والشؤون الادارية، بينما كان الكاهن باعتباره رئيسا عاما، هو الذي يمثل الموسيون وأعضاءه في القيام بالوجبات الروحية لعبادة الربات. وفي العصر الروماني، اطلق على أعضاء الموسيون عبارة : « (أعضاء) الموسيون الذين يتمتعون بالطعام (المجاني) والاعفاء من الضرائب ».[٢٤] ومن المعتقد أن هذه الامتيازات كانت استمرارا من العصر البطلمي، كما حدث بالنسبة لكثير من النظم في مصر الرومانية. ومما يشير الى أن الطعام كان يقدم للاعضاء، هو وجود قاعة الطعام في بيت الاقامة، أحد مباني الموسيون كما ورد في وصف استرابون، أما بالنسبة للاعفاء من الضرائب، فنحن نعرف أن بطليموس الثاني أصدر اعفاء من ضريبة الملح

لبعض الفئات، كان من بينها المدرسون،[٣٥] واذا كان المدرسون قد فازوا من الملك بهذا الامتياز، فلا نستبعد أن علماء الموسيون، وهم موضع الحظوة والرعاية الملكية، قد تمتعوا باعفاء أشمل.

لم تكن الاقامة والطعام المجاني والاعفاء الضريبي هو كل ما تميزت به عضوية الموسيون، ويمكننا أن نضيف اليها رواتب عالية أيضا ويعيننا في استنتاج ذلك اشارات عامة عابرة، فقد ورد أن سوتير دفع للعالم استراتون ثمانين تالنتا من الفضة ـ وهو مبلغ ضخم ـ مكافأة شاملة له على تعليم ابنه.[٣٦] ولكن هناك اشارة أكثر تحديدا عن راتب منتظم، وهو أن عالما مغمورا يسمى باناريتوس Panaretos تقاضى اثني عشرة تالنتا سنويا من بطليموس الثالث،[٣٧] أي بمعدل تالنتون واحد شهريا، ولعل هذا يمثل متوسط الرواتب للأعضاء. ونعلم من نادرة معروفة بوجود سجل رسمي برواتب الأعضاء، وذلك بمناسبة شكوى تقدم بها الناقد الهومري سوسيبيوس لفيلادلفوس بعدم تسلمه « راتبه الملكي ».[٣٨]

رغم أن استرابون وصف الموسيون بأنه هيئة أو جماعة Synodos في حيازتها ملكية مشتركة، مما قد يكفل لها شيئا من الاستقرار والاستقلال في ادارة شؤونها الخاصة، ولكنه في حقيقة الأمر لم يكن جمعية مستقلة من العلماء بمعنى الكلمة. والانطباع الذي نخرج به من قراءة المصادر انه كان « جمعية ملكية » بالمعنى الدقيق لكلمة ملكية. فالعضوية في الموسيون كانت متوقفة على موافقة الملك. حقيقة تمتع العلماء بقدر كبير من الحرية وتيسير فرصة البحث لمتابعة اهتماماتهم العلمية، ولكن كانوا جميعا مدركين أنهم يعملون في خدمة الملك. فاستمرار أعمالهم ورواتبهم « الملكية » اعتمد تماما على رغبة الملك. ولم يكن من قبيل الصدفة مثلا أن أهملت الفلسفة، بينما ازدهر العلم والأدب تحت حكم البطالمة. وتورد مصادرنا عدة مناسبات أو نوادر تكشف عن السلطة التي مارسها الملك على حياة وأعمال بعض العلماء. فنسمع أن سوتاديس من مارونيا سجن وأعدم لأنه سخر من زواج فيلادلفوس من شقيقته أرسنوى.[٣٩] وقد نسلم بأن هذه

جريمة كبرى، ولكنا نسمــع في مناسبــة أخرى أن زويلوس من أمفيبولس، تعرض لدرجة قاسية من الاضطهاد، حتى أنه لم يجد قوت يومه بالاسكندرية، الى أن مات، لا لسبب الا لأنه شن على هوميروس هجوما عنيفا متصلا، حتى لقب « سوط هوميروس » (Homeromastix).[٤٠] وفي فترة الحرب الأهلية بين بـطليموس السادس وأخيه الأصغر يوارجتيس الثاني في القرن الثاني ق.م.، قـام الأخير بـاضطهـاد خصومـه السياسيـين شمـل أعضـاء الموسيون، مما اضطر كثيرين منهم الى الفرار خارج البلاد. ويبدو أن أعدادهم كانت من الكثرة بحيث وصفهم مينيكليس من برقة (Menecles) بعبارته « ان علماء الاسكندرية، في شتاتهم قاموا بتعليم الهللينيـين وغير الهللينيـين على الســواء في كـل فـروع المعرفة ».[٤١]

كان الموسيون مركزا للبحث العلمي بصفة أساسية، ولم يرد ما يفيد أن تعليما منتظما كان يمارس داخل هذه المؤسســة في العصر البطلمي. ومع ذلك فنحن نقرأ كثيرا في سير العلماء أنهم كانوا أساتذة أو تلاميذ لبعض علماء الموسيون البارزين. ويمكن تفسير هذه الظاهرة بالتقليد الذي كان متبعا وهو تسجيل شباب المتعلمين النابهين مساعدين لكبار العلماء. كما هو الحال بالنسبة لواحد مثل أبوللونيوس من بـرجى Apollonius of Perge الذي وصف بأنه « كان تلميذا في الاسكندرية لتلاميذ اقليدس ».[٤٢] ونعرف مثالا آخر، وهو أن إستروس « الكاليمـاخي » (Istrus) وفيلوستيفـانوس ـ وهمـا من قورينـة ـ ساعـدا كاليمـاخـوس القـوريني في عمله الضخم في المكتبـة، ووصفـا أنهمـا مـن تلاميذه.[٤٣] وفي الطب، على أي حال، يبدو أن نوعا من اسلوب تعلم الحرفة تـطور عن طريق التحاق التـلاميذ بعيـادات كبار الأطبـاء، كمـا هـو معـروف عن الطبيب العـظيم هيـروفيلوس وتلاميذه.[٤٤] ومع ذلك فيبدو أن نوعا من المحاضرات والندوات العـامة كـان شـائعـا، وأحيـانـا شهـد الملك بعضـا من هــذه المناسبات.[٤٥] وهناك اعتقاد سائد أن قدرا اكثر من التعليم زاد باطراد بمرور الوقت. ورغم ما لوحظ من تأخر مستوى البحث

العلمي مع نهاية العصر البطلمي وبداية الحكم الروماني، الا أن الاسكندرية ظلت قادرة على أن تقدم أفضل تعليم أكاديمي بالمقارنة بغيرها من مراكز التعليم في البحر المتوسط.(٤٦)

وكانت هناك مناسبة عامة أخرى ربطت بين الموسيون والجمهور الخارجي، وهو المهرجان الذي يعتقد أن بطليموس الرابع ابتدأه اجلالا وتمجيدا للاله أبوللو وربات الفنون التسع. واشتمل برنامج هذا المهرجان على مباريات رياضية ومسابقات ادبية، وكان الفائزون ينالون جوائز متعددة مع شمولهم بمظاهر التكريم والتشريف. وفي هذه المناسبات كان يسمح بالاشتراك للمنافسين من خارج البلاد، وكانت تعتبر فرصة أمام الموهوبين من الشباب لعرض أعمالهم الأدبية.(٤٧)

وفي العصر الروماني استمر الموسيون يعمل، ولكن بدرجة متزايدة كمؤسسة تعليمية. ويتحدث عنه استرابون في بداية حكم أغسطس باعجاب واضح ويفضله عن المدارس الأخرى عبر البحر المتوسط.(٤٨) وقد وجدنا الأباطرة يكفلون له كافة الامتيازات والحقوق التي كانت له زمن البطالمة، وقد سبقت الاشارة الى استمرار نظام الطعام المجاني والاعفاء الضريبي لأعضائه، ونسمع أيضا أن الامبراطور كلوديوس أحدث اضافة جديدة للموسيون القديم، بقصد قراءة كتابيه عن تاريخ اتروريا وتاريخ قرطاجة قراءة علنية، فيما يقال. وكذلك حرص الامبراطور هادريان على زيارة الموسيون وابداء عطفه ورعايته لأعضائه.(٤٩)

ونسمع أيضا في زمن الرومان أن بعض أعضاء الموسيون المرموقين لعبوا دورا في الحياة السياسية لمدينتهم، مثل الفيلسوف الرواقي أريوس Areius الذي كان مقربا من الامبراطور أغسطس. ومن المرجح أنه شفع لمدينته لدى الامبراطور، الذي انتظر الجميع أن ينكل بالاسكندرية وأهلها أسوأ تنكيل عندما دخلها بعد انتصاره على كليوباترا وأنطونيوس في ٣٠ ق.م. واذا بأغسطس يعلن للمواطنين ـ وهم في شدة الخوف ـ انه قد صفح عنهم لأسباب ثلاثة : « أولا من أجل مؤسس المدينة الاسكندر، وثانيا بسبب شدة جمال المدينة

وعظمتها، وثالثا من أجل صديقه أريوس ».[٥٠] وبعد ذلك بقليل في عام ٣٨ م. نجد عالما اسكندريا آخر، أبيون، من أصل مصري فيما يبدو، يتزعم وفد الاسكندريين إلى الامبراطور جايوس في روما، وذلك في الوقت الذي تزعم فيه الفيلسوف فيلون وفد اليهود.[٥١]

ومهما يكن من أمر، شهدت الاسكندرية الرومانية تغيرا في شخصية الموسيون. فرغم استمرار حماية الأباطرة له في القرنين الأولين، فان الأمر اختلف كثيرا عن الرعاية والاهتمام الشخصي زمن البطالمة ونلحظ أن بعض محاولات البحث العلمي استمرت مزدهرة على أيدي علماء من أمثال هيرون مكتشف عدد من الآلات الميكانيكية، وكلوديوس بطليموس عالم الفلك والجغرافيا، وجالينوس الطبيب، جميعهم واصلوا العمل في علوم سبق أن اشتهرت بها مدرسة الاسكندرية البطلمية. ولكن في مجال الأدب والنقد معا نجد اضمحلالا واضحا، وعلى العكس من ذلك تزدهر فجأة الفلسفة، واذا بالاسكندرية تلعب دورا قياديا على أيدي فيلون وأفلوطين. ولعل السبب في هذا التطور الأخير يرجع الى ما كان حادثا من تغير جذري في التفكير الديني بصفة عامة، ومن اقبال الطبقة المثقفة في روما على التعلق بالمذاهب الفلسفية الشائعة في ذلك العصر، وخاصة الرواقية والأبيقورية والأفلاطونية الحديثة، ووجدنا الفلسفة تزداد اقترابا من الدين والقضايا الدينية، كما سنبين فيما بعد. وفي الواقع ان هذا التطور المزدوج في الفلسفة والدين هو الذي سيحدد مصير كل من الموسيون والمكتبة.

المكتبة :

لعل من غريب الصدف أن المصادر البطلمية بين أيدينا لا تجمع بين ذكر الموسيون والمكتبة في وقت واحد. ولقد سبق أن رأينا كيف أن تيمون وهيروداس في القرن الثالث ق.م. يشيران في اشعارهما الى الموسيون فقط. وفي القرن الثاني ق.م. نجد « رسالة أرستياس » ـ وهي عمل يشك في قيمته التاريخية ـ تتحدث عن

المكتبة وحدها. وكذلك استرابون، في وصفه للاسكندرية عقب سقوط الدولة البطلمية مباشرة، يتناول الموسيون فقط (وسوف نعود لهذه النقطة بتفصيل أكثر فيما بعد). على حين نقابل في العصر الروماني تقليدا مختلفا يجمع بين ذكر المؤسستين معا، كما هو واضح في كتابات أثينايوس وايرينيوس في القرن الثاني. هذه الملاحظة على أي حال، لا يجب أن تشغلنا كثيرا، فهي ليست خطيرة، لأن هناك اتفاقا عاما على أن المؤسستين وجدتا معا، وأن الواحدة كانت متممة للأخرى. كما أن اقتران تأسيس كل من المكتبة والموسيون باسم ديميتريوس يفترض تاريخا واحدا للتأسيس في عصر سوتير، في عام ٢٩٥ ق.م. على الأرجح.

وفي البداية وجدت المكتبة الملكية المرتبطة بالموسيون والمتاخمة له في حي القصور الملكية، مشرفة على الميناء. ولكن بعد مرور نحو نصف قرن تقريبا، حين تكاثرت الكتب على تلك المكتبة الأولى، تقرر انشاء فرع لها لاحتواء الكتب الفائضة عن سعتها. وقد تقرر أن يلحق هذا الفرع بالبناء الجديد لمعبد السرابيون، الذي كان قد أعاد بناءه في ذلك الوقت الملك بطليموس الثالث يوارجتيس (٢٤٦ - ٢٢١ ق.م.)، وهو على مسافة من الحي الملكي، ويقع في الحي المصري جنوبي المدينة حيث يقوم عمود السواري الى الآن. ومن الطريف أن نلاحظ أن كتّاب العصور الوسطى نسبوا انشاء فرع المكتبة أيضا لفيلادلفوس وليس لابنه يوارجتيس.[٥٢] ولكن لحسن الحظ في هذه الحالة لدينا دليل أكيد وهو العثور على لوحات التأسيس الأصلية في الحفريات التي أجريت في الموقع ١٩٤٣ - ١٩٤٤، وسجل عليها بوضوح اسم بطليموس الثالث.[٥٣] وسرعان ما نما فرع السرابيون الى مكتبة متكاملة، وفي العصر الروماني أصبحت مركزا لحركة علمية نشطة.[٥٤]

ومن الجدير بالملاحظة مرة ثانية، أن ما بأيدينا من مصادر قليلة لا تشير، حتى القرن الثالث الميلادي - الى وجود مكتبتين منفصلتين في الاسكندرية، وانما يقال عادة « المكتبة الملكية »[٥٥] أو « المكتبة الكبرى » وأحيانا « المكتبات » بالجمع.[٥٦] ولعل السبب في ذلك راجع الى وجود ادارة عليا واحدة، ومسؤول عنها « رئيس

مكتبة » يعينه الملك. في حين يظهر فجأة ذكر مكتبتين متميزتين، في وقت لاحق، منذ نهاية القرن الرابع وما يليه، حين نجد ابيفانيوس يتحدث مفضلا القول بأنه كان هناك « المكتبة الأولى، والثانية بنيت في السرابيون، أصغر من الأولى وأطلق عليها « ابنة الأولى ».[٥٧] وفي القرن الثاني عشر نجد تزتزيس يتحدث عن مكتبتين « واحدة خارج (القصر) والأخرى داخله ».[٥٨] وربما كان هذا التمييز راجعا الى مصير المكتبتين كما سنبين فيما بعد.

وننتقل الآن لنتناول سؤالا هاما وهو ادارة المكتبة. في أقدم اشارة لدينا تذكر رسالة أرستياس أن ديمتيريوس الفاليري « كان مسؤولا عن المكتبة الملكية ».[٥٩] ونجد تعبيرا مشابها له في النقش الذي كتب في تكريم أوناسندر من بافوس (حوالي ٨٨ ق.م.) بأنه « عين مسؤولا عن المكتبة الكبرى في الاسكندرية ».[٦٠] وفي القاموس سويداس، نلاحظ أن منصب أمين المكتبة في سير العلماء الذين شغلوه يوصف بصيغة « رئيس المكتبة ».[٦١] وفي العصور الوسطى نجد تزتزيس يصف اراتوستنيس بأنه « حارس الكتب bibliophylax »[٦٢] وهو اصطلاح اطلق في الوثائق البردية على « أمين المحفوظات » في الادارة الحكومية. ويتضح من ذلك أن اصطلاح « أمين مكتبة » أو « الكتبي » أو « الوراق » لم يكن مستخدما، ولكن وجد منصب « رئيس المكتبة ».[٦٣]

وقد نستنتج من تعيين شخص مسؤول عن ادارة المكتبة، بجانب تعيين مسؤول آخر عن ادارة الموسيون، أن المؤسستين كانتا منفصلتين اداريا. كما يظهر أيضا أن منصب رئيس المكتبة كان منصبا رفيعا مرموقا للغاية، لأنه عادة ما اقترن بمنصب المعلم الملكي. ونرى هذه الظاهرة متكررة في عدد من كبار العلماء مثل زينودوتوس وأبوللونيوس وأريستارخس.[٦٤] فلا جدال اذن أن منصب رئيس المكتبة كان من المناصب العليا التي يتم التعيين لها بقرار خاص من الملك. ولسوء الحظ ليس هناك اتفاق بين مصادرنا على تعاقب من شغلوا هذا المنصب الجليل. ونحن نعتمد في ذلك على قائمتين بالأسماء غير كاملتين، احداهما وردت في نص

تزتزيس، والثانية في بردية من أوكسيرنخوس (البهنسا بصعيد مصر).[٦٥] وبدراسة القائمتين معا أمكن الوصول الى القائمة التالية :[٦٦]

١ ـ زينودوتوس	٢٨٥ – ٢٧٠ ق.م.
٢ ـ ابوللونيوس الرودسي	٢٧٠ – ٢٤٥ ق.م.
٣ ـ اراتوستنيس	٢٤٥ – ٢٠٤ أو ٢٠١ ق.م.
٤ ـ ارستوفانيس	١/٢٠٤ – ١٨٩ أو ١٨٦ ق.م.
٥ ـ أبوللونيوس « المصنف » (eidographos)	٦/١٨٩ – ١٧٥ ق.م.
٦ ـ أريستارخس	١٧٥ – ١٤٥ ق.م.
٧ ـ كوداس (الرماح)	١٤٥ – ١١٦ ق.م.

بالنظر الى هذه القائمة نلحظ غياب اسمين لامعين هما ديميتريوس وكاليماخوس، الأول وصف في رسالة أرستياس بأنه « مسؤول المكتبة الملكية »، والثاني وصفه تزتزيس في عبارة أقل تحديدا، بأنه « شاب في القصر » دون أن يفسر ماذا يقصد. الموقف بالنسبة لديميتريوس ليس من الصعب تفسيره. فمن الملاحظ أن القائمتين اللتين اشرنا اليهما تبدأ كل منهما بفترة حكم فيلادلفوس، الذي يحتمل أنه هو الذي شرع المنصب، ضمن تنظيماته للادارة المصرية عامة. وقبل ذلك كانت مهمة الاشراف على سير العمل في المكتبة، ربما كانت تكليفا ملكيا خاصا عهد به سوتير الى ديمتريوس. ومع ولاية فيلادلفوس للعرش وما أعقبه من طرد ديميتريوس، صدر قرار بتعيين زينودوتوس لمنصب رئيس المكتبة، بعد انشائه رسميا ؛ أما بالنسبة لكاليماخس، فعندما ولي فيلادلفوس العرش، كان لا يزال شابا، ولكنه تميز بمواهب فريدة، فكلف بمهمة خاصة في المكتبة، وهي التي تبلورت آخر الأمر في عمله « السجل » (Pinakes).[٦٧]

كذلك الصفة التي تلحق الاسم الأخير بالقائمة لا تخلو من غرابة، « كوداس الرماح »، ما عمل رجل يحمل الرمح بين

العلمـاء ؟ ولعل التفسـير الوحيد المعقـول لتعيـين كـوداس في عام ١٤٥ ق.م. بأنه تعيين استثنائي لظروف استثنائيـة، وهي ظروف استئثار بطليمـوس الثامن بـالسلطة في أعقاب الحـرب الأهلية مع أخيه الأكبر، وأن كوداس عين لينفذ سياسة بطليموس الثامن والقضاء على خصومه داخل جمـاعة المـوسيون. فنحن نعرف أن أريستارخس، رئيس المكتبة السابق، اعتزل المنصب في ١٤٥ ق.م. وفر خارج البلاد مع علماء آخرين.

تضيف البردية بعد كوداس الرماح، في شيء من الغموض، في عهد بطليموس التاسع نشط « أمونيوس وزينو... (؟) وديوكلوس وأبـوللونيـوس من الكتـاب (grammatikoi) »،(٦٨) وجميعـهم مغمورون بقدر ما نعرف، وليس هناك ذكر لتوليهم رئاسة المكتبة، ولذلك لن نشغل بهم اكثر من ذلك. أمـا آخر من ورد أنـه تولى المنصب فهو قبرصي من بافوس يسمى أونـاسندر Onasander ففي نقش من عهـد بطليمـوس التاسـع سوتـير الثاني، نجـد أونـاسانـدر يحمـل لقب « المشـرف عـلى المكتبـة الكبـرى في الاسكندرية »، ومن المحتمل أن أوناساندر هذا كان من أعوان سوتير الثاني في فترة نفيه في قبرص ثم كوفئ بتعيينه في منصب المسـؤول عن المكتبـة بعـد عـودة الملك الى الاسكـنـدريـة في ٨٨ ق.م.(٦٩)

تجميع الكتب :

اشتهـر البطالمـة برغبـة ملحة وسعي دائم وراء اقتنـاء الكتب لمكتباتهم، وأقدم شاهد على حماسهم في هذا المضمار نجـده في رسالة أرستياس من القرن الثاني ق.م. حيث ورد « أن كان تحت تصرف ديميتريوس الفاليري ميزانية ضخمة، من أجل جمع كل ما يمكن من جميع كتب العالم، سواء بالشراء أو النسخ، وقام قـدر استطاعتـه بوضـع رغبة الملك مـوضع التنفيـذ... وحين سُئل ذات يوم كم من الآلاف من الكتب تم تجميعها ؟ أجاب : أكثـر من مـائتي ألف، يـا صـاحب الجـلالة، وسـوف أبـذل

قصـارى جهدي للحصـول على مـا بقي، حتى يبلغ المجمـوع خمسمائة ألف.[٧٠]

في نص تزيتزيس من العصـور الوسطى، الذي يـأخذ عن مصدر قديم، ويكاد يكرر ما ورد في رسالة أرستياس حرفيا، مع اضافة تفصيلات حول تقسيم الكتب بين المكتبتين، « فيبلغ عدد الكتب في المكتبـة الخارجيـة ٤٢٨٠٠، وفي المكتبة الداخليـة ٤٠٠٠٠٠ من الكتـب المخـتلطة و٩٠٠٠٠ مـن الكتـب غـير المختلطة ». وقد يشير تقسيم الكتب أو لفائف البردى الى مختلط وغير مختلط الى نظام في الفهرسة، ومن المحتمل أن الكتاب المختلط هو الذي يشتمل على أكثر من عمل واحد، على عادة القدماء، وغير المختلط لعمل واحد فقط. ويؤكد النص ذاته أيضا أن الكتب التي تم اقتناؤها لم تكن يونانية فقط، بل شملت جميع الشعوب. ومع ذلك، فلعل الجزء الأكبر منها كان يونانيا، وفي الواقع، قياسا على العمل العلمي الذي تم انجازه في الاسكندرية، يمكننا أن نفترض أن مجموع الأدب اليوناني كان قد تجمع كله في الاسكندرية. هذا الانجاز وحده ما كان ليمكن تحقيقه دون جهود مضنية ودعم مالي ضخم. ولسوء الحظ، جميع معلوماتنا في هذا المضمار يغلب عليها طابع النوادر والطرائف. فمن ذلك أن لدينا روايتين متعارضتين عن مصـير مكتبة ارسـطو. فحسب ما ورد في وصيـة خليفتـه ثيوفراسطوس بأنه أوصى « أن تؤول كتبـه الشخصية والكتب التي كان قد ورثها من أرسطو الى نيليوس الذي أخذها الى وطنه في مدينة اسكبسيس Scepsis.[٧١] ويكمل أثينايوس القصة بأن فيلادلفوس فيما بعد اشترى هذه الكتب بمبلغ كبير من المال.[٧٢] ولكن هناك رواية ثانية يوردها استرابون، مؤداها أن الكتب بقيت في اسـرة نيليـوس الى أن اشتـراهـا رجـل يسمى ابيلليكـون Apellicon وهو ثري من تيوس بآسيا الصغرى كان يهوى اقتناء الكتب واتخذ مقره في أثينا. وحين فتح القائد الروماني سولا أثينا عام ٨٦ ق.م. صادر مكتبة ابيلليكون ونقلها الى روما.[٧٣] هل من سبيل للتوفيق بين هاتين الروايتين المتعارضتين، عـلى افتراض أنـهما تمثلان شيئا من حقيقة ؟[٧٤] لعل من المناسب أن نفهم من

عبارة « كتب أرسطو » انها قد تعني أحد أمرين، الأول مجموعة المكتبة التي انشأها في المدرسة بأثينا، والثاني مجموعة مؤلفاته الشخصية. وعلى ذلك يكون ما ورثه نيليوس هي المخطوطات الأصلية لمؤلفات أرسطو؛ وهذه هي التي صادرها سولا ضمن مكتبة أبيلليكون ونقلها الى روما. ومما يؤيد مثل هذا التفسير ما يقوله بلوتارخوس في انتقاد للمشائين « بأنه لم تعد لديهم النصوص الأصلية لأعمال أرسطو وثيوفراسطس منذ أن سقطت تركة نيليوس في أيد عاطلة وضيعة » (أي الرومان).(٧٥) أما مكتبة المدرسة بأثينا، فمن المحتمل أن فيلادلفوس اشترى قدرا كبيرا منها، حين أصبح استاذه استراتون رئيسا لها. ولعلنا نذكر أن الملك سوتير كان قد دفع له مبلغ ثمانين تالنتا من الفضة نظير تعليمه لابنه مما يجعلنا نعتقد أن الصلة كانت وثيقة بين القصر البطلمي واستراتون. ومما يؤكد أن مكتبة الاسكندرية احتوت بين مقتنياتها مكتبة أرسطو، كما يقول اثينايوس، هو ما شاع خطأ في العصور الوسطى بأن ارسطو نفسه علّم أيضا بالاسكندرية.(٧٦)

ومن المتوقع، مع وجود شخصية مثل ديميتريوس في مرحلة النشأة والتأسيس أن تكتسب المكتبة والموسيون اتجاها مشائيا. ولعل عبارة استرابون المشهورة بأن أرسطو يعتبر مثلا أعلى في اقتناء الكتب وانه « علّم ملوك مصر كيف يؤسسون مكتبة »،(٧٧) تدل على أنه كان ينظر الى أرسطو على أنه الأب الروحي لمكتبة الاسكندرية. ولعل من مظاهر هذا التأثير المبكر هو ما وجدناه على قصاصة ورقة بردية من القرن الثالث ق.م. ضمن أوراق زينون بالفيوم، وهي تتضمن ايصالا بتسليم طرد من لفائف الكتب أرسلت من الاسكندرية، وبقي من اسطرها هذه العبارة « الى ايفارموستوس، مجموعة خطب كاليستنيس الدبلوماسية... ».(٧٨) ولا يخفى أن كاليستنيس كان من أعلام المشائين، فهو ابن أخت أرسطو وتلميذه وكذلك مؤرخ حملة الاسكندر، ثار عليه فقتله. وهكذا نجد أن أعماله كانت ضمن مقتنيات الاسكندرية منذ تاريخ مبكر، وأنها كانت مطلوبة خارج العاصمة، فنسخت وأرسلت.

وهناك قصص في غاية الغرابة ترددت في كتابات القدماء تصور الى أي مدى ذهب البطالمة بغية الحصول على الكتب. فمن ذلك مثلا تفتيش كل سفينة ترسو بميناء الاسكندرية، وعند العثور على كتاب كان يؤخذ الى المكتبة ليقرروا اذا كانوا يعيدونه لصاحبه أو يحتفظون به ويعوض صاحبه تعويضا مناسبا. الكتب التي يحصلون عليها عن هذا السبيل، وصفوها بعبارة « من السفن ».[٧٩] قصة أخرى تكشف عن الأساليب غير الأخلاقية التي استخدمت للحصول على المخطوطات الأصلية لأعمال شعراء التراجيديا الكبار، ايسخولوس وسوفوكليس ويوريبيدس. هذه الوثائق الأدبية الثمينة كانت مودعة في خزائن محفوظات الدولة في أثينا. ولم يكن مسموحا باعارتها اطلاقا. ولكن بطليموس الثالث استطاع أن يقنع حكام أثينا بأن يسمحوا له باستعارتها لدراستها ونسخها، وذلك عن طريق تقديم خمسة عشر تالنتا من الفضة تودع في أثينا ضمانا لاعادتها. ثم ان الملك احتفظ بالمخطوطات الأصلية وأرسل الى أثينا النسخ، وقبل خسارة المبلغ المودع عن طيب خاطر.[٨٠] ولكن مثل هذه الحادثة تعتبر استثناء وتظهر أي مدى من التطرف ذهب اليه ملك أولع باقتناء المخطوطات الأصلية. وقد كانت هناك أسواق معروفة لشراء الكتب، مثل أثينا ورودس، وهما أكبر أسواق الكتب في ذلك الوقت.[٨١] وقد تشترى نسخ مختلفة من كتاب معين، ملاحم هوميروس مثلا، التي جاءت من مصادر متباينة، فكان يكتب مصدر كل نسخة، « من خيوس »، أو « من سينوبي »، أو « من ماساليا ».[٨٢]

سبق أن ذكرنا أن هدف البطالمة أن يجعلوا المكتبة عالمية، فلا تقتصر على احتواء التراث الفكري اليوناني فحسب، ولكن أيضا كتابات جميع الشعوب، لتترجم للغة اليونانية آخر الأمر.[٨٣] ويأتي في مقدمة الكتابات غير اليونانية « السجلات المقدسة » المصرية، التي استمد منها هيكاتايوس الابديري مادة كتابه « أخبار مصر ». ومانيتون الكاهن المصري الذي كان على علم بلغة اليونان وثقافتهم، تولى مهمة كتابة تاريخ شامل لمصر باللغة

اليونانية، بحيث من الممكن أن تكون قد ضمت المكتبة مجموعة كاملة من السجلات المصرية. وفي الوقت نفسه تقريبا، أو قبله مباشرة، قام بيروسوس Berossos الكاهن الكلداني بكتابة تاريخ بابل باللغة اليونانية أيضا. وسرعان ما شاعت معرفته في مصر مباشرة ومن المحتمل أنه كان معروفا لمانيتون.(٨٤)

يبدو أن الديانات الشرقية كانت لها جاذبيتها التقليدية، ويذكر بلنيوس أن كاتبا يسمى هيرميبوس من تلاميذ كاليماخوس ألّف كتابا ضخما عن الزرادوشتية، بلغ طوله مليوني سطر.(٨٥) مثل هذا العمل الضخم يعني أن مادة تفصيلية عن العقيدة الفارسية المزدكية كانت متوفرة في مكتبة الاسكندرية. كذلك الكتابات البوذية عرفت طريقها الى الاسكندرية نتيجة لتبادل السفارات بين أسوكا وفيلادلفوس.(٨٦) قد يكون الشغف العقلي والاهتمام الأكاديمي من الدوافع القوية التي تحرك العلماء للكتابة عن هذه الديانات الشرقية القديمة، ولكن يبدو أن أسبابا اكثر الزاما تكمن وراء ترجمة التوراة الى اللغة اليونانية. مثل هذه الترجمة كانت ضرورة عملية للجالية اليهودية الكبيرة في الاسكندرية وسائر مصر، والذين كانوا قد اصطبغوا بالصبغة الهللينية بدرجة عالية، كما سبق أن ذكرنا في حديثنا عن سكان الاسكندرية. وقد وردت قصة هذه الترجمة في رسالة ارستياس بطريقة يدخل فيها كثير من الخيال.(٨٧) وفحواها أن فيلادلفوس أرسل الى حاخام اليهود في بيت المقدس يطلب منه ارسال الكتب القانونية لدى اليهود ومعها عدد من الرجال الذين يتقنون اللغتين العبرية واليونانية ليقوموا بترجمتها في الاسكندرية. فأجابه الحاخام الى طلبه وأرسل اليه الكتب الخمسة من العهد القديم المعروفة باسم Pentateuch ومعها اثنان وسبعون مترجما من رجال الدين، ومن ثم تسميتها بالسبعينية. وتستمر القصة، أن فيلادلفوس، على سبيل الاختبار، وضع كل اثنين منهم في غرفة مستقلة على جزيرة فاروس، ليعملوا منفصلين. وحين انتهوا من عملهم جمعت تراجمهم وقرئت في اجتماع عام، فوجدت أنها جميعا متطابقة تماما. الهدف من هذه القصة بطبيعة الحال هو

التأثير الديني، وكأن الترجمة كانت معجزة دينية أو كأنها حدثت بوحي الهي، وذلك لتكتسب الترجمة صفة الصدق المطلق. ويكفي للتعليق عليها أن نقول ان معظم الدارسين الآن لا يقبلون الجانب الدرامي أو الجزئيات المثيرة في هذه القصة، ويذهبون الى أن هذه الترجمة السبعينية لم تتم دفعة واحدة، ولكن على مراحل استمرت بين القرنين الثالث والثاني ق.م.[٨٨] ولكن الأمر الذي يهمنا هو أن هذه الترجمة أمكن تحقيقها في الاسكندرية، بسبب وفرة المادة اللازمة لدراسة مثل هذا الموضوع في مكتبة الاسكندرية. وقد بقيت السبعينية الى الآن كأعظم عمل في تاريخ الترجمة، ولا زالت محتفظة بقيمتها كوثيقة دينية لا غنى عنها في دراسات الكتاب المقدس.

ولنا أن نتساءل الآن، ماذا حدث لأكداس الكتب أو اللفائف البردية التي تجمعت في مكتبات الاسكندرية ؟ لا بد أنه وجد اسلوب دقيق متقن يخضع هذه الآلاف من الكتب لنظام واضح ييسر على الادارة حصرها وتتبعها وعلى القراء الوصول اليها والافادة منها. ونحن لا نملك وصفا وافيا لهذا التنظيم العام، ولكن لدينا معلومات قليلة وجزئية ولكنها نافعة في إلقاء شيء من الضوء على ما كان يحدث للكتب بمجرد وصولها الى ابنية المكتبة. مصدرنا في ذلك هو الطبيب جالينوس، عندما يتحدث عن قصة نسخة من الكتاب الثالث من « الأوبئة » لأبقراط Hippocrates وكان بنصها نوع من العلامات Charakterae أطلق عليها « رموز أبقراط » ويقول ان الكتاب كان لطبيب يسمى منيمون من سيدي Mnemon of Side (وهو من كيليكيا بآسيا الصغرى)، واصطحبه معه حين أبحر من بامفيليا (بآسيا الصغرى) الى الاسكندرية، وهناك تنفيذا لقرار الملك صادر رجال الجمارك الكتاب. ويضيف جالينوس أن مصادره التي أخذ عنها تؤكد أن الكتاب شوهد في المكتبة بعد ذلك، وقد اثبتت عليه العبارتان : « من السفن » و « منيمون من سيدي »، كما أن مصادره تضيف « ذلك انه في حالة جميع المسافرين الذين يصلون الميناء وفي حيازتهم كتب، كان

النظام يقتضي أن يثبت موظفو الملك اسم المسافر (صاحب الكتاب) قبل أن يودع الكتاب في الخزائن apothekae فقد كان التقليد المتبع هو تجميع الكتب في أكوام في « مباني معينة » قبل أخذها للاستخدام في المكتبات. »[٨٩]

هذه الاشارة العابرة ذات دلالة في موضوع تنقصنا فيه المعلومات المباشرة، فهي تدل على أن المكتبة اشتملت على عدة مبان. فهناك « مباني معينة » لاستقبال الكتب بمجرد وصولها، وهنا يشرع « معاونو » المكتبة (hyperetae) في عملية التسجيل والفهرسة. ونلاحظ أن التسجيل حرص على اثبات « منشأ » أو مصدر الكتاب، في مثال جالينوس « من السفن »، في أحوال أخرى « مدينة » المنشأ كما سبق أن ذكرنا عن بعض نسخ هوميروس من « سينوبي » أو « خيوس » أو « ماساليا ». ويلي المنشأ في بيانات التسجيل أسم المورد أو صاحب الكتاب، اذا عرف مثل منيمون. وبالاضافة الى اسم المؤلف بطبيعة الحال، كتب اسم محقق الكتاب ان وجد.[٩٠] معلومة أخرى دخلت عملية التسجيل - وقد سبق ذكرها - هي اثبات اذا كان المخطوط « مختلطا » أي يضم أكثر من عمل، أو « غير مختلط » لعمل واحد. وأخيرا طول المخطوط وكان يحدد بعدد الأسطر، وأقدم مثال على كتابة العنوان وعدد الأسطر في نهاية النص في لفافة بردية من الثلث الأخير من القرن الثالث ق.م. وبها مسرحية سيكونيوس للشاعر ميناندر.

ومن الجدير بالذكر أيضا أن أجر الكاتب كان يحدد وفقا لجودة الكتابة وعدد الأسطر. وقد تضمنت ورقة بردي من أوكسيرنيخوس (البهنسة) يرجع تاريخها الى القرن الثاني قبل الميلاد السعرين التاليين : « ٢٨ دراخمة لـ ١٠٠٠٠ سطر... و١٣ دراخمة لـ ٦٢٠٠ سطر ». وقام دقلديانوس بمحاولة لتوحيد التكاليف والأجور في جميع أنحاء الامبراطورية فحدد أجر الكاتب على النحو التالي : « يكون أجر الكاتب عن الكتابة الممتازة ٢٥ دينارا لكل ١٠٠ سطر، وعن الكتابة من الدرجة الثانية ٢٠ دينارا لكل ١٠٠ سطر، ويكون أجر الكاتب العدل عن كتابة عريضة أو وثيقة قانونية ١٠ دنانير لكل ١٠٠ سطر ».[٩١]

على هذا النحو وجد سجل مستمر بأحدث مقتنيات المكتبه ويقابله بطبيعة الحال فهرست تفصيلي لمساعدة القارىء وارشاده للكتاب الذي يطلبه. ولكن مجرد بيان بمحتويات المكتبة لم يعد كافيا بعد أن نمت بسرعة نموا هائلا، كما أن قراء وعلماء غير مقيمين بالاسكندرية كانوا في حاجة لمعرفة كنوزها في شتى مجالات المعرفة ليطلبوا نسخا منها أو ليقصدوا اليها. وهكذا نشأت الحاجة الى دليل علمي ونقدي، يبين القيمة العلمية للكتب والمؤلفين في شتى المجالات. وما كان انجاز مثل هذا العمل الضخم ممكنا اذا لم يوجد عالم توفرت له معرفة موسوعية على أساس من الدراسة المنهجية الشاملة، مع طاقة من العمل لا تنفد. ولقد توفرت هذه الصفات النادرة في شخصية كاليماخوس، الذي بدت ملامح نبوغه في شبابه فالحق بالعمل في القصر وكلف بهذا المشروع الذي تبلور فيما عرف باسم « بيناكس Pinakes » ومعناها السجلات أو الفهرست.

ولم يصلنا شيء مباشرة من « سجلات » كاليماخوس، ولكن وصفها كاتبان متأخران في العصور الوسطى من القرنين العاشر والثاني عشر. وقد ورد الوصف الأول في العمل القاموسي سويداس، ويذكر أن « كاليماخوس... قام بتأليف السجلات Pinakes عن الرجال المتميزين في كل فرع من فروع المعرفة، وما ألّفوا من كتب، ويقع في مائة وعشرين كتابا ». أما الوصف الثاني فقد ورد في نص تزيتزيس سالف الذكر، فبعد أن أورد أعداد الكتب التي بالمكتبتين اضاف أن كاليماخوس بعد أن قام بتحقيق (النصوص) anorthosis وضع « سجلات الكتب ». هذه العبارة الأخيرة تجعل « السجلات » مجرد كشف بالكتب، وهو ما كان موجودا بالضرورة في عملية التسجيل، ويبدو أن الوصف الأول في مادة سويداس أكثر دلالة على أنه عمل ببليوغرافي قام على أساس من النقد والتقويم قدم فيه كاليماخوس بيانا « بالمؤلفين » الذين اعتقد هو بتميزهم كل في مجال تخصصه العلمي.

ونظرا لأن كتاب السجل لم يصلنا منه سوى اشارات عابرة عند الكتّاب اللاحقين، فليس باستطاعتنا أن نستعيد الخطة

العامة للعمل أو التعرف على منهج كاليماخوس في فهرسة « كل فرع من فروع المعرفة ». ولكن عن طريق جزئيات الاشارات اللاحقة يمكننا أن نقترح بحذر شيئا من منهجه [٩٢] يبدو أن تقسيمه الأساسي قام حسب الموضوعات، التي عثرنا منها على ما يأتي : بلاغة (خطابة) قانون، شعر ملاحم، تراجيديا، كوميديا، شعر غنائي، تاريخ، طب، رياضيات، علوم طبيعية، متنوعات.[٩٣] وتحت كل موضوع رتبت أسماء المؤلفين أبجديا، ويلحق كل مؤلف سيرة مختصرة بحياته وعرض نقدي لمؤلفاته.[٩٤] ويبدو أن سجلات كاليماخوس أصبحت نموذجا يحتذى في الأعمال اللاحقة من هذا النوع.[٩٥] ويمكن تتبع تأثيره الى العصور الوسطى، متمثلا في واحد من أعظم الأعمال في اللغة العربية، وهو كتاب الفهرست لابن النديم من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الذي وصلنا كاملا.

الفصل الرابع

الحياة العلمية

بتأسيس الموسيون والمكتبة توفرت في الاسكندرية الشروط الأساسية لقيام حركة عملية سليمة، تعتمد على أصول من البحث العلمي في مجالات متعددة، وكان العصر مهيأ وقادرا على دفع التجربة العقلية خطوات جديدة عملاقة. ما من شك أن الجهود السابقة قد بلغت قمما شاهقة ليس من اليسير تجاوزها، وخاصة في الفن وشعر الملاحم والدراما والفلسفة، ولكن في مجالات أخرى مثل الدراسات اللغوية والأدبية والعلمية كان الوضع مختلفا. فالدراسات في هذه المجالات لم يمكن ممارستها بكفاءة عالية دون ارساء تقاليد من البحث العلمي المتصل. هذا الضرب من البحث العلمي لم يمكن تحقيقه الا في ظل الرعاية التي كفلها للعلماء الملوك الهللينستيون المتنافسون. ويبدو بسبب شدة انتشار الادراك الواعي في ذلك العصر بأهمية الكتب والمكتبات، نظر في الماضي القريب الى الحضارة الهللينستية، على سبيل الاستخفاف، باعتبارها حضارة مكتبية، ولكن هذه النظرة قد تغيرت الآن، وأظهرت الدراسات الحديثة مقدار الاصالة العلمية التي تميز بها كثير من أعمال الرواد في القرنين الثالث والثاني ق.م. ولعله ليس من المبالغة في شيء أن نقول انه لأول مرة أمكن ارساء قواعد منهج البحث العلمي على أسس راقية في علوم متعددة أدى الى بلوغ نتائج باهرة في الرياضيات والطبيعة والطب والجغرافيا والفلك... وأيضا في تحقيق ونقد النصوص الأدبية. فلا جدال أن

الثروة الضخمة من الكتب التي توفرت تحت أيدي هؤلاء العلماء كانت أداة لازمة للعمل الجاد، وأي أداة فعالة كانت، تلك التي جمعت لأول مرة خبرات اليونان الكلاسيكية مع الشرق الأدنى القديم. ولكن الأكثر أهمية وفعالية هو الموقف النقدي الذي اتخذه علماء الاسكندرية الأوائل من تلك الكتب؛ فلم يقبلوا عن ثقة مصداقية أي نص كتابي، مهما كان قدره؛ ولم يصدروا في أحكامهم النهائية إلا بناءً على تجربة عملية أو دليل رياضي أو رأي مستمد من نقد الشواهد.

كثيرا ما كانت انجازات مدرسة الاسكندرية بالغة الدقة أو التعقيد، ولكنها كانت أيضا رائعة. وبالنسبة لأهداف هذا الكتاب، سوف نقتصر على تقديم موضوعات معينة تميزت بالجدة والأصالة. وأحيانا وجدنا الأعمال الرائدة التي خالفت المألوف في بعض المجالات تفاجيء المعاصرين بغرابتها. ونجد هذا الموقف متمثلا في جذاذة من ورق البردى عليها فقرة من مسرحية كوميدية أتيكية من القرن الثالث ق.م.، تسمى « الألوية الحمراء » للشاعر استراتون، وفيها مشهد بين طباخ مثقف وسيده الثري الجاهل. وفي الحوار يستخدم الطباخ لغة راقية قديمة بها ألفاظ من هوميروس للأشياء العادية اليومية، وسيده - في حالة من الخجل والاضطراب - مضطر الى الاستعانة بكتب فيليتاس للتعرف على معانيها [1] هذا المشهد يمثل تصويرا هزليا لاتجاه جديد في الدراسات اللغوية من الناقد فيليتاس من جزيرة قوص قد بدأه وأدخله الى الاسكندرية في مطلع القرن الثالث ق.م. وثبتت دعائم هذه الحركة الجديدة في الاسكندرية واستمرت بعده على أيدي مجموعة من النقاد البارزين، من أعضاء الموسيون. وسرعان ما عبّرت نتائج أبحاثهم الى شواطيء البحر المتوسط الشمالية، واذا بها تثير رد فعل قوي يعبّر عنه في مرارة لا تخلو من الحسد الفيلسوف الشكاك والشاعر الساخر تيمون من فليوس، الذي كان يقيم في مقدونيا لبعض الوقت، ويمثل اتجاها محافظا يرفض التيارات الفكرية المستحدثة فهاجم المعاصرين من

الفـلاسفة الرواقيـين والابيقوريـين، وكذلك علمـاء الموسيـون بالاسكندرية، وذلك في أبيات مشهورة تقول : « كثيرون يطعمون في مصر المكتظة بالسكان »، يخربشون « البردى، ويتخاصمون فيما بينهم في قفص الموسيون ».[٢]

تمثل هاتان الفقرتان السابقتان ضرباً من الأدب الفكاهي له شعبيته المعروفة، ولعل أشهـر نماذجـه هي الصورة الفكـاهية لسقراط في مسرحيـة السحاب لأرستـوفانيس. هـذا النوع من الكتابة بأسلوبه اللاذع وروحه العدوانية أحيانـا، يعكس عادة الاحساس بالمفاجأة وربما الاستنكار الشعبي لما قد يكون هناك من تطورات حديثة في الفكر أو قفزات كبرى في بعض مسارات العلم. ويبدو أن هذا هو ما كان حادثا في فترة الانتقال من القرن الرابع الى القرن الثالث ق.م. فرغم أن الحضارات السابقـة في الشرق الأدنى القديم واليونان في العصر الكلاسيكي كانت قـد حققت انجازات عظيمة في عدد من العلوم، ولكن لا يشك أحد أن مغامرة الاسكندر بأبعادها العالمية تركت العالم وكأنه واقف على عتبة تجربة عقلية جديدة، كان للاسكندريـة فيها دور الريـادة والقيادة. ولعل من أبرز ما تميزت وتفردت فيه تجربة الاسكندرية العلمية هو تبلور مستوى رفيع من البحث العلمي يقوم على أساس من الدراسة الشاملة وتفهم التراث الماضي، وهو تراث اعتقدوا في قيمته الخالدة وأنه جدير بالبقـاء. وقد حـاز عملهم هذا تقـدير الأجيال اللاحقة عليهم من القدماء أنفسهم، فنجد فتروفيوس من القرن الأول الميلادي في كتابه « عن العمارة »، يذكـر في اكبار « عمل السابقين »، لأنهم صانوا « لذاكرة الانسانية » الانجاز العقلي للأجيال السـابقة. ثم يضيف « ومن ثم وجب علينـا أن نسدي لهم شكرا خاصا، في الواقع أجزل الشكـر، اذ أنهم لم يتركوهم للضياع في ثنايا صمت حسود، بل مكنوا لهم في سجل كتابي مثبتين نتاج عقولهم في كل المجالات ».[٣] هؤلاء السابقون الذين يعنيهم هم علماء الاسكندرية الذين أفادوا الى أقصى درجة من امكانات البحث غير المحدودة في كنوزها المكتبية التي لم يسبق لها مثيل.

واذا نظرنا الى أجيال العلماء المتلاحقين، سواء في الاسكندرية أو في مراكز المعرفة الأخرى في العصر الهللينستي، وجدناهم كثيرا ما يقعون تحت تأثير المدارس الفلسفية الكبرى آنئذ وهي أكاديمية أفلاطون، مشائية ارسطو، رواقية زينون، أو مادية أبيقور ونحوها، ومع ذلك فان نمو الحركة العلمية في الاسكندرية يكشف عن درجة عالية من الشخصية المستقلة، فاذا كان الهدف الأسمى في الفلسفة عادة هو الوصول الى قواعد عامة أو قوانين كلية، فان الهدف الأساسي في البحث العلمي هو دراسة وفهم المادة موضوع البحث فهما صحيحا، سواء انتهت نتائج هذه الدراسة الى قاعدة عامة أو الى نقض قاعدة عامة. ويمكننا أن نضرب مثالا واضحا على هذا الاختلاف من مجال النقد الأدبي. فجهود ارسطو بطبيعة الحال فريدة في هذا المجال، وكتاب « الشعر » له قيمة باقية، فبعد عرض شامل معمق للتراث الأدبي اليوناني، صاغ ارسطو نتائجه على أنها قواعد ملزمة ويجب انتهاجها في أنماط الأدب المختلفة، الملحمة والتراجيديا والكوميديا.

أما في الاسكندرية فنجد لهم نهجا وهدفا مختلفين تماما ؛ اهتمامهم الأول هو المحافظة والفهم الصحيح للأعمال التي بقيت من الأجيال السابقة. في الواقع كان هذا مجالا جديدا في البحث العلمي، وهو الذي أصبح يسمى « نقد النصوص » أو « نقد المصادر ». فان توفر عدد من النسخ للعمل نفسه بالمكتبة واجه الباحثين بمشكلة اختيار القراءة الصحيحة بين هذه النصوص. فاستلزمت الدراسة بحثا مستفيضا، ليس في اللغة واستخدامها لدى الشاعر او المؤلف فحسب، ولكن في تاريخ وثقافة العصر الذي وضع فيه النص. ومثال ذلك ما نشأ من خلاف بين اثنين من ألمع الدارسين لهوميروس، وهما زينودوتوس من افيسوس وأريستارخس من ساموطراقيا اللذان شغلا منصب رئيس المكتبة. وكانت نقطة الخلاف بينهما حول القراءة الصحيحة لكلمة في افتتاحية الالياذة المعروفة. يبدأ الشاعر قصيدته بدعاء موجه للربة لتمده بالوحي والعون :

> انشدي، أيتها الربة، غضبة أخيل بن بيليوس تلك الغضبة المشؤومة التي انزلت بالآخيين ويلات لا تحصى، فكم القت للموت، هاديس، بأرواح الأبطال من المحاربين، وأحالتهم فريسة للكلاب « وجميع » الطيور الجوارح

الكلمة موضع الخلاف هي « جميع »، (وباليونانية pasi) :[4] فقد اقترح زينودوتوس مكانها قراءة كلمة daita، ومعناها « طعام » وعلى ذلك تكون ترجمة العبارة الأخيرة « فريسة للكلاب وطعاما للطيور الجوارح » ولم تكن قراءة daita مجرد تخمين من زينودوتوس، خاصة وانه طعن في أصالة تلك العبارة الأخيرة. وقد ثبت الآن أن قراءته ترجع الى سببين، احدهما أن كلمة « dais » (وتصريفها daitos) كلمة هومرية، ووردت في التعبير « daitos eises »[٥] التي شرحها زينودوتوس بمعنى daitos agathes أي « طعام طيب ».[٦] السبب الآخر، هو اتفاق نادر بين شعراء التراجيديا الاتيكية الثلاثة في استخدام ذلك التعبير الهومري مباشرة،[٧] مما يقوم دليلا على أنه وجد في اثينا في القرن الخامس ق.م. نص بالقراءة « daita » كما اقترح زينوودتوس، وليس بالقراءة pasi كما هو الحال في النص الشائع بين أيدينا الآن.

وبعده بقرن من الزمن، جاء أرستارخس، ممن شغلوا منصب رئيس المكتبة ومن أقدر الباحثين الهومريين، فأخضع جميع الدراسات الهومرية السابقة لنقد تفصيلي، ولاحظ الخطأ، ليس فقط في القراءة التي اخذ بها زينودوتوس فحسب، ولكن كذلك في تفسيره لعبارة هوميروس daitos eises وقام نقده على ركيزتين، دراسة التاريخ الاجتماعي والاشتقاق اللغوي. ورأى أن المعنى الصحيح لكلمة « dais » هو اقتسام وجبة جماعية واحدة، واضاف أن المجتمع المتحضر وحده ـ بعكس المجتمعات البدائية ـ حرصت على الاشتراك في وجبات واحدة. ثم لاحظ أن الاسم « dais » المشتق من المصدر يدل على اجراء مقصود

« لتوزيع الأنصبة »، وعلى ذلك لا يمكن اطلاقه على رجال غير متحضرين أو حيوانات.[٨] وهذا الأسلوب في الاستدلال يذكّرنا بالمنهج الاجتماعي التاريخي لأرسطو، مع اختلاف أن أرستارخس لم يكن يهدف الى وضع نظرية أدبية عامة، ولكن اهتمامه الأساسي هو تحقيق نص صحيح للأشعار الهومرية، والوصول الى تفسير صحيح.

أكثر علماء القرن الثالث ق.م. تميزا، هو إراتوسثنيس القوريني، وقد تولى أيضا منصب رئيس المكتبة المرموق، وفي فترة ولايته حصل بطليموس الثالث على النسخة الأثينية الرسمية لأعمال التراجيديين الثلاثة لمكتبة الاسكندرية. ولقد استحق الخلود لاسمه بفضل عدد الانجازات العلمية في مجالات متعددة متباينة. وفي الواقع ان تعدد مهاراته وتنوع قدراته لتعيد للذاكرة كبار رواد الحركة الانسانية في مطلع النهضة الأوروبية، اذ شمل نتاجه العقلي الشعر والفلسفة والنقد الأدبي والجغرافية والفلك والرياضيات والتأريخ العلمي وغيرها. وبدلا من أن يتخذ صفة « الكاتب » (grammaticus) لقبا له، فضّل أن يوصف بكلمة « فيلولوجي (Philologus)، وهو اصطلاح أطلق على الأفراد الذين اتسعت اهتماماتهم الفكرية فشملت فروعا متعددة من المعرفة.[٩] على أي حال ـ من أجل أغراض هذه الدراسة ـ يمكننا أن نرى من خلال عمله كيف أنه استطاع أن يحسن الاستفادة من المكتبة ومن امكانيات الموسيون التقنية، ولا بد أن كتاب كاليماخوس « الألواح » أو السجل (Pinakes) أعانه كثيرا في الحصول على معلوماته الموسوعية. ولا شك أن أعظم انجازاته تقع في حقل الجغرافيا، ليس بسبب محاولته الرائدة لقياس محيط الكرة الأرضية فحسب، ولكن أيضا بسبب انه حاول في كتابه « قياسات الأرض » أن يحدد المسافة بين المواقع المختلفة وأن يحدد مواقعها بالنسبة لخطوط الطول والعرض ولقد اظهر في عمله الكبير « الجغرافيا » (Georgraphica) انه كان ملما بكل التاريخ السابق لعلم الجغرافيا، وتوضح الفقرات الباقية كيف أنه من أجل تحقيق أبعاد الهند عرضا، أخضع للفحص الدقيق الشواهد

المستمـدة من « مسـالك » ومـؤلفـات كـل من مجـاستثنيس (Megasthenes) وباتروكليس (Patrocles) وهما من المعاصرين الأكبر سنا منـه، ومن المكتشفين الذين عملوا في خـدمة الدولة السلوقية المنافسة، ومع ذلك فسرعان ما كانت أعمـالهم تصل الاسكندرية، كما تناولها اراتوستثنيس في موضوعية كاملة. ولقد وصف لنا استرابون كيف اعتمد إراتوستثنيس على المادة العلمية المكدسة في المكتبة، لأنه ـ يقول استرابون ـ أقام دراساته على معلومات « مستمدة من تقارير أولئك الرجال الذين عـاينوا تلك المناطق، فقد أحـاط بكثير من تقـارير المستكشفـين التي كانت متوفرة في تلك المكتبة الكبرى... » ونتيجة لهذا المسح العلمي، رأى ضـرورة « القيام بمـراجعة شـاملة للخريـطة الجغرافيـة السابقة ».[١٠]

ومن الطريف أن نجد لهذا الباحث في مجال العلوم، موقفا مستقلا أيضا في مجال النقد الأدبي. ففي تنـاوله لهوميـروس وللشعر بصفة عامة، كان يرى أن « هدف الشاعر، ليس التعليم، ولكن الامتاع. »[١١] هذه العبـارة كانت تتعـارض مع الاعتقـاد الشائع عن هوميروس « الذي علّم الناس منذ البداية ».[١٢] كما انها لم ترض مهاجمي هوميـروس،[١٣] لأن إراتوستثنيس بهـذه العبارة أراد أن يضفي فهما واقعيا وقيمة فنية على هـوميروس والشعر كله. هذا الموقف النقدي الجـديد لم يمـر دون أن يثير اهتمام غيره من النقاد، ووجدنا له اتباعا في القرن الثاني ق.م.، مثل أرستارخس واجثارخيدس. ومن الملاحظ أن لهـذا الكاتب الأخير عبارة شبيهة بقول إراتوستثنيس، وهو « أن كل شاعر يجب أن يكون هدفه التسلية وليس الحقيقة ».[١٤] ومن ناحية أخرى، في نهاية القرن الأول ق.م. عارض استرابون هذا الاتجاه في التفكير، وعـاد الى وجهـة نـظر أكثـر محـافـظة عـرفت بهـا الرواقيـة الأخلاقية.[١٥]

ورب سائل يتعجب لمقدار ما بين إراتوستثنيس واسترابون من اختلاف، رغم أن كلا منهما كان معتبرا من الرواقيين. ولكن الحقيقة هي أن إراتوستثنيس، من وجهة النظر الرواقية التقليدية

كان متمردا الى حد ما. وهكذا نجد استرابون، المؤمن بالرواقية التقليدية، يتهمه بأنه لم يذكر زينون مؤسس المدرسة، واكتفى بذكر أرستون تلميذه المنشق، والمؤسس لفرع جديد للرواقية في اثينا.(١٦) وفي الواقع انه لمن المنتظر من إراتوستنيس الا ينجذب لفلسفة زينون الأخلاقية، بقدر انجذابه لرواقية أرستون العلمية. ومن ثم كان رفضه لافتراض معاني خفية أو رمزية في أشعار هوميروس كما فعل اسلافه ومعاصروه من الرواقيين التقليديين.(١٧)

وأخيرا نجد انبل تعبير لرواقية إراتوستنيس في موقفه الانساني، الذي كان نادرا وربما فريدا في ذلك الوقت، فقد أدان أولئك الذين قسموا الجنس البشري الى قسمين، يونانيين وغير يونانيين، وكذلك أولئك الذين نصحوا الاسكندر بأن يعامل الأغريق كأصدقاء، وغير اليونانيين كأعداء، ولا يخفى أن من بين هؤلاء النصحاء إيسقراط وأرسطو. ونجد إراتوستنيس يمتدح الاسكندر لاهماله تلك النصيحة، كما يتخذ إراتوستنيس موقفا رواقيا صحيحا حين يعلن أن المقياس الوحيد لتقسيم الناس كافة هو بمقدار نصيبهم من الفضيلة أو الرذيلة.(١٨)

الشخصية الكبرى بعد ذلك في حقل النقد الأدبي (grammaticus) هو أرستوفانيس من بيزنطة، الذي تخبرنا سيرته في الموسوعة « سويداس » أنه نشأ في مصر وتولى منصب رئيس المكتبة زمن بطليموس الرابع (٢٢١ – ٢٠٥ ق.م.) وكان على درجة مذهلة من الاحاطة بمحتويات كتب المكتبة، لأنه « قرأ كل كتاب في المكتبة بانتظام، يوما بعد يوم بشغف واهتمام بالغين »، كما يقول فتروفيوس. وحين حكم في احدى المنافسات بين الشعراء، استطاع أن يتبين جميع الأسطر المستعارة المتضمنة في القصائد المقدمة للمنافسة، مع تحديد مواقعها في الأعمال الأصلية. وحين طالبه الملك باثبات دعواه، يضيف فتروفيوس « أن أرستوفانيس ـ معتمدا على ذاكرته ـ استخرج من بعض خزائن الكتب (armaria) عددا كبيرا من لفائف أو وشائع البردى (Volumina)، وبمقارنتها مع الأشعار التي أنشدت، أجبر المؤلفين على الاعتراف بأنهم لصوص ».(١٩)

ولم تقتصر نتائج جهوده الضخمة في حقل النقد الأدبي والدراسات المتصلة به (اللغة، تحقيق النصوص، تراث الماضي) على ارساء البحوث الكلاسيكية على أسس ثابتة فحسب، ولكن أيضا أصبحت نموذجا يحاكى دون أدنى تصرف من بعده. وتمثل بردية « ترانيم أو تسابيح » بنداروس مثالا رائعا للمنهج الذي استخدمه أرستوفانيس في التحقيق،[٢٠] حتى أن أخطاءه حافظ عليها خلفاؤه بأمانة.[٢١] ونظرا لأنه لم يقنع بأعمال أسلافه النابهين، نجده يقوم منفردا بانجاز تحقيق كامل (diorthosis) لنصوص الملاحم والشعر الغنائي والشعر التمثيلي اليوناني من العصر الكلاسيكي.

ورغم أن أرستوفانيس لم يعرف بميوله الفلسفية، الا أن ظاهرتين في كتاباته تكشف عن مؤثرات مشائية مباشرة. أولا، طبق في مجال النقد الأدبي نظرية ارسطو بأن الأدب التمثيلي محاكاة للحياة. وبناء على هذه القاعدة كان اعجابه الشديد بأدب ميناندر، الذي وضعه في المركز الثاني بعد هوميروس مباشرة.[٢٢] ويبدو موقفه واضحا في مقطوعة فكاهية من الشعر، حيث يتساءل : « أي ميناندر ويا حياة، أيكما حاكى الآخر ؟ »[٢٣] الظاهرة الثانية، هي ما اصطلح على تسميته مقدمات (hypotheseis) وهي التي قدم بها تحقيقاته للأعمال التراجيدية والكوميدية. للكلمة اليونانية hypotheseis معان متعددة، ولكن المشائين استخدموها بمعنى مجمل أحداث المسرحية، وهو المعنى الذي استخدمه ايضا كاليماخوس عندما كتب hypotheseis للسجل (Pinax) الخاص بالشعراء التمثيليين. ولكن الفضل يرجع لأرستوفانيس في تحديد الشكل النهائي لـ hypotheseis في مقدماته لكل مسرحية على انفراد، وقد بقيت منها نماذج كثيرة في أوراق البردى وفي مخطوطات العصور الوسطى.[٢٥] وتمثل لنا هذه المقدمات (hypotheseis) مظهرا من مظاهر العلاقة بين اسلوب المشائيين وحركة البحث العلمي في الاسكندرية. ونظرا لأن الأعمال التعليمية (didaskaliae) لأرسطو وتلاميذه وكذلك « سجلات » (Pinakes) كاليماخس قد فقدت جميعها، فانه لمن

حسن الحظ حقا أن مقدارا كبيرا من المعلومات التي لا تقدر بثمن قد وصلتنا عن طريق « مقدمات » أرستوفانيس.

اسهام آخر قام به أرستوفانيس في مجال الدراسات الكلاسيكية هو عمله القاموسي العظيم المسمى Lexeis « معجم الألفاظ » الذي شمل جميع الأعمال الأدبية، شعرا ونثرا. وأول ما يحتاج اليه واضع القاموس هو توفر نصوص موثوق بها مستمدة من أفضل المخطوطات المتاحة، ولا بد أن أرستوفانيس كان من هذه الناحية في وضع أفضل من سابقيه، اذ كان تحت تصرفه جميع النصوص التي قام بنفسه بتحقيقها من هوميروس الى ميناندر. ولا بد أنه أفاد فائدة متبادلة في عمله المزدوج، فالقاموسي في بحثه الدقيق عن الصيغة الصحيحة والمعنى الصحيح للكلمة في عصر معين ولهجة معينة، أعان المحقق في أن يحسن الاختيار بين القراءات المختلفة في المخطوطات المتعددة للنص الواحد.(٢٦)

وفي ما يتعلق بالمنهج، فان أهم أقسام « معجم الألفاظ »، (Lexeis) قسم يحمل عنوان « كلمات كان يظن أنها مجهولة للقدماء »، وهو الذي كشف عنه لأول مرة في مخطوطة بدير جبل آثوس في بلاد اليونان.(٢٧) وأول مادة بالمخطوطة تحت هذا العنوان هي كلمة « sannas » وشرحت على أنها تعني mooros أي « أحمق » أو « أبله ». وكنا نعرف قبل ذلك من فقرة طويلة وردت عند يوستاثيوس Eustathius أن أرستوفانيس كان قد تناول هذه الكلمة النادرة في صيغها واشتقاقاتها المتعددة، وكذلك معانيها المختلفة، ولكنا لم ندرك كيف درس الفاظ اللغة في سياقها التارخي، الا بعد اكتشاف مخطوطة جبل آثوس. فهو يميز بين نوعين من الكلمات : تلك التي ظن أن القدماء استخدموها (palaioi)، والاخرى التي ظن أنها كانت مجهولة للقدماء، أو الفاظ مستحدثة (Kainoterai). ولعل المقصود بالقدماء الكتاّب قبل العصر الاسكندري، والكلمات « المستحدثة » التي وردت عند الكتاّب الهللينستيين. ومن الطريف أن اسم أرستوفانيس ورد في بردية من القرن الثاني ق.م. في معرض التعليق على

قصيدة للشاعر هيبوناكس Hipponax من القرن السادس ق.م.، وهكذا يثبت نص البردية أن كلمة sannas بمعنى « أحمق » كانت معروفة للقدماء.(٢٨)

ورغم تزايد الاضطرابات في الدولة البطلمية مع تقدم القرن الثاني ق.م. استمرت الاسكندرية متميزة بمستوى رفيع من البحث العلمي، وقادرة على اجتذاب العلماء المرموقين. ومن بعد ارستوفانيس خلفه تلميذه أرستارخس، الذي كان من ساموطراقيا أصلا، ثم أصبح مواطنا بالاسكندرية التي أقام بها تحت حكم بطليموس السادس فيلوميتور (١٨٠ – ١٤٥ ق.م.). وحسب التقليد البطلمي، عيِّن معلما لأمراء الأسرة الملكية ورئيسا للمكتبة الملكية.(٢٩) وقد اشتهر أرستارخس باعتباره معلما عظيما وعالما متميزا أيضا. وتظهر لنا سيرته في القاموس سويداس أنه كمعلم كان له أربعون تلميذا، وكعالم يقال انه كتب ثمانمائة مؤلف في شرح كتب القدماء، ولا بد أن هذا القدر الكبير من الشروح والتعليقات شمل الأعمال الكلاسيكية اليونانية كلها، شعرا ونثرا. وجدير بنا أن نلاحظ أن أرستارخس كان أول من كتب شرحا لمؤلف بالنثر، وقد بقي لنا نموذج من شرحه لهيرودوت في بردية من القرن الثالث الميلادي.(٣٠)

ولا شك أن أعظم أعماله العلمية كان في مجال الدراسات الهومرية، فقد استحق لقب « الهومري » عن جدارة.(٣١) ولعل خير وصف لمنهجه في التفسير هي عبارة بورفيريوس Porphyrius « شرح هوميروس بهوميروس »(٣٢) فكان هدفه الرئيسي هو اكتشاف لغة هوميروس، ومن أجل شرح الكلمات والمعلومات، قام بجمع النماذج المتماثلة في الالياذة والأوديسة، وفي كل حالة لا يجد لها نماذج مماثلة، وضعها في قائمة خاصة باعتبارها وردت مرة واحدة عند الشاعر. واذا ما وجد أي شيء يتعارض مع ما هو ثابت من لغة هوميروس أو عصره، نسبه الى أشعار « الحلقة الهومرية » الذين ساروا على نهجه من بعده. وكان تصوره العام هو أن هوميروس كان شاعرا مبدعا خلاقا هدفه امتاع مستمعيه،

وليس مجرد تلقينهم المعلومات.[٣٣] وهو في ذلك يقتفي أثر سلفه العظيم إراتوستثنيس.

لعل من المناسب هنا أن نذكر موضوعا من موضوعات الثقافة العامة، وهو منشأ ومعنى كلمة « كلاسيكي » (Classic). رأينا أن تحقيقات أرستوفانيس كانت قاصرة على عدد معين من الشعراء، كما أن المصادر المعتمدة في « معجم اللغة » نادرا ما تجاوزت مجموعة معينة من الشعراء وكتاب النثر. والأمر نفسه يصح بالنسبة « لشروح » أرستارخس. ومن المستبعد أن ذلك كان محض صدفة. ولكن يبدو أن عملية انتقاء أو انتخاب حدثت من بين الأدب كله، كما تجمع في الاسكندرية، وكما رصد في في « ألواح » أو « سجلات » (Pinakes) كاليماخس. ومما يدل على أن كلا من أرستوفانيس وأرستارخس لعب دورا حاسما في تلك العملية ما أورده ششرون وكوينتيليان. ششرون في القرن الأول ق.م. يكتب رسالة لصديقه أتيكوس يقول فيها « ما أشبهني بموقف أرستوفانيس من قصائد أرخيلوخس، فأطول خطاباتك لي تبدو لي أفضلها ».[٣٤] وعبارة كوينتليان من القرن الأول الميلادي أكثر افصاحا : « لم يرد اسم أبوللونيوس (الرودسي) ضمن الطبقة العليا « ordo » التي اختارها النقاد، لأن كلا من أرستارخس وأرستوفانيس من نقاد الشعراء، لم يثبتا في قوائمهما أحدا من عصرهما. »[٣٥] هذه النصوص اللاتينية التي لا نعرف مصادرها اليونانية، تذكر صراحة أن بعض المؤلفين قبلوا ضمن « الطبقة » المعتمدة (ordo) أو استبعدوا منها بواسطة النقاد الأدبيين. وفي الواقع ان الولع باختيار افضل المؤلفين ظاهرة قديمة جدا، وقد سبق أن لاحظنا أن « سجلات » كاليماخوس لم تكن مجرد بيان أخصائي بكتب المكتبة، ولكن عرضا شاملا على أساس نقدي للمؤلفين المتميزين فقط في كل مجالات المعرفة. وكان كاليماخوس هو الذي يقرر اختيار أولئك « المتميزين » من المؤلفين. وفي مجال الأدب ـ كما يفهم من عبارات ششرون وكوينتيليان، قام أرستوفانيس وأرستارخس

بانتقاء مؤلفي « الطبقة الأولى » (ordo)، الذين استبعد من بينهم شاعر مثل أبوللونيوس الرودسي.

في اللغة اليونانية يستخدمون الفعل enkrinein[٣٦] للتعبير عن انتقاء المؤلفين واثبات أسمائهم في قائمة مختارة، وهي تعني « يقبل » أو يوافق على. ويجب أن ندرك أن هذه الاصطلاحات، في اليونانية أو اللاتينية، مشتقة من التعبيرات الاجتماعية أو السياسية أو العسكرية أحيانا. فالفعل اليوناني enkrinein على سبيل المثال، كان يستخدم « للموافقة على الانتخاب لعضوية مجلس الشيوخ، في حين أن الكلمة اللاتينية ordo الواردة عند كوينتيليان، تعني طبقة اجتماعية أو مرتبة عسكرية. ولكن ششرون استخدم اصطلاحا آخر « classis »[٣٧] كان مستخدما أيضا في مجال التقسيم الاجتماعي للشعب الروماني. وتطبيقا لاصطلاح ششرون، اعتاد الرومان أن يطلقوا على فئة المؤلفين المنتقاة كلمة « classici »، وتعني بالنسبة للرومان « الطبقة الأولى ». وأصبحت هذه الكلمة أكثر انتشارا، فاستخدمها علماء عصر النهضة في أوروبا، ومن ثم كلمة « كلاسيكي » الشائعة بيننا.

بعد أن تم انتقاء الطبقة الأولى من المؤلفين، الكلاسيكيين، توافر النقاد والكتاب (grammatici) من أمثال أرستارخس على أعمالهم شرحا وتعليقا وأصبحت أعمالهم أو كثير منها ينسخ مرارا لتوفير الأعداد اللازمة منها لحاجة التلاميذ والباحثين. وهكذا كتب الخلود « للكلاسيكيين »، بينما اندثر غيرهم.

لقد حاولنا حتى الآن، أن نقدم العمل الذي قامت به مجموعة من العلماء في حقل نقد النصوص، الذي يعتبر ابداعا اسكندريا خاصا. وللاسكندرية اسهامات عظيمة أخرى ساعدت على تقدم مجموعة من العلوم. ولعل الاشارة السريعة سالفة الذكر الى اراتوسثنيس تدلنا على مقدار تعدد وتعقد مجالات العمل العلمي في الاسكندرية. ولسنا هنا بصدد استعراض جميع هذه المجالات، ولكن سنقصر اهتمامنا فيما يلي على تتبع بعض الاسهامات العلمية التي تتميز بطابع اسكندري خاص.

واذا أخذنا مجال الطب مثلا، فلعل أهم ما ميز الاسكندرية عن غيرها من مراكز تعليم الطب، هو أن الرعاية البطلمية شجعت بعض الأطباء البارزين على اشباع ميولهم للبحث الأكاديمي. ومن مظاهر التغير التي شهدتها مهنة الطب، هي أنه في العالم اليوناني قبل الاسكندرية، كان جميع من يشتغل بالطب ينسبون الى مدرسة واحدة ونظام تعليمي واحد، ترجع أصوله الى أبقراط Hippocrates كما وجد اسم شملهم جميعا وهو اسكليبيادس (وجمعها Asclepiadae) بمعنى أنهم أبناء أو سلالة أسكليبيوس الأب الروحي لفن الشفاء.[٣٨] في العصر الهللينستي نجد أن هذه التسمية العامة تختفي. فتحت تأثير البحوث الأكاديمية الجديدة، في الاسكندرية وفي العاصمة المنافسة لها أنطاكية، تظهر مدارس طبية متعددة، أو كما كانت تسمى « بيوت » (Oikıae). وتزعّم حركة « الطب الجديد » اثنان من الأساتذة هما إراسستراتوس (Erasistratus) وهيروفيلوس (Herophilus). واذا كانت علاقة إراسستراتوس بالاسكندرية قد تعرضت للشك، فلا جدال أن هيروفيلوس من خلقيدون كانت له مدرسة أو « بيت » (oikia) في الاسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث ق م. وقد وصف تلاميذه المباشرون بأنهم تخرجوا « من بيت هيروفيلوس »، بينما سمي أتباع مدرسته الطبية فيما بعد « هيروفيليين »، كما أطلقت اصطلاحات مشابهة على اتباع اراسستراتوس أيضا.[٤٠]

اتجهت جهود هيروفيلوس ومدرسته الى تأسيس « طب علمي »، فبالمقارنة مع اسلوب مدرسة أبقراط التي قامت على تعليم كمٍّ ضخم من الملاحظات المبوبة لجسم الانسان وأوصاف الأمراض المختلفة، اهتم الهيروفيليون بالمعرفة الطبيّة المباشرة وبدقة الاصطلاحات. ومن أجل تحقيق هذه الغاية، اقدم هيروفيلوس على دراسة جديدة لجسم الانسان، تعتمد على علم التشريح وممارسة تشريح جسم الانسان الحي. هذا العمل الرائد تعرض فيما بعد لنقد شديد، وقد وصلنا نقد ترتيليوس، الذي يمثل مدرسة « مذهبية » محافظة في روما، فوصف جرّاح الاسكندرية العظيم بقوله : « هيروفيلوس، الطبيب، أو ذلك

الجزار الذي شرّح مئات البشر بغية معرفة الطبيعة ».[٤١] ولكن جالينوس عرف له قدره. ففيما يتعلق بالشرايين والأوردة المِبْيضيّة التي لاحظها هيروفيلوس في تشريحه للرحم، يعترف جالينوس « لم أر ذلك في الحيوانات الأخرى الا في القرود أحيانا. ولكني لا أشك أن هيروفيلوس رآها في النساء، فقد كان شديد الكفاءة في مجالات العلم الأخرى، ومعرفته بالحقائق المستمدة من التشريح كانت بالغة الدقة، كما أن ملاحظاته لم تجر على حيوان أعجم، كما هي الحال بالنسبة لكثير منا، ولكن على البشر أنفسهم ».[٤٢] وقد حقق هيروفيلوس انجازا علميا خالدا في علم الأعصاب ووظيفة العقل، فنتيجة لقيامه بتشريح الجهاز العصبي، اثبت نهائيا، ضد أرسطو وآخرين أن العقل ـ وليس القلب ـ مركز التفكير [٤٣]

وكذلك أفادت الاصطلاحات الطبية من أبحاث هيروفيلوس العلمية. فلأول مرة أمكن تحديد كثير من اعضاء جسم الانسان تحديدا دقيقا، حتى ان أجزاءها وقطاعاتها أصبحت لها اصطلاحاتها الخاصة. ولا زالت بعض هذه المصطلحات في صيغتها اللاتينية مستخدمة الى الآن، في بعض الحالات استمد هيروفيلوس أسماءها من البيئة المحلية في الاسكندرية، مثل « فارويد » ذات شكل يشبه منارة فاروس (في وصف الظاهرة العمودية styloid process)، ومثل « قلم الكتابة، calamus scriptorius للتجويف في أرضية المخيخ، لأنه يشبه قلم الكتابة المستخدم في الاسكندرية.[٤٤]

بعض تلاميذ هيروفيلوس أسسوا مدارس مستقلة خاصة بهم. أحد هؤلاء كان الطبيب كاليماخوس الذي وصف بأنه من بيت هيروفيلوس، وقد بقيت مدرسته من بعده بل ونافست مدرسة استاذه حسب عبارة بوليبيوس الذي زار الاسكندرية في منتصف القرن الثاني ق.م.. « وكان يقتسم مهنة الطب مدرستان الهيروفيليون والكاليماخيون ».[٤٥]

. ولكن هناك مدرسة أخرى أكثر شهرة وأكثر أهمية أسسها أيضا أحد تلاميذه، وهو فيلينوس من جزيرة قوص

(Philinus of Cos) ونقصد بها المدرسة التجريبية في الطب، التي بدأت منذ البداية منشقة عن الهيروفيليين.(٤٦) وخلفه في المدرسة مواطن من الاسكندرية يسمى سرابيـون، ولعب دورا كبيرا في تطويرها، مما جعل أحد الكتّاب المتأخرين يعتبره مؤسسها.(٤٧) وفي الواقع كان الفـارق بين المـدرستين ملحـوظا، فبينما وجـه الهيروفيليون اهتمامهم الأكبر الى التشريح ووظائف الأعضاء، ركز التجريبيون اهتمامهم عـلى نظريـة العلاج (therapeutics) وبعبارة أخرى، أهملوا التشريح ووظائف الأعضاء، واعتقدوا أن المرض يجب علاجه بالتجـربة. ومن أجـل تحقيق هذه الغـاية، طوروا نظرية طبية خاصة بهم تعتمد على « التجربة » (peira)، بمعنى المعرفة المباشرة لظروف كل حالة وأساليب العلاج السابقة في الحالات الفردية (historia).(٤٨)

وأمكن التغلب على القطيعة بين المـدرستين، وتم التـوفيق بينهما في القرن الأول ق.م. على يدي هيراقليدس من تـارنتوم، والذي يعتبر أهم التجريبيين في تاريخ المدرسة بأسره. فقد تجمع في شخصه أفضل ما في المدرستين، فهو من ناحية مارس التشريح وطور أساليب الجراحة، ومن ناحية أخرى احتفظ أيضا بالمنهج التجريبي للعلاج.(٤٩) ومن بين مؤلفاته نعرف كتابا في العقاقير، وحوارا حول الأغذية، وتاريخا للمدرسة التجريبية. ولم يبق لنا للأسف من نصوصها الأصلية غير فقرات قليلة، ولكن من حسن الحظ أن كتابا آخر وضعه جالينوس في عصر لاحق عن المدرسة التجريبية بقيت أجزاء قليلة من نصه اليوناني، أمـا الكتاب في مجمله فقد وصلتنا ترجمته العربية كاملة.(٥٠)

أما تعلّم مهنة الطب فكان يتبع فيه أسلوب التعلّم والتدريب لسائر المهن أو الحرف، وهو ما تكشف عنه بـردية من القـرن الثـالث ق.م. تتضمن عقـدا لتعلّم مهنـة الطب، وفيـه يعهـد سـوسيكـراتيس بفيلون، ابنـه أو عتيقـه، الى طبيب يسمـى ثيودوتوس لمدة ست سنوات ليعلمه فن الشفاء، مقابل أجر.(٥١)

ويبدو أن ثيودوتوس كان له « بيت » (oikia) بمعنى عيادة تعليميـة حيث يقيم ويمارس تخصصـه في الطب. وتنبئنا هـذه

الجذاذة البردية أن مدة التعلّم كانت ست سنوات، ولكن للأسف لا نعلم مزيدا من التفصيلات حول مراحل الدراسة وبرنامجها أو نظام الامتحان. فمن الواضح أن الطب كان حرفة، ومن المعتاد في عقود تعلّم الحرف المختلفة أن يُنص على طريقة امتحان الصبي في نهاية الفترة، ضمانا لحسن مستوى التعليم. ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الفقرة تنص على تعليم « فن الشفاء »، مما يعني تدريبا في الطب العام، بالمعنى الحديث. هل هذا يعني أن التخصص في مجال معين من مجالات الطب كان يلزم له برنامج آخر يبدأ بعد انتهاء هذا البرنامج العام في الشفاء ؟ يخبرنا هيرودوت، أن التخصص في الطب كان متقدما جدا في مصر الفرعونية، فهو يذكر أن مجالات التخصص في الطب شملت : العيون والراس والأسنان، والأمعاء، وكذلك ما يسميه « الأمراض الخفية » التي تعني ـ فيما يبدو ـ أمراض الاضطرابات في الجهاز العصبي.[٥٢]

ويبدو أن الطبيب المتخصص في مصر كان يحظى بمكانة رفيعة ودخل كبير، ولدينا جذاذة بردية من القرن الثاني ق.م. تلقي بعض الضوء على التدريب التخصصي في الاسكندرية. وهي عبارة عن خطاب أرسلته أمرأة الى رجل (لعله زوجها)، وتقول فيه : « علمت أنك درست اللغة المصرية، وأبادر بتهنئتك وتهنئة نفسي، فالآن سيصبح بمقدورك الذهاب الى المدينة (أي الاسكندرية) وتقوم بتعليم التلاميذ في عيادة (الطبيب) فالو التعليمية في تخصص « تطهير » المعدة، وأنك بذلك تضمن لنفسك شيخوخة آمنة.[٥٣] وفي الواقع ان هذه البردية تتضمن موقفا له طرافته، فالى جانب ما سبق ذكره من « البيوت » التعليمية لكبار يونانيي الثقافة الأطباء، نجد هنا في شخصية فالو مصريا متخصصا في مجال له أهميته في الطب الباطني قديما وهو « تطهير الأمعاء »، واستطاع أن يقيم مؤسسته التعليمية في الاسكندرية. وبسبب الازدواجية اللغوية في المدينة واجه مشكلة وجود تلاميذ يتحدثون اللغة اليونانية بين تلاميذه. من أجل التغلب على عقبة

اللغة، اتخذ له مساعدا يونانيا تعلّم اللغة المصرية ليعاونه في تدريب هؤلاء التلاميذ.

ويبدو أن مثال فالو يعكس المستوى الرفيع الذي حققه المصريون خارج الاسكندرية أيضا. ففي نهاية القرن الأول الميلادي، نعرف أن بلينيوس الصغير ـ وهو من نبلاء الرومان ـ كان قد عولج من مرض خطير على يدي طبيب مصري موهوب يسمى هاربوكراس، كان من منف أصلا قبل أن يستقر ويشتهر في روما. واعترافا بمكانته قرر الامبراطور تراجان، بناء على طلب من بلينيوس، منحه مواطنة الاسكندرية ثم الرومانية دفعة واحدة.[٥٤] ونرى في شخصية هاروبوكراس مثالا ثانيا على استمرارية تبادل المعرفة الطبية بين الاغريق والمصريين.

وفي القرن الثاني الميلادي، اجتذبت شهرة الاسكندرية في الطب جالينوس، الذي يعتبر آخر الأطباء الكبار في العالم القديم. وكان تأثر جالينوس بعلوم الطب في الاسكندرية كبيرا جدا، حتى أنه خلد في فيض كتاباته كثيرا مما نعرفه اليوم في تاريخ الطب في الاسكندرية. وبعد ذلك بقرنين آخرين نجد مؤرخا متميزا مثل مارقللينوس يقرر في القرن الرابع « أن الطب ما زال يتقدم يوما بعد يوم، حتى أن الطبيب الذي يريد أن يؤكد رقي مكانته في مهنة الطب، فيمكنه أن يستغني عن أي دليل آخر ما دام يذكر أنه حصل على تدريبه في الاسكندرية. »[٥٥]

من الملاحظ أن الاهتمام بعلاج المرضى لم يكن في كل العصور قاصرا على مهنة الطب، ففي نطاق الممارسات الدينية لكثير من الديانات الكبرى في العالم، وجد دائما مرضى يطلبون تدخل العناية الالهية لشفاء أمراضهم، بعد أن فشلت الوسائل الأخرى ومع تركز عبادة ايزيس وسرابيس في الاسكندرية، اجتذبت المدينة كثيرين من الساعين وراء الشفاء بمعجزة دينية. وكانت ايزيس في العصر الهللينستي والروماني قد اكتسبت شهرة عالمية بأنها الشافي الأكبر. وفي وصفه لهذه الربة يقول هيكاتايوس الأبديري الشكوكي انها حين كانت لا تزال تحيا على الأرض « كانت ايزيس قد اكتشفت العقاقير الطبية، وأنها كانت

شديدة التمرس بعلم الشفاء، والآن بعد أن نالت الخلود تجد سعادتها الكبرى في شفاء البشر، وأنها تستجيب لدعاء من يطلب مساعدتها، وهم نائمون... وكثيرون ممن يأس الأطباء من شفائهم، بسبب اصابتهم بمرض عضال، ردتهم ايزيس الى العافية. »[٥٦]

وكذلك الحال بالنسبة لسرابيس، بفضل اقترانه بايزيس، والرابطة بينه وبين بعض أرباب الشفاء مثل امحوتب (ايموثيس) من مصر، وأسكليبيوس من اليونان، ساد الاعتقاد في قدرته على تحقيق الشفاء بمعجزة دينية. ومن بواكير معجزاته في هذا المجال ما حدث لديميتريوس الفاليري نفسه، الذي قيل انه فقد بصره بعد مجيئه الى الاسكندرية، ثم استعاده ببركة من سرابيس، لهذا السبب وضع للاله تسابيح استمرت تنشد فيما بعد. »[٥٧] وفي العصر الروماني نجد في الوثائق البردية خطابات كتبها من زاروا الاسكندرية من الريف، وهم عادة يذكرون قيامهم بزيارة معبد السرابيون والدعاء بالصحة. وعلى مقربة من الاسكندرية، يخبرنا استرابون، وجد في كانوب معبد للاله سرابيس تمتع بمكانة دينية كبيرة، وأنه « كانت له القدرة على الشفاء، حتى ان أفضل الناس اعتقدوا في قدرته هذه، وأنهم كانوا ينامون بالمعبد ـ أو من ينوبون عنهم ـ بهدف تحقيق الشفاء لأنفسهم. وقد سجل كُتّاب وقائع هذا الشفاء، كما سجل آخرون كرامات الوحي في هذا المعبد.[٥٨]

هذه الممارسات في حياة المعبد شغلت كثيرين من الكهنة، وألزمتهم بضرورة الاهتمام باستخدام أساليب العلاج الديني من أجل المحافظة على ثقة الناس فيما يصدر عن الاله من وحي أو أحلام. خاصة وأن تحقق الشفاء عن طريق الاله عاد على المعبد بزيادة ايراداته. ومهما يكن من أمر، فيبدو أنه لم يحدث تعارض أو اعتراض صريح بين مهنة الطب وممارسة الشفاء في المعبد، وتعايشت المهنتان ـ في الاسكندرية وفي غيرها ـ جنبا الى جنب، وربما أفادت الواحدة الأخرى.

لقد سبق أن لاحظنا أن الفلسفة لم تزدهر زمن البطالمة، ولكن مع اقتراب دولتهم من نهايتها في القرن الأول ق.م.، نشاهد

في الاسكندرية مزيدا من الاهتمام بالفلسفة. ويبدو أن هذا التطور كان نتيجة لضعف السيطرة البطلمية من ناحية، واستجابة لبعض التيارات السائدة في الثقافة العالمية، التي ازدادت قوة مع اتساع الامبراطورية الرومانية في القرنين الأخيرين ق.م. فقد أصبح من المألوف في روما، بين المثقفين وأفراد الطبقة الراقية، اعتناق احدى الفلسفات الشائعة في ذلك الوقت ـ وخاصة الرواقية والابيقورية. ومن دلائل انتشار هذه الظاهرة أن وجدنا ششرون في خطاب ساخر يلحق أتباع السناتوس بالرواقية، وأتباع قيصر بالابيقورية.[٥٩] كذلك بعض المدارس الأخرى كان لها أتباعها بنسبة أقل، وهؤلاء كانوا عادة من المثقفين ذوي الاهتمامات الفلسفية. وهكذا وجد أعداد من الشكوكيين والكلبيين والفيثاغوريين الجدد والاكاديميين (الذين تدرجوا من الدُغماتيّة ـ أو التمسك بمبادىء فلسفة أفلاطون ـ الى شكوكية نسبية)، وكذلك وجد علماء من المشائين أتباع ارسطو. وقد استمرت أثينا تحتل مركز الصدارة في الفلسفة، كما ازدهرت مدارس أخرى في أماكن متعددة مثل رودس وبرغامون وأنطاكية وطرسوس وقورينه.

أما في الاسكندرية فقد كان الوضع مختلفا، ففي بداية تاريخها ظهر عدد قليل من الفلاسفة، وخاصة من الشكوكيين، ولكن ظهورهم كان عابرا وقلقا أثناء القرن الثالث ق.م. نذكر منهم ثيودوروس « الملحد »، وهيجاسياس « الداعي الى الانتحار »، وديودوروس « كرونوس » الأكاديمي.[٦٠] ولم تترك اقامتهم في المدينة أثرا ملحوظا على الحياة العلمية في الاسكندرية. ولم نسمع عن وجود مدرسة فلسفية مستقرة في الاسكندرية الا في القرن الأول ق.م. وأقدم اشارة اليها وردت في كتاب شِشرون المسمى « اكاديميات »، حيث يقدم لنا عرضا تفصيليا عن تعاليم أنتيوخس العسقلاني، وهو من رواد الفلسفة في الاسكندرية وتوفي عام ٦٨ ق.م. ويتضح من عرض شِشرون أن أنتيوخس كان شديد التمسك بفلسفة الأكاديمية القديمة ضد الاتجاهات الشكوكية المتزايدة في الأكاديمية المتوسطة والحديثة، فيما يتعلق

بنظرية المعرفة. بموقفه هذا حافظ أنتيوخس على تقسيم أفلاطون الثلاثي للفلسفة الى منطق (اي نظرية المعرفة أو ابستيمولوجي)، وطبيعة، وأخلاق. وكذلك أخذ بالتصور الثلاثي للأخلاق، بالتأكيد على أن غاية الفضائل (finis bonorum) هو بلوغ « التوافق التام مع الطبيعة في العقل والجسم والحياة ».[٦١] وعلى سبيل بعث شيء من الحيوية في سياق الحوار يجعل ششرون المتحدث الرئيسي لوكوللوس Lucullus يروي من ذاكرته مناسبة يفترض حدوثها في الاسكندرية وأنه شهدها بنفسه أثناء اقامته بالمدينة. فيقول « عند ما كنت مكلفا بعمل الكويستور في الاسكندرية، كان انتيوخس من جلسائي... وحدث أن وصل الى الاسكندرية كتابان من عمل فيلون (من فلاسفة الأكاديمية الحديثة في أثينا) وتم تسليمهما لأنتيوخس، ولم يكن له بهما علم سابق، عندئذ ـ رغم انه بالفطرة من أكثر الناس رقة ـ أخذت تبدو علية بوادر الغضب، ولم يتمالك نفسه من أن يضع كتابا ضد استاذه ».[٦٢]

خاصية أخرى عرفت بها فلسفة انتيوخس هي الانتقائية eclecticism فرغم أنه يعتبر نفسه أكاديميا، فقد كان حريصا على تجميع وتأكيد أوجه الشبه بين أفلاطون وارسطو. ومن العبارات التي أثرت عنه قوله « ابتداء من افلاطون... تأسست فلسفة، لها تسميتان ولكنها في الحقيقة نسق فكري موحد، وهو نسق المدرستين الأكاديمية والمشائية، فبينما تتفقان في الفكرة الأساسية تختلفان في الاسم. »[٦٣] وقد تضمن هذا الاتجاه الانتقائي أيضا عناصر معينة من الرواقية مثل الأخلاق، المشاركة الانسانية، حلول العقل الكلي في الطبيعة.[٦٤] وكان لهذا المزج بين الفلسفات الثلاث الكبرى نتائج شديدة التأثير على تطور الأفلاطونية الحديثة،[٦٥] وكذلك على فهم العرب لفلسفة ارسطو فيما بعد.[٦٦]

وقد واصل من بعده عملية المزج الفلسفي أريوس ديديموس Arius Didymus وهو مواطن اسكندري، تعلم وعلم في أثينا ويعد من بين تلاميذه الامبراطور اغسطس، الذي اتخذه مستشاره الروحي، وعامله باحترام بالغ. أما في مجال الفلسفة، فترتكز

شهرته على تأليفه « مجملا » (epitome) بالمدارس الفلسفية الرئيسية : المشائية والاكاديمية والرواقية والابيقورية. وقد بقيت لنا أجزاء من عمله عن الأخلاق المشائية والرواقية مقتبسة في مؤلف من القرن الخامس.(٦٧)

كان لاختلاط العقائد الدينية ونمو الانتقائية في الفلسفة تأثير شديد على كثير من ذوي المشاعر الدينية المرهفة والعقول الحساسة في الامبراطورية الرومانية بصفة عامة. أما في الاسكندرية فيمكن أن نلحظ رد الفعل في ظاهرتين · الأولى نمت في الفكر الديني اليهودي ثم المسيحي فيما بعد، والثانية نمت في الفكر الوثني الفلسفي. يعتبر فيلون اليهودي (توفي حوالي ٤٠ م.) المفكر الرائد للمدرسة اليهودية المسيحية، فقد كان شديد الايمان بالكتاب المقدس وفي الوقت نفسه تلميذا شديد الاعجاب بالفلسفة اليونانية. كما كانت قد تطورت في الاسكندرية على أيامه. ومع ذلك فقد كان فزعا لما حدث لشباب اليهود المثقفين من انجذاب نحو المدارس الفلسفية واعراض عن اليهودية. ومن أجل مقاومة هذا الاتجاه اتبع منهجا جديدا بتفسير العقيدة اليهودية فلسفيا. ونجده في محاولته هذه يعتمد على المنهج الانتقائي الشائع، ويأخذ ما يناسبه من المدارس الفلسفية المختلفة، ولكن مادته الأساسية استمدها من مزيج اسكندري من الافلاطونية والرواقية، كان قد تبلور قبله بقرن من الزمان على يدي أنتيوخس. ويتمثل ذلك بوضوح في فكرته عن الله، التي تأثر فيها بالنظرية الرواقية من الفيض أو الانتشار الالهي (Logos) الذي يسري في الكون، فاتخذها فيلون نموذجا يقيس عليه. فنجده مثلا يذهب الى أن جهد الفضيلة هو بلوغ « الحكمة الالهية » التي يمكن الحصول عليها عندما نتجاوز جميع صلاتنا الأرضية الفانية، وفي حالة من الانجذاب الروحي نستقبل الانارة العلوية داخلنا. هذه الانارة يحدثها الفيض الصادر عن الروح القدسي غير المرئي، ومن القوة الكونية التي تصدر عن الله الى الانسان. بهذا الاسلوب من التفكير تحرك فيلون مبتعدا من الفلسفة الى التصوف.(٦٨)

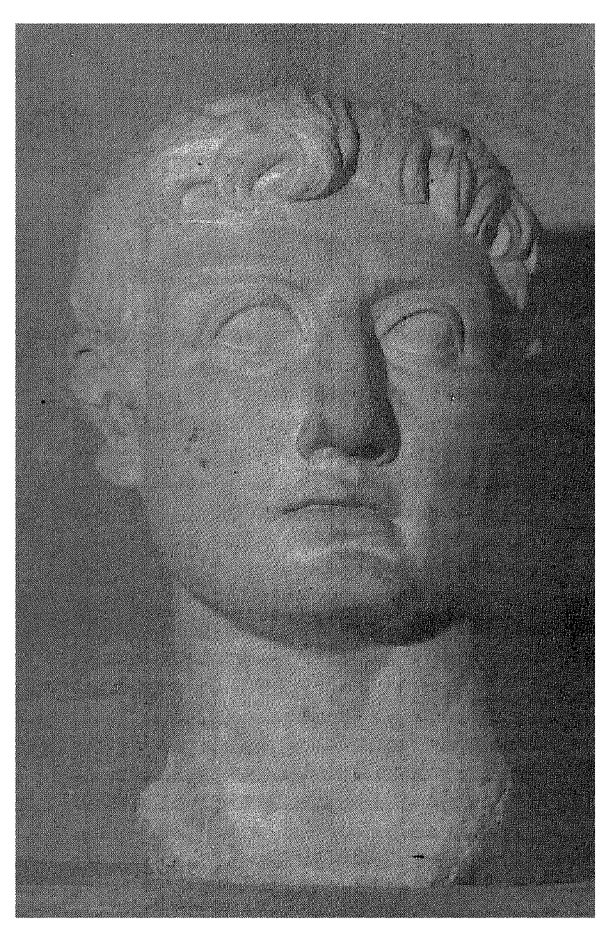
ولم يدّع فيلون أنه فيلسوف، بل أعلن أنه مجرد مفسر للكتاب المقدس. ولا بد أنه اصطدم بعقبات كثيرة عند تطبيق مجموعة أفكاره المجردة على النص الحرفي للعهد القديم، وحتى يتغلب على هذه العقبات افاد كذلك من الرمزية الرواقية المعروفة في تفسيرهم للشعر. ومرة ثانية نجده يدفع التفسير الرمزي للكتاب المقدس الى أقصى حدوده ليمنح أية عبارة معنى ما.(٦٩)

وعلى ذلك لم يكن اسهامه الرئيسي في مجال الفلسفة، ولكن في دراسة اللاهوت اليهودي والمسيحي أيضا. ولم يكد القرن الثاني يشرف على نهايته حتى كانت المسيحية قد نمت الى حركة قوية؛ شعرت الامبراطورية الرومانية بخطورتها. فكان لها معلموها ومدرستها في تحد سافر للموسيون والمدرسة الفلسفية المرتبطة به. ومن أوائل علمائها أوريجينس (١٨٥ - ٢٥٢) الذي خلف كليمنس الاسكندري في منصب رئيس المدرسة المسيحية. وهو معاصر أكبر سناً للفيلسوف افلوطين ويبدو أنه وقع تحت تأثير تعاليم الفلسفة والغنوسية التي كانت شائعة في الاسكندرية في ذلك الوقت، ولكن دون أن يتطرف في تيارها التجريدي. ولذلك نجده في دراسة الكتاب المقدس يأخذ بمنهج اسكندري صميم وهو منهج نقد وتحقيق النصوص. ففي دراسة العهد القديم يقوم بمقارنة النص العبري مع أربع تراجم يونانية، كانت السبعينية واحدة منها. ثم اتبع ذلك بدراسة للعهد الجديد. وتُظهر تعليقاته علمه الوفير واطلاعه الواسع على أعمال سابقيه. وقد أقام تفسيره على الاعتقاد بأن للكتاب المقدس ثلاثة معان : حرفي وأخلاقي وروحاني، التي شبهها بالجسد والعقل والروح.(٧٠) وتذكرنا المعاني الثلاثة بثلاثية الوجود عند الأفلاطونية الحديثة أو التقسيم الثلاثي للفلسفة الى طبيعة وأخلاق ومنطق. ونجده عند تفسير المعنى الروحاني يلجأ الى المنهج الرمزي للتفسير المعروف في الرواقية.(٧١) وسرعان ما عمت شهرته الحركة المسيحية بأسرها، وكثيرا ما لجأوا اليه للفصل في ما كان ينشب بين المسيحيين من خلاف ديني.(٧٢) وفي عام ٢٣٠ نصّب

أوريجينيس رئيسا لكنيسة قيسارية بفلسطين حيث استأنف دراسته وتعليمه حتى نهاية حياته.

وقد اختلفت ردود الفعل بين المسيحيين في مصر بالنسبة لاتجاهه الى التفسير الرمزي. فنجد نيبوس، وهو مصري معاصر له، شغل منصب أسقف الفيوم، يكتب نقدا عنيفا « ضد الرمزيين »، مؤكدا تفضيله للتفسير الحرفي للكتاب المقدس. في حين وجدنا ديونيسيوس، وهو اسقف آخر للاسكندرية أكثر ثقافة من (توفي ٤/ ٢٦٥) يقتفي أثر أوريجينيس في المحافظة على موقف متوازن بين الاتجاهين الرمزي والنقدي في دراسته عن « سفر الرؤيا ».(٧٣)

على أن الاهتمام بالقضايا الدينية الأساسية لم يكن قاصرا على اليهود والمسيحيين وحدهم، فمن الجلي أنها سيطرت على البيئة الفكرية بأسرها. فتحت تأثير الاتجاهات الدينية التوحيدية، نمت حركة جديدة مستقلة، عرفت باسم الغنوسية، وقد تميزت بنشاط ملحوظ طيلة القرون الثلاثة الأولى من الامبراطورية، حتى أصبحت تمثل تحديا لجميع الأديان الأخرى. فوقفت موقفا رافضا من الديانات الوثنية التقليدية، كما رفضت مبدأ الوحي الذي اقترن بالأديان التوحيدية. وكلمة غنوسية مشتقة من لفظة يونانية بمعنى « أعرف » أو « أدرك »، وهي نوع من الفلسفة الدينية تقبل الاعتقاد بوجود كائن مقدس علوي، وتقوم على أساس الادراك التصوفي لذلك الكائن. فقد كانوا يعتقدون أن حصول المعرفة الحقيقية، وهي معرفة الله والكون، منحة من الله، يمكن الفوز بها عن طريق تدريبات روحانية من نوع خاص وتأمل متصل.(٧٤) ورغم ما فيها من جاذبية للأفراد ذوي الميل الى حياة التأمل، بقيت الغنوسية في نظر عامة الناس غامضة وسلبية، فقد كانت تفتقر الى القوة الايجابية التي تستثير حماس الجماهير. ولم يكن غريبا أن تحول الغنوسيون تدريجيا الى نساك مسيحيين. كما أنها فشلت في أن تجتذب العقول الأكثر ثقافة وتعقيدا، لأنها كانت تفتقر الى الصرامة والدقة العقلية اللازمة لمنهج فلسفي متسق.



راس يوليوس قيصر - رخام

اما الاستجابة الفلسفية الكاملة للموقف الديني، فقد تمثلت في الافلاطونية الحديثة، آخر مرحلة في تاريخ الفلسفة القديمة. وقد نمت هذه المدرسة الفكرية من التفكير الانتقائي الذي بلغ ذروته في القرن الثالث على يدي افلوطين أعظم أعلام مدرسة الاسكندرية الفلسفية. ولد افلوطين في أسيوط (ليكوبوليس) بصعيد مصر، ودرس مع أوريجينيس على يدي أمونيوس السقا Ammonius Sakkas معلم الفلسفة الأفلاطونية الشهير في الاسكندرية، في الفترة ٢٣٢ – ٢٤٣. ومع ادراكه وحساسيته المرهفة للتيارات الدينية المتعددة التي تجمعت وتصارعت في المدينة العالمية من حوله، نذر نفسه للتصدي لمهمة قاسية مستعصية، وهي صياغة نسق فلسفي يحتوي تعقيدات القضية الدينية الفلسفية برمتها، كما كانت قد تطورت في القرن الثالث. وقد شعر بضرورة أن يؤهل نفسه عقليا ونفسيا تأهيلا كافيا لهذه المهمة. فبالاضافة الى التعليم الذي حصله في مصر والاسكندرية، التحق بحملة رومانية ٢٤٣ الى فارس، حيث تعرف مباشرة على جانب من الحكمة الفارسية والهندية. وبعد أن فشلت الحملة أسرع بالعودة الى انطاكية أولا، ومنها الى روما في ٢٤٥، حيث أسس مدرسة له، وأقام يعلم بها حتى وفاته في ٢٧٠. وقد أكد لنا تلميذه وكاتب سيرته بورفيريوس أن ما تفرد به أفلوطين من تمام الاستقامة والتواضع والتطهر والتنسك خلّف أثرا باقيا في تلاميذه ومريديه.(٧٥)

وفي بناء تعاليمه، اعتمد أساسا على افلوطين (وخاصة محاورة تيمايوس) والفيثاغورية الحديثة، ومع ذلك فهناك عناصر متعددة مستمدة من الفلسفات المختلفة السابقة اشتملت عليها فلسفته المتسقة المتكاملة رغم تعقيدها الشديد. ومن حسن الحظ أن قدرا كبيرا من تعاليمه وصلت الينا بفضل تلميذه بورفيريوس (٢٣٣ – ٣٠٥ تقريبا) فيما عرف باسم « التساعيات » Enneades وهي عبارة عن ست مجموعات من تسعة كتب. وتقود فلسفة افلوطين في أبسط صورها على فكرة الثنائية والمقابلة الكاملة بين العقل والمادة، بين العقليات والحسيات، او عالم

ما وراء الحس وعالم الظواهر. وفيما وراء الحس يوجد الله، مصدر الوجود كله، فهو « الأول »، والواحد المطلق، غير محدود وغير منقسم. ومن « الأول » ينبع الفكر والروح، فكل منها له حياة إبدية ولا يحده زمان.(٧٦)

وبعكس عالم ما وراء الحس، نجد في عالم الحس الأشياء منقسمة ومتغيرة، وهي أيضا شر، الشر الأولي. ورغم ذلك، فلا بد من وجود المادة، فيجب للعقل أن يصير مادة ويجب على الروح أن توجِدَ الجسم ليكون مأوى لها. ولكن نظرا لأن الروح هي التي تشكلها وجدنا طبيعة الأشياء من الجمال والكمال بقدر ما تسمح المادة. وهكذا نجد مادة شريرة ومادة غير شريرة.(٧٧) ولذلك يستنكر أفلوطين احتقار الغنوسيين المسيحيين للطبيعة.(٧٨)

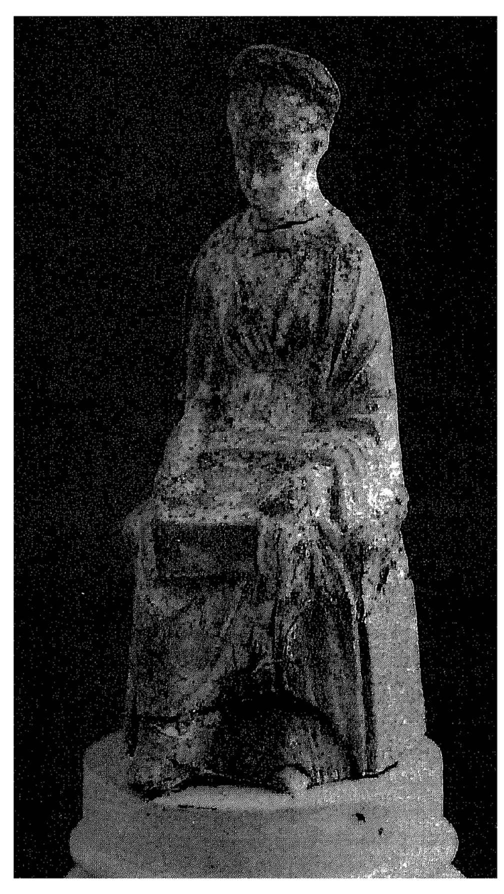
وأخيرا نصل الى فكرة الاتحاد القدسي (التصوّفي) unio mystica. فنظرا لأن الروح تنتمي بالطبيعة الى عالم علوي، فان غاية هدفها هو أن تحرر ذاتها من الميل نحو ما هو حسي. ولذلك تتمثل السعادة في نظر أفلوطين في الحياة الفاضلة، التي تتمثل بدورها في الفكر. وبعبارة أخرى، الشرط الأول للروح هو أن تحرر ذاتها من الجسم وكل ما يتصل به، وهو ما يسميه التطهر Katharsis. وأخيرا نبلغ الغاية العليا فقط حينما نكون في غمرة من أنفسنا، وحين نسمو فوق الفكر في حالة من اللاشعور، من الانجذاب والبساطة الكاملة، وفجأة يملأنا النور الالهي، ونصير الى وحدة مباشرة مع الموجود الأول، حتى لتزول جميع الفوارق بيننا وبينه. وهنا كان أفلوطين قادرا على أن يتكلم من خبرة شخصية، فقد أثبت بورفيريوس في سيرته، أنه عرف حالة الاتحاد القدسي أربع مرات على الأقل.(٧٩)

لقد أغفلنا في هذا العرض السابق كثيرا من المشاكل في فلسفة أفلوطين، وبعضها على الأقل ناشىء من عدم قدرتنا على أن نفهم طريقته في التفكير. فان اعتقاده القوي في « الواحد المطلق »، كما أن ادعاءه الاتحاد الالهي، كثيرا ما يجعلنا ننسى أنه كان ينتمي الى عالم وثني، وأنه كان يقبل ايضا وجود آلهة أقل، حتى أنه كان يوجه اللوم لأولئك الذين ينكرون ما يستحقونه من

اجلال. ومع ذلك فلم يكن يذهب الى المعبد، « فعلى الآلهة أن تأتي الي، وليس أن أذهب انا اليها. »[٨٠]

لعل من المناسب أن ننهي هذا الفصل بموضوع لا يخلو من طرافة، كما أن أي عرض للحياة العلمية لا يكتمل دون كلمة عن حياة التلاميذ في مركز عظيم من مراكز التعليم مثل الاسكندرية. ولقد سبق أن لاحظنا أن التلاميذ حضروا الى الاسكندرية من داخل مصر ومن خارجها ليتعلموا على أيدي كبار علمائها. وبالنسبة للجانب الاجتماعي من الحياة الجامعية، لدينا وصف ممتع بيد أحد التلاميذ. وهو عبارة عن خطاب كتبه تلميذ بالاسكندرية يسمى نيلوس الى والده في البهنسا (أوكيرنخوس) بصعيد مصر، وقد بقي الخطاب ضمن برديات هذه المدينة، ويرجع الى نهاية القرن الاول الميلادي.[٨١] ويميل تلميذنا نيلوس ـ لحسن الحظ ـ الى الافاضة في الكلام، ولا يتردد في ابداء آرائه بصراحة. فبالنسبة للمستوى الأكاديمي بالجامعة، نجده يشير الى النقص في أعضاء هيئة التدريس، ويعلن انخفاض مستوى بعض الأساتذة، لدرجة أنه قرر « فضلا عن تكبد مصاريف باهظة بلا جدوى، فلا فائدة تجنى من المدرس، فأنا أعتمد على نفسي ». ويقول عن مدرس يسمى « ديديموس، « ومما يبعث اليأس في نفسي، أن هذا الشخص الذي كان مجرد مدرس في الريف، يظن نفسه أهلا لأن ينافس الآخرين ». ومع ذلك فلم يكن الجميع بهذا السوء، فهناك قلة مثل بوسيدونيوس، اعتقد نيلوس أنه يستفيد من الاستماع اليهم.

وعن حياته الشخصية، فيخبرنا أن أخاه الأصغر ديوجاس قد لحق به في الاسكندرية، وانهما ينويان الانتقال الى غرف أكثر اتساعا في بيت خاص، لأن الغرف التي كانا يقيمان بها صغيرة. أما عن نفقات معيشته، فيبدو أنه كان يعتمد في جزء منها على ما كان يكسبه عبد له يسمى هيراكلاس، الذي كان يؤجر للعمل خارج البيت ويحقق دخلا يوميا. وفي ذات يوم كان هيراكلاس قد سجن ثم فر من السجن. وبالنسبة للطعام، فان الأخوين كانا



فتاة تجلس ممسكة بكتاب - تمثال صغير من مجموعة التناجرا - فخار
(النصف الأول من القرن الثالث ق.م.)

يتلقيان امدادات من المواد التموينية من الأسرة، ويذكر نيلوس في خطابه وصول دفعة منها.

وفي الفترة المسيحية، تبوأت الاسكندرية مكانا رائدا في الدين الجديد وقد سبق أن ذكرنا كيف استطاعت المدرسة المسيحية الجديدة أن تكتسب بسرعة شهرة عالمية بفضل أساتذتها المرموقين من أمثال كليمنس وأوريجينيس. ولم يعن ذلك اختفاء المدرسة الوثنية القديمة فجأة، ولكن بالعكس وجدنا منافسة حادة تحتدم بينهما، بينما استمر التلاميذ يفدون الى الاسكندرية للالتحاق بالمدرستين معا. أحد أولئك التلاميذ الأجانب الذين جاءوا الى الاسكندرية قرب نهاية القرن الخامس سيفيروس الانطاكي، ولم يكن قد تم تعميده بعد، لدراسة « الانسانيات »، أي العلوم الوثنية. ومن بين رفاقه من التلاميذ الذين اكتسب صداقتهم، نعرف كاتب سيرته زكريا الغزاوي واستاذ البلاغة توماس الغزاوي، وزينودوتوس من جزيرة ليسبوس، وبراليوس من كاريا (بآسيا الصغرى). ويروي لنا زكريا في سيرته العجيبة عن سيفيروس، قصة مثيرة عن مدى ما كان حادثا من انقسام بين الأساتذة والتلاميذ بين المدرستين الوثنية والمسيحية، وكيف أن معركة نشبت بين الطلبة من الجانبين، عندما أعلن براليوس اعتناقه للمسيحية [٨٢]

هناك ظاهرة أخرى لها دلالتها في الوسط الأكاديمي بالاسكندرية في ذلك الوقت، وهي أن كثيرين من المصريين الذين جاؤوا للدراسة، انتهى بهم الأمر الى الالتحاق بهيئة التدريس. ويمكننا أن نستشهد على ذلك « بالفيلسوف » حورابوللون، رئيس المدرسة الوثنية، الذي كان تلاميذه مسؤولين عن المعركة التي نشبت حول براليوس. وكان قد جاء أصلا من صعيد مصر، وقد سبقه أكثر من واحد من أفراد اسرته في الذهاب الى الاسكندرية في طلب العلم. فمهنة التعليم، مثل غيرها من المهن في مصر البيزنطية، غلب عليها أن تكون وراثية أحيانا، ويذكر حورابوللون في احدى البرديات، بشيء من الاعتزاز، انه يقتفي أثر جدوده في المهنة، وأن والده كان من قبله استاذا بالاسكندرية.

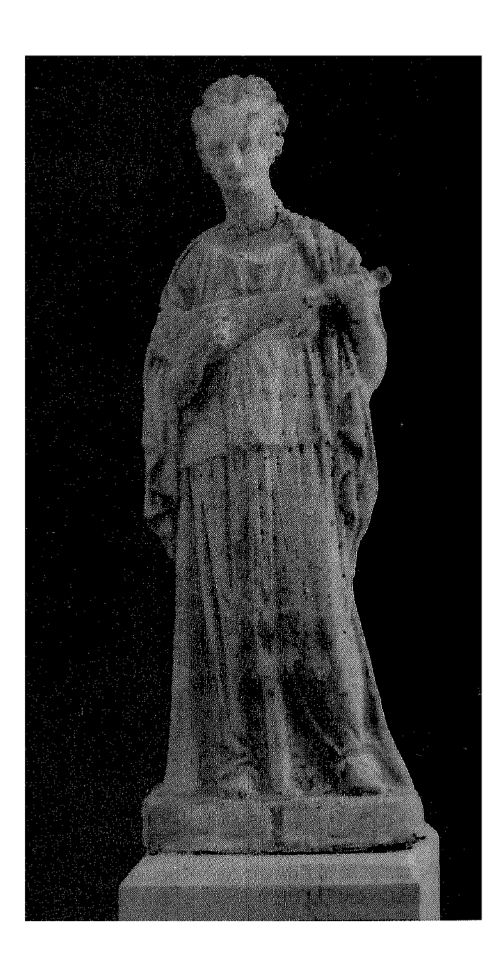
نعرف من مصادر اخرى أن أفرادا آخرين من اسرته سبق أن مارسوا مهنة التعليم بالمدينة (٨٣)

وكما نجد اليوم تلاميذ الجامعات الكبرى الحديثة يفتخرون بجامعاتهم، كذلك وجدنا تلاميذ الاسكندرية القديمة يظهرون اعتزازهم بانتمائهم اليها ويبدو واضحا أنه كانت هناك منافسة بين تلاميذ المدارس المختلفة، وكانت لا تزال المنافسة الرئيسية للاسكندرية هي اثينا، التي كان لا يزال تلاميذها يفتخرون بأنهم ينتمون للمؤسسات التي علّم بها في الماضي افلاطون وارسطو ونلحظ درجة متميزة من هذا الشعور بالغيرة في واحد من أمتع الخطابات التي كتبها سينيسيوس أسقف قورينة (برقة) عاش سينيسيوس في الأيام العصيبة بين نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس، حين تعرضت الوثنية للاضطهاد بشتى السبل وفي شبابه حضر الى الاسكندرية حيث حظي بالتعلّم على يدي الفيلسوفة الوثنية والشهيدة هيباتيا، التي كان يكن لها كل اجلال واعجاب وتميز سينيسيوس بأنه رجل ذكي مع بساطة الشخصية، وأنه حسن المعاملة، ثابت الصداقة. وفي فترة لاحقة في حياته، بعد أن أصبح اسقفا لبرقة، مر بمحنة شخصية دفعته للرحلة الى اثينا ـ مما أثار في نفسه ذكريات الدراسة في الاسكندرية، وسجل مشاعره تلك في خطاب الى أخيه بهذه الكلمات

« وسوف لا يقتصر مغنمي من هذه الرحلة على الفرار مما اعاني من آلام هذه الأيام، ولكن أيضا سوف أريح النفس من الاعتراف بتفوق أولئك الذين يعودون الينا من أثينا. فهم لا يختلفون في شيء عنا نحن البشر العاديين، فهم لا يفهمون أفلاطون وأرسطو أفضل مما نفهمهما. ومع ذلك فهم يسيرون بيننا وكأنهم أنصاف آلهة بين دواب، لكونهم قد رأوا الأكاديمية واللقيون والرواق الفاخر الذي حاضر فيه زينون عن الفلسفة. على أي حال لم يعد الرواق الفاخر يستحق اسمه، لأن البروقنصل



تمثالان صغيران من مجموعة التناجرا. فتاة تعزف على قيثارة .
(النصف الأول من القرن الثالث ق.م.)



الروماني قد انتزع منه جميع تماثيله، وبذلك امتهن ما يدعيه هؤلاء الناس من معرفة ».[٨٤]

وفي خطاب آخر يقول، « لم يعد هناك ما يميز أثينا من معالم المجدسوى الأسماء القديمة، .. فاليوم تزخر مصر وتجتني ثمار الحكمة من هيباتيا. كانت أثينا في ماضي الزمان موطن الحكماء. أما الآن فالنحالون هم مصدر مجدها ».[٨٥]

هناك ملاحظة أخيرة تتضح من ثنايا العرض السابق، وهي ظاهرة الطابع الدولي للحياة العلمية في الاسكندرية طيلة تاريخها القديم. فمنذ بداية القرن الثالث ق.م. نجد فيضا من العلماء ورجال الأدب الناطقين باليونانية يتدفقون على المدينة، وقد سبق ذكر كثيرين منهم أعلاه. الى جانب هؤلاء الأجانب الذين وفدوا واستقروا بالاسكندرية، نجد المدينة ـ منذ تاريخ مبكر ـ تقدم مجموعة من العلماء الأفذاذ من بين أبنائها الذين ولدوا بها، يكفي أن نذكر من هؤلاء اقليدس، وأبوللونيوس الرودسي الذي نسب الى منفاه، وكتيسبيوس مصمم الساعة المائية، وسرابيون الطبيب التجريبي، وعددا من الأطباء من أسرة خريسيرموس اتباع هيروفيلوس : هؤلاء جميعا من أصل اسكندري.

وربما كان من الصعوبة أن نتتبع المشاركة المصرية، نظرا لأننا نعتمد في معلوماتنا على مصادر يونانية بدرجة عالية، ومع ذلك فهي في وفرتها تساعدنا على اكمال الصورة ولعل مانيتون اول اسم يخطر على أذهاننا لمصري التحق بصفوف اعضاء الموسيون في مطلع القرن الثالث ق.م.، وهناك أيضا فالو الطبيب المصري الذي سبق أن ذكرنا أنه كانت له مصحة تعليمية في الاسكندرية أثناء القرن الثاني ق.م. ومع ذلك فقد يكون السبب في ندرة الأسماء المصرية الخالصة في الأجيال اللاحقة هو زيادة الاتجاه نحو اتخاذ أسماء يونانية بين الأسر المصرية التي اصطبغت بالصبغة الهللينية. هذا بالاضافة الى انعدام وجود الوثائق الديموطيقية أو القبطية من المدينة. ولكنا نجد في العصر الروماني عددا من العلماء البارزين على الأقل جاؤوا أصلا من صعيد مصر، مثل كلوديوس بطليموس وأفلوطين وحورابوللون

وغيرهم ولقد أبدى استرابون اعجابا خاصا بهذا الطابع الدولي للحياة الأكاديمية في الاسكندرية. حين فضلها على غيرها من مراكز التعليم في عصره، فقال « وتوجد الظاهرتان في الاسكندرية، فهم يستقبلون كثيرين من الأجانب، ويوفدون أعدادا غير قليلة من رجالهم لاستكمال تعليمهم بالخارج ».[٨٦] وواضح أن هذه الملاحظة تصدق على المدينة في تاريخها القديم كله فان مجرد وجود بيئة علمية دولية التكوين في مكان واحد، وقدرتها على أن تعمل بكفاءة، يسرت امكانية التبادل الطبيعي بين خبرات علمية ذات أصول متعددة، ولعلها تفسر أيضا جانبا كبيرا من أصالة الانجازات العلمية للاسكندرية القديمة.

الباب الثالث

النهاية

الفصل الخامس

مصير المكتبة والموسيون

التساؤل عن مصير الثروة الفذة من الكتب كما تجمعت في مكتبات الاسكندرية القديمة، سؤال حديث، ولم يشغل به القدماء ولكن منذ القرن الثامن عشر والمؤرخون ينقسمون بشأنه أشد الانقسام.[1]

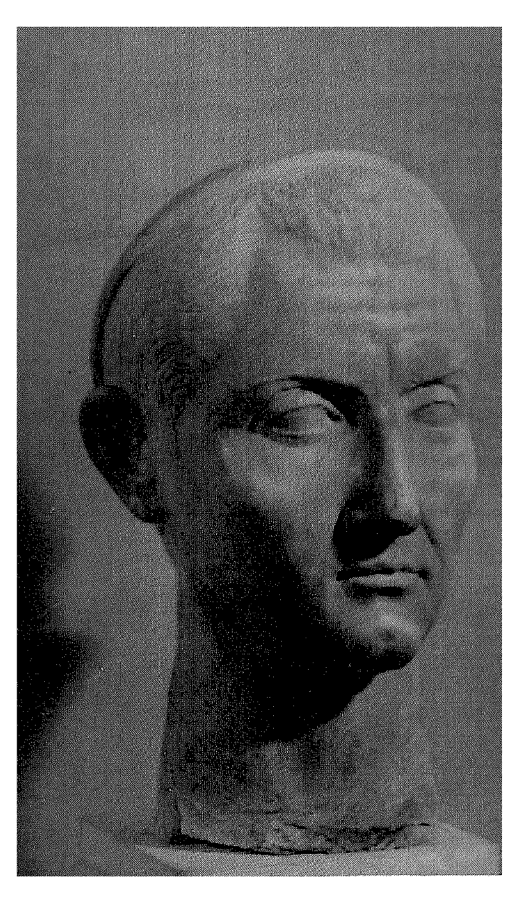
ولعل من المناسب أن نكون أكثر تحديدا بشأن هذا السؤال، اذ ليس ثمة خلاف في انها دمرت أو اندثرت قديما، ولكن التساؤل يدور حول كيفية هذا الاندثار، ومتى حدث ؟ وبعبارة أخرى يدور الخلاف حول، هل بقيت المكتبة أو المكتبات الى القرن السابع الميلادي حين فتح العرب مصر، أو أنها اندثرت قبل ذلك ؟[2] وقبل التطرق الى الاجابة، لا بد أن نكون مدركين ان الشواهد التاريخية بين أيدينا حتى الآن، ليست حاسمة بذاتها، ولذلك تعتمد المواقف أو الآراء بدرجة عالية على نهج الأفراد في تحليل النصوص الأصلية ضمن سياقها العام، وبلغاتها الأصلية. ونظرا لتعدد اللغات اللازمة، وخاصة اليونانية واللاتينية والعربية، وجدنا الدارسين الحديثين ـ باستثناء مثال متميز وهو أ.ج. بتلر في مطلع القرن العشرين ـ يعتمدون مرارا على تراجم، وخاصة في حالة النصوص العزبية. ولا زال هذا هو الموقف بالنسبة لأحدث مؤلف في الموضوع كتبه لوتتسيانو كانفورا.[3] بسبب هذا الموقف، سوف يكون منهجي فيما يلي هو تقديم الشواهد النصية اللازمة مع بيان السياق التاريخي في كل حالة، آملا بذلك أن ازيل شيئا من الغموض الذي علق بشأنها.

وسوف تتركز المناقشة حول ثلاثة أحداث أساسية، وهي حرب الاسكندرية في ٤٨ ق.م.، وتدمير معبد السرابيون في ٣٩١ م، وفتح العرب لمصر في ٦٤٢ م.

حرب الاسكندرية :

في بعض مراحل الحرب الأهلية الرومانية، اندفع قيصر وراء بومبيوس الى مصر في ٤٨ ق.م.، وما ان وصل الاسكندرية حتى علم بمصرع بومبيوس أثناء نزوله الى الشاطىء عند بيلوزيوم (الفرما، قرب بور سعيد حاليا)، وبوجود حرب أهلية أخرى، مصرية بين الملكة كليوباترا وأخيها بطليموس الثالث عشر ولم يكن هناك بد من تورط قيصر في الأمر، فاتخذ جانب كليوباترا، كما هو معروف، ووجد نفسه مواجها بحرب مع أخيها الملك بطليموس ومصدرنا الرئيسي بشأن ما حدث في مرحلة مبكرة وحاسمة من الحرب، ما كتبه قيصر نفسه. فهو يشرح بأسلوبه السهل الواضح المألوف، مدى حرج موقفه، ففي البحر تفوق عليه عدوه في أعداد السفن، وفي البر حيل بين قواته وبين الحصول على ماء الشرب. ورأى قيصر، من وجهة نظر عسكرية محضة، أن الموقف في الجبهة البحرية أكثر خطورة، حيث انضمت خمسون سفينة حربية الى اسطول بطليموس، فمكنته من التحكم في الميناء والبحر، لأن قيصر بذلك يمكن أن يحرم سبيل الحصول على أي دعم يمكن أن يأتيه. ولذلك فرضت ظروف الموقف على قيصر أن يتحرك بسرعة. ويصف لنا ما حدث بقوله :

> « وهكذا دارت المعركة بكل العنف الذي لا بد أن يوجد، حينما يرى احد الجانبين في الأمر انتصارا سريعا، بينما يرى فيه الجانب الآخر نجاتهم. اما قيصر فقد أحرز النصر، فأحرق هذه السفن جميعا، وسائر السفن التي كانت في الترسانة البحرية، اذ لم يكن بامكانه حماية جبهة بهذا الاتساع بقوة صغيرة، وفي الحال أنزل جنوده الى جزيرة فاروس. »[44]

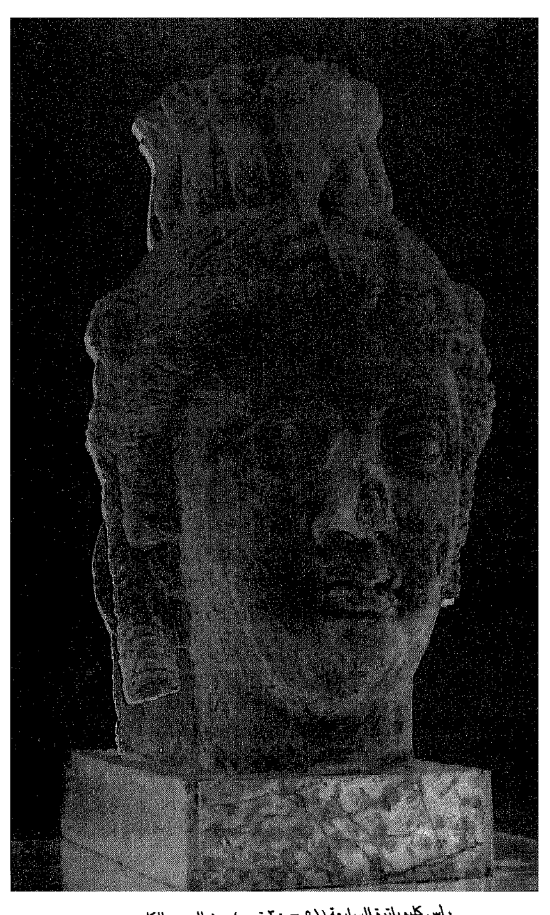


رأس يوليوس قيصر - رخام

من الواضح أن قيصر هنا قد اقتصر في حديثه على وصف الموقف العسكري ومتطلبات المعركة. ويتبين من تصويره أن الحريق كان ضرورة عسكرية ثبت نجاحها لأنها دمرت اسطول الأعداء ومكنت قيصر من احتلال فاروس والتمكن من السيطرة على مدخل الميناء، واستعاد حرية الاتصال بقواته الأساسية على الشاطىء الآخر من البحر المتوسط. ومع ذلك فيمكننا أن نستشف من نص قيصر في وصف خدعته الحربية لهجة الاعتذار، دون أن تكون هناك حاجة الى الاعتذار عن مجرد حرق سفن العدو. ولا نشك أن قيصر في وصفه للمعركة قد قال الحقيقة، ولكن هل قال الحقيقة الكاملة ؟ فمن الواضح أن قيصر قد التزم الصمت فيما يتعلق بآثار الحريق الأخرى في المدينة ذاتها، على غير عادته في تقديم تصوير شامل يغطي مسرح الحدث كله.

ولسوء الحظ لم يصلنا من كتاب المؤرخ ليفيوس الجزء الخاص بوصف حرب الاسكندرية، ولا ينبغي أن نتورط في تخمين ما يمكن أن يكون قد ذكره. ومهما يكن من أمر، فان مؤلفين لاحقين، منذ منتصف القرن الأول حتى القرن الخامس، يقدمون تفصيلات الكارثة التي أصابت المدينة، مما قد يفسر لهجة الاعتذار في كتابة قيصر. وبمقدار ما يمكننا أن نحكم مما لدينا من معلومات الى الآن، لم يجرؤ كاتب حتى الفترة الأخيرة من حكم أسرة يوليوس / كلوديوس على أن يذكر شيئا يزيد على أو يتعارض مع الخطوط العريضة لوصف قيصر. حتى أن قائده الذي قام عنه بكتابة « حرب الاسكندرية »، خطا باسلوب الاعتذار خطوة أبعد، فأكد أن مباني الاسكندرية تكاد تمتنع على الحريق، لأنها مبنية من الحجارة بدون دعائم خشبية، وحتى أسطح المباني مصنوعة من الحصى والحجارة. »[٤]

وأول اشارة الى حقيقة ما حدث ترجع الى عهد نيرون، آخر أباطرة الاسرة، في كتابات أعضاء من حزب السناتوس الذي كان معارضا للحكم الامبراطوري. فهناك أولا لوكانوس، مؤلف قصيدة ملحمية عن الحرب الأهلية، والذي اتهمه نيرون بالتآمر وأعدمه في ٦٥، فنجده في وصفه لمعركة الاسكندرية يقول « انتشر



رأس كليوباترة السابعة (٥١ – ٣٠ ق.م.)، من الحجر الكلسي.

الحريق وراء السفن الى أجزاء أخرى من المدينـة... فاشتعلت المباني المجاورة للبحر، واندفعت ألسنة اللهب فوق أسطح المباني في سرعة الشهب. »[٦] كما أن معاصرا آخر له، وهو الفيلسوف الرواقي سينيكا، كذلك أعدمه نيـرون في عام ٦٥، نجـده أكثر افصاحا فيقرر ببساطة ان أربعين ألف (والراجح الآن أربعمائة الف) كتاب احترقت أثناء حرب قيصر.[٧] ومع نهاية القرن الأول الميلادي، نجد بلوتارخس - في ظل أسرة أمبراطورية جـديدة - أكثر حرية في كتابة سيرة قيصر وأكثر تصريحا، فيقول « عندما أوشك العدو أن يشل اسطوله عن الحركة اضطر قيصر أن يدفع الخطر بالحريق، وانتشرت النار من الترسانة البحرية ودمـرت المكتبة الكبرى. »[٨]

لا جدال أن بلوتارخس قدم لنا أصرح عبارة فيمـا يتعلق بمصير المكتبة الكبرى التي كانت داخل منطقة القصور الملكية. ومن بعده نجد المؤرخين المتعاقبين - فيما بين القـرنين الثـاني والخامس - يكررون المعلومات السابقة مع تغييرات جزئية. فمثلا الكاتب أولوس جلليوس (من القرن الثاني) يذكر أن نحـوا من سبعمائة ألف كتاب « احترقت جميعها عندما دمرت المـدينة في حرب الاسكندرية الأولى، ليس عن قصد، ولا بأمر من أحد، ولكن حدث عرضا بواسطة الجنود من الاحتياطي ». وواضح أن لهجة الاعتذار هنا لا تحتاج الى تأكيد. وفي القرن الرابع فيما بعـد، يتحدث المؤرخ اميانوس مارقللينوس في لهجة تقريرية مباشرة عن « احتـراق مكتبة لا تقـدر بثمن، تضم سبعمـائـة ألف كتـاب - باجماع القدماء - أثناء حرب الاسكندرية عندما دمرت المدينة زمن الدكتاتور قيصر ». وأخيرا في القرن الخـامس يؤكـد النبأ المؤرخ أوروسيوس « أنه أثناء المعركة ذاتها صدر الأمر بحرق اسطول الملك، الذي كان قد رفع على الشاطىء، وعندما امتد ذلك الحريق الى جزء من المدينة أيضا، أتى على أربعمائة ألف كتاب مودعة في بناء كان قريبا، وكان شاهدا فريدا على اجتهاد ودأب أسلافنا، الذين جمعـوا هذا القـدر الهائـل من أعمال النبـوغ الرائعة ».[٩]

ورغم ذلك، لا زالت الآراء منقسمة بين الدارسين الحديثين فيما يتعلق بآثار الحريق. فهناك من يقبل حجة الأسانيد المتعددة التي سبق ذكرها بأن المكتبة الملكية احترقت أثناء حرب الاسكندرية. وهناك آخرون يتمسكون بحدود ما ذكر قيصر، حتى أنهم يتمسكون بصحة العبارة التي وردت في كتاب حرب الأسكندرية، بأن مباني المدينة كانت خالية من الاخشاب وانها لذلك ضد الحريق. وبناء على ذلك يذهبون الى أن بناء المكتبة كان غير قابل للحريق.[١٠] ومع ذلك فقد فاتهم أن مؤلف كتاب حرب الاسكندرية قد ناقض نفسه في هذا الشأن، دون أن يتنبه الى ذلك. فقد ذكر في فقرة لاحقة كيف أن الاسكندريين، عندما شرعوا في اعادة بناء اسطولهم، أعوزتهم المجاذيف، فخلعوا أسقف الأروقة ومعاهد التربية والمنشآت العامة، لاستخدام الواحها مجاذيف ».[١١] ويؤكد هذه الحقيقة عبارة لوكانوس السالفة الذكر، « ان النار اندفعت فوق الأسطح بسرعة الشهاب. »[١٢] فلا سبيل الى انكار استخدام الأخشاب على الأقل في بناء أسطح المنشآت العامة.

تعتبر شهادة بلوتارخس في هذه النقطة ذات أهمية خاصة، لأكثر من سبب، أولا لأنها تبين أنه كان على علم كامل برواية قيصر، حتى أنه يكاد يكرر ألفاظه، ومع ذلك فهو يستمر حيث توقف قيصر ويقول ان النار امتدت من ترسانة السفن ودمرت المكتبة الكبرى. ثانيا، كان لبلوتارخس معرفة وثيقة وشخصية بالاسكندرية، التي زارها بعد ان اكمل تعليمه في أثينا في ما يبدو.[١٣] وكان من أكثر أبناء عصره قراءة واطلاعا، ولا بد أنه زار الموسيون وعرف بنفسه أن « مكتبته الكبرى، لم يعد لها وجود منذ تدميرها في حرب قيصر ».

هناك نقطة أخرى لا بد من جلاء الغموض عنها، وهي عبارة المؤرخ ديون كاسيوس الذي كتب في بداية القرن الثالث. فيذكر أثناء عرضه لحرب الاسكندرية « ان أماكن كثيرة أصابتها النيران، ومن بين ما احترق تماما الترسانة البحرية (neorion)، وخزائن (apothecae) القمح والكتب، والتي يقال انها كانت

عظيمة القدر والقيمة. »[١٤] ومنشأ الغموض في هذه العبارة هو استخدامه كلمة apothecae في تعبيره « خزائن القمح والكتب »، فأخذت على أنها تعني بضاعة كانت معدة للتصدير، وليس لها علاقة بالمكتبة.[١٥] ولكن نظرا لأن ديون كاسيوس كان يكتب أكثر من ثلاثة قرون بعد الحادثة، فمن غير المتوقع أن مثار اهتمامه بضاعة مكدسة على أرصفة الميناء. وما ينبغي أن تشكل كلمة الخزائن « apothecae »، أية مشكلة، نظراً لورود استخدام مماثل للكلمة في كتابة جالينوس ويزيل عنها كل غموض، فهو يستخدمها بمعنى « مستودع الكتب » أي مكان تخزين الكتب في المكتبة الملكية. ففي وصفه لعملية تسجيل الكتب في الاسكندرية، يقول جالينوس « كان المتبع أن يقوم معاونو المكتبة بتسجيل اسم صاحب الكتاب، قبل أن تودع الكتب في خزائن apothecae ». ثم يعود الى مزيد من التفصيل في هذه العملية، فيقول كيف كان من عادتهم تكديس الكتب في بيوت معينة (لاستقبال الكتب) وبعد ذلك « تؤخذ ليتم استخدامها في المكتبات (bibliothecae).[١٦] وواضح من عبارة جالينوس أن « الخزائن، apothecae بمعنى أماكن تخزين الكتب للاستخدام، جزء أساسي من المكتبة ».

في ضوء هذا التفسير، يتضح أن ديون كاسيوس يتحدث عن مباني، وليس عن بضاعة. « فمن بين الأماكن الكثيرة التي احترقت »، يحدد ثلاثة مؤسسات كبرى لها أهميتها الحيوية للمدينة : الترسانة، وخزائن الغلال المشهورة، والمبنى المخصص « لخزائن الكتب ». ذلك « المبنى » الذي يقول أوروسيوس انه كان يقع قريبا من الميناء،[١٧] والذي قيل ان ليفيوس وصفه بأنه « صرح رائع الجمال » (pulcherrimum... monumentum).

نقطة أخيرة أثارت تساؤل وحيرة الدارسين الحديثين، وهو ما بدا لهم من صمت استرابون بشأن المكتبة، وهو أول كاتب زار المدينة بعد عقدين فقط من وفاة قيصر.[١٩] وكما نعرف من فصل سابق، كان استرابون وثيق المعرفة بالاسكندرية التي أقام بها أكثر من أربع سنوات (٢٤ – ٢٠ ق.م.)، واحتفظ لنا بأدق وصف بين أيدينا للاسكندرية القديمة . ميناؤها، المعابد، المسرح،

ضريح الاسكندر (السيما)، والموسيون، ولكنه لا يذكر المكتبة ضمن معالم المدينة. ولا بد أنه قرأ كثيرا من الكتب أثناء اقامته الطويلة بها، ولكن أين ؟ لا يخبرنا. فهل هي مؤامرة من الصمت، أو رقابة مفروضة بالنسبة لهذا الموضوع في عهد أسرة يوليوس/كلوديوس في روما ؟ من المحتمل أنها الثانية، لأن استرابون ليس صامتا بشأن المكتبة كما قيل مرارا حتى الآن. فهو يذكر المكتبة، ولكن في عبارة ملتوية، حتى أن دلالتها الكاملة لم تثر اهتمام الدارسين. في القسم الأول النظري من كتابه (الجغرافيا)، يستعرض استرابون وينتقد أعمال ومناهج الجغرافيين السابقين. ونجده يتخذ موقفا ناقدا بصفة عامة من اراتوسثنيس، الذي كان يعتبره استرابون رواقيا متمردا بسبب انحرافه عن الرواقية الأخلاقية المحافظة التي كان استرابون نفسه من أتباعها المتزمتين. ومع ذلك في نقطة معينة يغير استرابون من موقفه العام وينتصف لاراتوسثنيس ضد انتقادات هيبارخس، وهو جغرافي وفلكي من القرن الثاني ق.م.[٢٠] نقطة الخلاف بينهما تتعلق بقياس بعض المسافات بين أطراف المعمورة في ذلك الوقت، أي من مروى بالسودان الى بحر ايجة، ومن البلقان عبر السواحل النائية للبحرين الأسود وقزوين الى وسط آسيا، ومنها شرقا الى المحيط الهادي، أو جنوبا عبر جبال الهملايا الى جنوب الهند. يؤكد استرابون أن اراتوسثنيس عندما توصل الى هذه الحقائق استمد معلوماته من « بيانات كثيرة »، وبعد أن عدد نحو ستة من بيانات المكتشفين الأوائل، يخلص الى القول :

> « لأن أراتوسثنيس يعتمد في ذلك كله على معلومات مؤكدة بتقارير الرجال الذين ذهبوا الى هذه الأقاليم، لأنه قرأ كثيرا الدراسات التي كانت متوفرة له، اذ كان تحت يديه تلك المكتبة الهائلة التي يؤكد ضخامتها هيبارخس نفسه. »[٢١]

ليس هناك شك أن استرابون في هذه العبارة يشير الى المكتبة الكبرى بالاسكندرية. تتناول المناقشة في الفقرة السابقة علماء من ثلاثة قرون مختلفة، أراتوسثنيس من القرن الثالث، هيبارخس

من الثاني، واسترابون الذي كتب في الاسكندرية في الربع الأخير من القرن الأول ق.م. ومن البيِّن أن المكتبة الملكية لم تكن موجودة أثناء اقامة استرابون في الاسكندرية وأنه لم يتمكن من الاطلاع بنفسه على كثير من التقارير الجغرافية الأصلية. وتعبيرا عن هذا العجز، أحال قارئه الى هيبارخس الذي عاش في قرن سابق، باعتباره شاهدا على غنى المكتبة التي عمل بها أراتوسثنيس من قبل.

في ضوء هذا التفسير لعبارة استرابون المحكمة، بالاضافة الى عبارة بلوتارخس الصريحة، لا أعتقد أنه باستطاعتنا تجنب الاستنتاج بأن المكتبة الملكية لقيت مصيرها في ٤٨ ق.م.

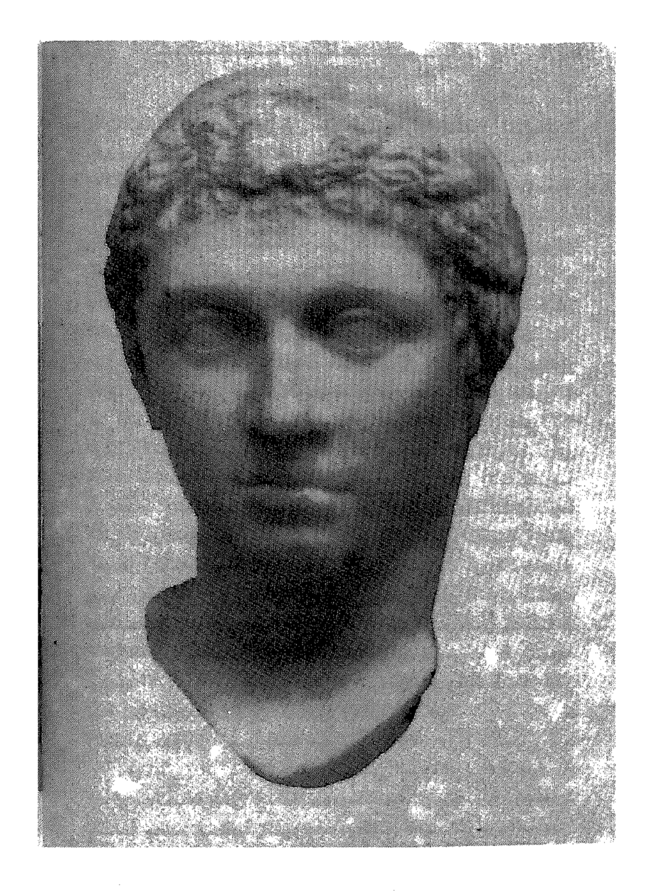
الموسيون .

منذ البداية كان الموسيون وثيق الصلة بالمكتبة الملكية. وفي فصل سابق اقترحنا أن المؤسستين شغلتا بنائين منفصلين، وأن كلا منهما كانت له ادارته وماليته الخاصة. وقد رأينا الآن أن بناء المكتبة كان أقرب الى البحر، ولذلك اشتعل مباشرة بالنيران في ٤٨ ق.م. أما الموسيون فقد نجا من الكارثة، وبعد أن الحقت مصر بسلطان روما، استمر متمتعا بحماية الأباطرة.[٢٢] ولا جدال أن فقد المكتبة كان جسيما، ونلحظ أثر ذلك على استرابون وهو يسرد في أسى تقارير المستكشفين الأصلية التي كانت موجودة في المكتبة وكان يعرفها كل من اراتوسثنيس وهيبارخس، ولم يعد لها وجود في عصره هو.[٢٣]

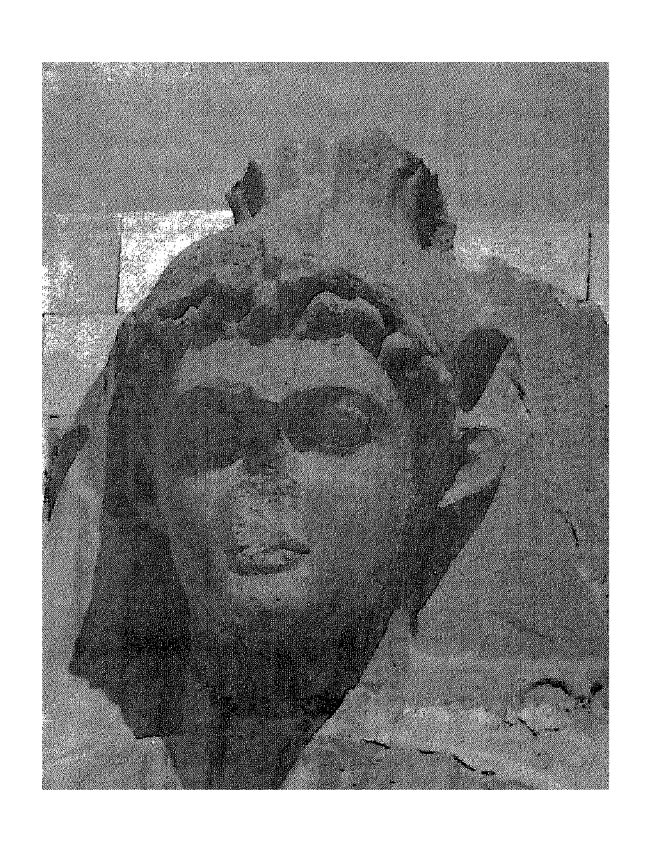
ومع ذلك فقد كانت الاسكندرية غنية في مكتبات أخرى، فلا بد ان بهو الموسيون ضم مجموعة لا بأس بها من الكتب؛ المكتبة الابنة، بقيت آمنة في مجمع السرابيون وأصبحت المكتبة الرئيسية في الاسكندرية في العصر الروماني؛ كذلك اشتمل معبد القيصريون على مكتبة معروفة.[٢٤] ويمكننا أن نضيف ما قيل عن مكتبة برغامون ذات المائتي ألف كتاب بأن انطونيوس أهداها الى كليوباترا، ربما على سبيل التعويض عن فقد المكتبة الملكية.[٢٥]

طيلة القرنين الأولين من العصر الروماني انتعش الموسيون واستعان بالمكتبات القائمة على مواصلة الحركة العلمية في الاسكندرية. ولكن مع بداية القرن الثالث أخذت ظروف الأزمة في الامبراطورية ترمي بظلالها القاتمة على الحياة في المدينة، وأصابتها بنوبات متعاقبة من الاضطهاد حينا والعدوان العسكري حينا آخر. وكثيرا ما تركزت هذه العمليات فيما يعرف بالبروخيون Brucheion وهو حي القصور الملكية، حيث كان الموسيون أيضا. ففي عام ٢١٥، بسبب ثورة حدثت بالمدينة، انتقم منها الامبراطور كراكلا بقتل كثيرين من شبابها، ولحق الموسيون من ذلك أذى، فأوقف تمويله، وألغى المنحة التموينية عن أعضائه، وطرد جميع الأجانب من أعضائه.[٢٦] وفي عام ٢٦٢ أرسل الامبراطور جاليينوس حملة للقضاء على وال كان قد ادعى الحكم لنفسه.[٢٧] وكذلك في ٢٧٢ بعد أن احتلت الاسكندرية زنوبيا ملكة تدمر، هاجمها الامبراطور أورليان، وانتهت المقاومة التي تركزت في الحي الملكي الى تدمير واسع الانتشار، حتى اضطر أعضاء الموسيون الى الفرار خارج البلاد أو الالتجاء الى معبد السرابيون في الحي الشعبي.[٢٨] وفي نهاية القرن الثالث، حدثت ثورة جديدة، فتصدى لها دقلديانوس وحضر بنفسه في ٢٩٨/٧، ونسمع عن قتل كثير من المواطنين بقسوة بالغة. ولم ينج من يد الامبراطور رجال العلم، فجمعت كتبهم وخاصة تلك التي تبحث في كيمياء تحويل المعادن، وأحرقت. بعد ذلك مباشرة بدأ الاضطهاد الأكبر ضد المسيحيين [٢٩]

في القرن الرابع كان كثير من حي البروخيون قد تحول الى خراب، ويصفه المؤرخ المعاصر، ماقلليانوس، بقوله : « فقدت المدينة معظم منطقة البروخيون التي كانت موطن النابهين من الرجال. »[٣٠] وفي نهاية القرن الرابع رأى القديس جيروم الحي الملكي وهو شبه مهجور بعد أن تجمع مركز النشاط للمدينة في الحي المصري حول السرابيون، وأصبح الحي الملكي « موقعا قرب الاسكندرية يسمى كوخيون (أي بروخيون) ».[٣١]



رأس كليوبترا السابعة (٥١ - ٣٠ ق.م.) - رخام. الأصل بمتحف الآثار القديمة
ببرلين. (Antikenmuseum SMPK)، تصوير إنجريد جسكه - هايدن
(Ingrid Geske-Heiden) قدمها المتحف مشكورا.



رأس انطونيو ـ من حجر الجرانيت.

كثيرا ما هددت احداث القرنين الثالث والرابع ما يلزم الموسيون من استقرار وأمان، ونتيجة لذلك لحق عمل العلماء ضرر كبير من غير شك. ولكن، رغم ذلك، استطاعت الاسكندرية أن تحتفظ لنفسها بمركز مرموق بين مراكز التعليم في البحر المتوسط. وقد سبق أن لاحظنا أنها احتفظت بجاذبيتها للطلبة الأجانب حتى النصف الثاني من القرن الرابع. ونجد فيما تبقى من تاريخ اميانوس، مارقللينوس ـ الذي يعتبر أهم مصدر عن الفترة ٣٥٢ – ٣٧٨ ـ وصفا لا يخلو من دلالة، للحياة العقلية في الاسكندرية في ذلك الوقت، فيقول :

« وحتى الآن للعلوم المختلفة صوت مسموع في هذه المدينة، فما زال أساتذة الآداب في درسهم دائبين، ووحدة القياس بيد المهندس تكشف عما خفي من العلم، وما نضِب تماما معين دراسة الموسيقى، ولا أُسكِت النغم، وهناك قلة لا زالت تبقى على دراسة حركات الأرض والأفلاك متقدة، والى جانبهم قلة أخرى تمارس العلم الذي يكشف عن مسيرة القدر. أما دراسة الطب... فهي تنمو في كل يوم اكثر واكثر... »[٣٢]

ونظرا لأن الموسيون كان في الوقت نفسه « معبد الربات »، فقد تمتع بدرجة من القدسية طالما لم تتعرض المعابد الوثنية الأخرى للأذى. وقد شاهد سينيسيوس القوريني ـ تلميذ هيباتيا ـ مبنى الموسيون ووصف تماثيل الآلهة التي كانت مقامة به حتى نهاية القرن الرابع.[٣٣] وليس لدينا اشارة بعد ذلك على استمرار وجوده في القرن الخامس: ولما كان تيون ـ العالم الرياضي المعروف ووالد هيباتيا، العالمة المرموقة أيضا ـ آخر من وصف بأنه عضو الموسيون (حوالي ٣٨٠)،[٣٤] فمن المحتمل أن الموسيون لم يبق كثيرا بعد اعلان قرار ثيودوسيوس في ٣٩١ بتدمير جميع المعابد الوثنية في المدينة.[٣٥]

تدمير السرابيون في ٣٩١ ميلادية :

بعد أن احترقت المكتبة الملكية في ٤٨ ق.م.، اصبحت المكتبة الابنة المكتبة الرئيسية في الاسكندرية. ونظرا لوقوعها ضمن مباني السرابيون، فقد استمرت مكفولة بالحماية الدينية طالما بقيت للمعابد الوثنية قدسيتها وأمنها. ولكن بعد اعلان المسيحية دينا رسميا في الامبراطورية، بدأت قدسية المعابد تتعرض للتهديد، وبلغ الموقف ذروة الخطر في عهد ثيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥) الذي شن حملة شاملة ضد الوثنية ومعابدها في انحاء الامبراطورية. وفي احدى مراحل تطبيق هذه السياسة، تمكن ثيوفيلوس - اسقف الاسكندرية المتعصب آنذاك - من الحصول على موافقة الامبراطور على تحويل معبد ديونيسوس الى كنيسة. وبسبب أساليبه المتطرفة عنفا، فزع كثير من الأهالي الذين كانوا ما زالوا وثنيين وحاولوا الالتجاء الى مجمع مباني السرابيون الضخم. فقد كان ضخم البناء فوق أرض مرتفعة اشبه بالحصن، وقد وصفه اكثر من مؤرخ باعتباره « قلعة الاسكندرية ».[٣٦]

وطلب ثيوفيلوس المساعدة من كل من والي مصر وقائد الحامية الرومانية بالمدينة، ولكنهما رفضا أن يقدما له ما طلب من مساعدة عسكرية لمهاجمة السرابيون دون موافقة صريحة من الامبراطور. وهو ما حدث فعلا، فأصدر الامبراطور ثيودوسيوس في ٣٩١ قرارا يبيح تدمير معابد الاسكندرية. واندفع ثيوفيلوس - مؤيدا بقرار الامبراطور - يقود جماعة من المتعصبين الى مدخل السرابيون، حيث قرأ القرار أمام جمهور سيطر عليه الفزع وفي نوبة من الذعر الشديد اندفعوا هاربين، بينما صعد ثيوفيلوس الدرج الى المعبد، وبنفسه سدد أول ضربة لتمثال العبادة للاله سرابيس، وفي حالة هستيرية حذا حذوه من تبعه من المتعصبين، عاثوا في انحاء المعبد مفسدين ومدمرين وناهبين. وبعد أن تم التدمير، أمر ثيوفيلوس بأن تقوم مكانه كنيسة.[٣٧]

وقد يتبادر الى الذهن أن أمر مكتبة السرابيون قد انتهى عند هذا الحد، وأنها لقيت مصيرها مع المعبد نفسه. ولكن الدارسين الحديثين، رغم اجماعهم على التسليم بحادثة تدمير معبد السرابيون على يدي ثيوفيلوس، نجدهم يختلفون أشد الاختلاف حول مصير المكتبة.[٣٨] منشأ الخلاف مرة ثانية هو اختلاف تفسير المصادر التي بين أيدينا. ومن حسن الحظ في هذا المقام أننا نمتلك شهادة عدد من الكتاب الذين عاصروا وشاهدوا الأحداث بأنفسهم أو كانوا غير بعيدين منها، وجميعهم يؤكد فداحة التدمير. فعلى سبيل المثال يقول ثيودوريت « ان المعبد دمر من أساسه »،[٣٩] ويقول آخر، وهو يونابيوس « (ان ثيوفيلوس واتباعه) انهالوا على المعبد مدمرين، وشنوا حربا على محتوياته، ولم ينزعوا الأساسات فقط، بسبب ضخامة كتلها الحجرية التي لم يمكن تحريكها، ولكنهم أهلكوا وخربوا كل شيء تقريبا ».[٤٠]

ومع ذلك فالمدافعون يستمرون في انكار ما يعنيه بالضرورة مثل هذا التدمير الشامل، ويجادلون بأن ثيوفيلوس لم يكن هدفه تحطيم البناء ولكن العبادة. ويدفعون بأنه سعى بحماس فقط الى تحطيم الوثنية، وأنه ليس هناك مبرر للاعتقاد بأنه كان يقصد الى محو جميع الكتابات الماضية.[٤١] لمواجهة مثل هذه الحجج يمكننا أن نتلمس ردا في كتابات افثونيوس Aphthonius الذي زار الاسكندرية في القرن الرابع وألف كتيبا بعنوان « وصف قلعة الاسكندرية » ويقصد معبد السرابيون. وفي ثنايا وصفه يقول : « وكان مقاما بجوار الأروقة على الجانب الدخلي قاعات، بعضها كان خزائن للكتب، لاستخدام أولئك الذين وهبوا أنفسهم لطلب العلم، وهي التي رفعت المدينة بأسرها لتتبوأ مكان الصدارة في الفلسفة، وبعضها الآخر كان مقاما لعبادة الآلهة القديمة ».[٤٢]

وقد أثارت هذه العبارة جدلا عنيفا بين الكتاب، اذ تبناها أصحاب الآراء المتعارضة على السواء، لأنها تثبت أن افثونيوس رأى مكتبة بالسرابيون حين زار الاسكندرية. ولكن الاختلاف ينشأ حول تاريخ الزيارة، التي ليس معروفا تاريخها على وجه التحديد. ولذلك يذهب رأي الى أنها حدثت قبل ٣٩١، ومن ثم

لا تفيد شيئا لما أصاب المعبد في ٣٩١.[٤٣] بينما ذهب راي آخر الى أن الزيـارة كانت بعـد ٣٩١، ولذلك تقوم دليـلا على أن الكتب استمرت موجودة بعد تدمير المعبد.[٤٤]

لسوء الحظ معلوماتنا عن سيرة إفثونيوس قليلة جدا. ونظرا لأنه كان تلميذا للخطيب العـظيم واستاذ البـلاغة ليبـانيوس الانطاكي (٣١٤ – ٢٩٥)، فهناك اتفـاق أنه عـاش في النصف الثاني من القرن الرابع وبداية الخامس. ونعـرف له كتابـا في البلاغة يسمى « تدريبات أولية » يتميز بالبسـاطة والوضوح.[٤٥] ولعدم توفر أية معلومات أخرى تعيننا على تحديد موعد زيارته للاسكندرية، فنحن مضطرون الى الاعتماد على النص مباشرة. فـان قراءة متـأنية تثبت أن النص لا يبـرر أيا من النـظريتين المطروحتين. فمن الواضح أن افثونيوس في وصفه للمعبد يقدم لقارئه صورة من الماضي، كما كان الوضع من قبل، ولم يعد كما هو وقت الكتابة، ومن ثم استخدامه صيغ الماضي في كل الافعال. فهو لا يستخدم الفعل المضارع اطلاقا في هذا السياق. نستنتج من هذه الملاحظة أن افثونيوس عندما قام بزيارته راى أن السرابيون كان به « قاعات، خصص بعضها لخزائن الكتب، وبعضها الآخر أقيم لعبادة الآلهة القديمة ». فلعله من المستحيل أن نتصور أن هذه الألفاظ تصف المعبد بعد أن حـوله ثيوفيلوس الى كنيسـة في ٣٩١. فاستمرار « عبادة الآلهة القديمة » أمر لا يمكن قبوله عقلا. وبناء على ذلك، يكون افثونيوس قد زار السرابيون ورأى خزائن الكتب وكذلك أماكن عبادة الآلهة القديمة قبل ٣٩١، وأن هذه المعالم لم يعد لها وجود في وقت الكتابة بعد عام ٣٩١، ومن ثم استخـدامه للزمن المـاضي. ورغم ما يكـون في هذا الاستـدلال النحوي من جفاف، يمكننا أن نقدم ما يؤيـده في كتابـة مؤرخ معاصر آخر يسمى روفينوس Rufinus ونعرف أنه شاهد بنفسه أحداث ٣٩١ في الاسكندرية ثم كتب بعدها عام ٣٩٩، وهو لذلك يستخدم الزمن الماضي أيضا لوصف ما كان بالمعبد قبل التدمير. فيقول « كان هناك تمثال ضخم للاله سرابيس »، ثم يتحول الى الفعـل المضـارع عنـدمـا يصف المشى ذا السقف المعقـود

(exedera)، مما بقي بالفناء خارج بناء المعبد ذاته.[٤٦] وعلى هذا النحو يمكننا أن نستنتج ونحن مطمئنون أن عبارة افثونيوس تعني فقط أن خزائن الكتب وعبادة الآلهة القديمة كانت من معالم السرابيون من قبل، ولم تعد من معالم الكنيسة التي قامت مكانه.

لعل من المناسب هنا أن نقول كلمة موجزة عن الجو العام المسيحي في ذلك الوقت، فلم تقتصر اسباب انقسامهم على قضايا العقيدة، كما هو معروف، ولكن أمورا أقل خطورة بكثير ادت الى انقسام حاد وتحزب فيما بينهم. مثال ذلك انشقاق ميليتيوس Meletius الذي لم تكن له أصول عقائدية، ولكنه نشأ عن خلاف في الرأي حدث أثناء الاضطهاد الكبير، ربما في ٣٠٥، بين المسجونين من المسيحيين، حول الاجراء الذي تتخذه الكنيسة بشأن معاملة أولئك الذين ضعفوا أمام الاضطهاد. فنجد بطرس اسقف الاسكندرية يمثل الاتجاه الأكثر تسامحا، وميليتيوس اسقف اسيوط (Lycopolis) يمثل الجانب الاكثر تزمتا. ورغم ان الفريقين اتفقا في نقطتين اساسيتين، اذ لم يكن اي من الفريقين راغبا في حرمانهم نهائيا من العودة الى الكنيسة، وكذلك لم يكن أي منهما راغبا في قبول عودتهم بغير شروط، وانما اقتصر الخلاف فقط حول طول مدة التوبة قبل اعادة قبولهم في الكنيسة، ووضعهم فيما بعد. ولكن نظرا لأن كلاً منهما لم يقبل التنازل عن موقفه، لم يمكن التوفيق بينهما، وانتهى الخلاف الى انشقاق في الكنيسة.[٤٧]

كان هذا الانقسام الى متسامحين ومتزمتين معروفا ومألوفا داخل الكنيسة، ولكنه اتصف بالعناد الى درجة التطرف في الظروف العصيبة في القرنين الرابع والخامس. ومن بين القضايا التي أدت الى انقسام الرأي داخل الكنيسة هو الموقف الذي يجب اتخاذه من العلوم الوثنية القديمة. واذا بأصحاب الرأي المتزمت يذهبون الى تحريم هذا النوع من التعليم. ويمثل موقفهم أحسن تمثيل القول الشائع « ان فما واحدا لا يمكنه أن يقرن بين تمجيد المسيح وتمجيد جوبيتر ».[٤٨] وكانوا يعتقدون أنه يجب على المسيحيين أن يتبعوا نظاما مسيحيا خالصا في التعليم، دون أن

تفسده الفلسفة والآداب الوثنية. ونجد في تعاليم الرسل، وهي وثيقة شاعت في الشرق خاصة في القرنين الرابع والخامس، تعبيرا عن وجهة نظرهم في التعليم على هذا النحو «هل تريد تاريخا؟ فاليك سفر الملوك، واذا أردت بلاغة؟ فسفر الأنبياء. أو شعرا؟ فالمزامير. أو فلكا وقانونا واخلاقا؟ فقانون الرب المجيد.»(٤٩)

هذا الموقف المتطرف في تزمته ترك جماعة المعتدلين والاكثر تسامحا في وضع حرج للغاية. فقد كان هؤلاء مدركين تماما أن النظام التعليمي كله قائم على أسس يونانية في الفلسفة والبلاغة والمنطق. كما كانوا يعتقدون أن مثل هذا التعليم، ليس به شبهة من ضرر على الاطلاق، بل على العكس ضروري لصقل عقول المسيحيين أنفسهم وتثقيفهم. وخير من يمثل هذه المدرسة من التفكير هو المؤرخ سقراط من اسطنبول، الذي عاش في نهاية القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس. وقد حرص مؤرخنا في حواره مع فكر الاصوليين ان يثبت وجهة نظرهم أولا، في ما يتعلق بمبدأ «تعلم المسيحيين لفلسفة الوثنيين التي تؤكد دوما على تعدد الآلهة، وبدلا من القول بأنه يساعد على دعم الدين الحق، آجدر بنا أن نستكره باعتباره أمرا مخربا للعقيدة.» وبعد ذلك ينبري لهم سقراط مفندا اعتراضهم، مقدما عددا من الأسانيد بطريقة يمكن أن تستميل مشاعر المسيحيين الدينية. فيبدأ بقوله «أولا، فيما يتعلق بفلسفة اليونان، فلم يحدث أن نظر اليها السيد المسيح والرسل على أنها قد جاء بها وحي الهي، كما لم يحدث أيضا آن رفضوها رفضا تاما باعتبارها ضارة أو مفسدة. ثانيا، كثير من فلاسفة اليونان كانوا غير بعيدين من ادراك الايمان بالله ثالثا، لا يشك أحد في أن الكتاب المقدس الذي نزل به الوحي الالهي يعرس في النفوس عقائد سامية في ذاتها وربانية في حقيقتها، وانها قبل أي شيء تطبع على التقوى والحياة الفاضلة أولئك الذين يسترشدون بتعاليمها... ولكنها لا تُعلّم فن البرهان العقلي، الذي عن سبيله يمكننا بمقدرة مواجهة أولئك الذين يعارضون الحق. وأخيرا ما أسهل أن يُقهر الخصوم، اذا وُجهت أسلحتهم ضدهم.»(٥٠)

يتبين من ذلك مقدار ما كان هناك من انقسام حاد داخل الكنيسة ذاتها بشأن التراث القديم كله. وفي ظروف القرن الرابع والخامس العصيبة كثيرا ما تفوق جانب المتطرفين، وعلى الأقل كان ينظر الى الآداب والفلسفة الكلاسيكية نظرة شك شديد. ويمكننا أن نتذكر في هذا الشأن ما شعر به القديس جيروم من قلق نتيجة لأنه قرا سرا كتابا لششرون، فيروي في أحدى رسائله ما رآه في الحلم، وكأنه في يوم الحساب، وسأله سائل « اي نوع من البشر أنت » ؟ فأجاب « مسيحي » فجاءه الرد « أنت تكذب، أنت ششروني ولست مسيحيا. »[٥١]

ويمكننا أن نفهم ما أصاب جيروم من ذعر، حين نعرف أن المتطرفين شنوا حربا على الكتب والعلوم القديمة، ليس في الاسكندرية فحسب، ولكن في جميع أرجاء الامبراطورية. ففي عام ٣٦٤ قيل بان الامبراطور جوفيان قام باحراق مكتبة معبد تراجانوم في انطاكية[٥٢] وليس من قبيل الصدفة أن المؤرخ الوثني أميانوس مارقللينوس، في الوقت ذاته تقريبا، يتحدث عن أناس في روما « كرهوا العلم كراهية السم »، وأن هناك « مكتبات قد اغلقت الى الأبد كالقبور. »[٥٣] وأخيرا نجد المؤرخ المسيحي أوروسيوس الذي زار الاسكندرية في ٤١٥، يسجل في أسى واضح « ويحدث اليوم ما هو أكثر، اذ كانت هناك خزائن للكتب في معابد كنا قد رأيناها، ويقولون ان رجالا منا قاموا بافراغها من محتوياتها، وهذه حقيقة لا تقبل الشك.[٥٤]

يتضح من هذه المناقشة أن الحرب ضد العبادة الوثنية شملت أيضا الكتب الوثنية، وانه في ضوء عبارة افثونيوس والتفسير الذي قدمناه، ليس هناك من شك أن تدمير السرابيون في ٣٩١ كان نهاية المكتبة الابنة أيضا.

الرواية العربية عن نهاية المكتبة

بعد أحداث نهاية القرن الرابع وبداية الخامس، استأنفت الاسكندرية حياتها العادية وأصبحت مركزا لحياة فكرية جديدة

عمادها المسيحية ومدرستها التعليمية الشهيرة. وتوافد التلاميذ من جميع أرجاء العالم المسيحي على المدرسة التي زعموا أن مؤسسها هو القديس مرقص نفسه، والتي حظيت من قبل بتعليم كليمنس وأوريجينيس. وأثناء القرنين والنصف التاليين اكتسبت المدينة طابعا جديدا وثقافة جديدة تماما. ولم يعد للمؤسسات القديمة، السرابيون والموسيون ومكتباتهما، أي ذكر على الاطلاق وفي عام ٦٤٢ فتح مصر القائد العربي عمرو بن العاص واحتل الاسكندرية وقام بتسجيل أحداث الفتوح العربية مؤرخون من الجانبين، من العرب ومن الأقباط والبيزنطيين. وطيلة خمسة قرون بعد الفتح، لم يرد ذكر حادثة واحدة تتعلق بمكتبة الاسكندرية تحت الحكم العربي. وفجأة في مطلع القرن الثالث عشر نسمع عن رواية تصف كيف أحرق عمرو كتب مكتبة الاسكندرية القديمة

واقدم ذكر لهذه الحادثة أورده كاتبان عربيان لهما مكانتهما، وهما عبداللطيف البغدادي وابن القفطي. أما عبداللطيف فكان طبيبا مرموقا زار سوريا ومصر حوالي عام ٥٩٥ هـ/ : ١٢٠٠ ميلادية وأشار الى زيارته للاسكندرية في عبارة مضطربة تشيع فيها الاخطاء . « رأيت أيضا حول عمود السواري من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف. وعمود السواري عليه قبة هو حاملها. » وهنا نجده يستطرد ليقدم فكرة خطرت له : « وأرى أنه الرواق الذي كان يدرس فيه ارسطو طاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التي بناها الاسكندر حين بنى مدينته، وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضي الله عنه. »[٥٥]

ولسنا في حاجة الى أن نقول ان ما يذكره عبداللطيف عن ارسطو والاسكندر غير صحيح، وأن سائر العبارة عن خزانة الكتب وحرقها بلا اسناد، وليس لها قيمة تاريخية بذاتها. ولكن الأكثر اهمية واثارة هو النص الثاني والأوفى مادة الذي يورده ابن القفطي في كتاب « مختصر تاريخ الحكماء »، من القرن السابع

الهجري/ الثالث عشر الميلادي. ونظرا لأهميته في الخلاف حول حرق المكتبة، نقتبسه مطولا :[٥٦]

« كان هناك في ذلك الوقت رجل يقال له يحي النحوي، المصري الاسكندراني تلميذ شاواري، كان اسقفا في كنيسة الاسكندرية بمصر، ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية، ثم رجع عما يعتقد النصارى في التثليث، لما قرأ كتب الحكمة واستحال عنده جعل الواحد ثلاثة والثلاثة واحد. ولما تحققت الأساقفة بمصر رجوعه، عز عليهم ذلك فاجتمعوا اليه وناظروه فغلب وزيف طريقه، فعز عليهم جهله واستعطفوه وآنسوه وسألوه الرجوع عما هو عليه وترك اظهار ما تحققه وناظرهم عليه، فلم يرجع فأسقطوه عن المنزلة التي هو فيها بعد خطوب جرت. وعاش الى أن فتح عمرو بن العاص مصر والاسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلم واعتقاده وما جرى له مع النصارى، فأكرمه عمرو وعرف له موضعا، وسمع كلامه في التثليث فأعجبه، وسمع كلامه أيضا في انقضاء الدهر ففتن به وشاهد من حججه المنطقية وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله. وكان عمرو عاقلا حسن الاستماع صحيح الفكر، فلازمه وكان لا يكاد يفارقه.

ثم قال له يحي يوما : انك قد أحطت بحواصل الاسكندرية، وختمت على كل الاصناف الموجودة بها. فأما ما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه، وما لا نفع لكم به فنحن أولى بها، فأمُرْ بالافراج عنها.

فقال له عمرو : وما الذي تحتاج اليه ؟

فقال : كتب الحكمة في الخزائن الملكية، وقد أوقعت الحوطة عليها، ونحن محتاجون اليها، ولا نفع لكم بها.

فقال له عمرو : ومن جمع هذه الكتب، وما قصتها ؟

فقال له يحي : ان بطلوماؤوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية، لما ملك حبب اليه العلم والعلماء، وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها وافرد لها خزائن فجمعت، وولى أمرها رجلا يعرف بزميرة، وتقدم اليه بالاجتهاد في جمعها وتحصيلها والمبالغة

في أثمانها وترغيب تجارها في نقلها. ففعل ذلك فاجتمع من ذلك في مدة أربعة وخمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتابا. ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها، قال لزميرة، أترى بقي في الأرض من كتب العلوم ما لم يكن عندنا ؟ فقال له زميرة قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجرجان والارمان وبابل والموصل وعند الروم. فعجب الملك من ذلك. وقال له دم على التحصيل. فلم يزل على ذلك الى أن مات الملك. وهذه الكتب لم تزل محروسة محفوظة يراعيها كل من يلي الأمر من الملوك واتباعهم الى وقتنا هذا.

فاستكثر عمرو ما ذكر يحي وعجب منه، وقال « لا يمكنني أن آمر فيها بامر الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكتب الى عمر وعرفه قول يحي الذي ذكرناه، واستأذنه ما الذي يصنع فيها. فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : وأما الكتب التي ذكرتها، فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليها، فتقدم باعدامها.

فشرع عمرو بن العاص في تفرقتها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها وذكرت عدة الحمامات يومئذ وأنسيتها، فذكروا انها استنفدت في ستة أشهر. فاسمع واعجب ».

ومنذ أن أورد ابن القفطي هذه القصة وجدنا الكتّاب العرب بعده يرددونها مرة مطولة وأخرى مختصرة.[٥٧] ولم تعرف في أوروبا الا في القرن السابع عشر، مما أدى الى خلاف في الرأي حول صحة القصة برمتها. وقد تعرضت القصة مرارا للنقد والتحليل بأيدي مختلفة، ولكن لعل المستشرق أ.ج. بتلر A.J. Butler هو أقدر من تصدى لدراستها ونقدها حتى الآن.[٥٨] ويمكن أن نُجمل هنا أهم النتائج التي انتهى اليها فيما يلي :

أولا : ذكر بتلر أن القصة كلها تدور حول شخصية يحي، وعرفه بأنه يوحنا فيلوبونوس Johannes Philoponus، وأن يوحنا هذا عاش وكتب ضد المذهب النسطوري في عصر الامبراطور

جستنيان، أو حوالي عام ٥٤٠، ويكاد يكون مستحيلا أنه عاش حتى الفتح العربي لمصر سنة ٦٤٢.

ثانيا . أنه منذ القرن الرابع الميلادي نقلت كثير من مخطوطات الاسكندرية من البردى وكتبت على الجلد (Vellum) لقدرته على التحمل أكثر من ورق البردى والجلد لا يحترق، ولا تجعله أوامر الخليفة يحترق، حسب قول بتلر.

ثالثا : أن الطريقة الاقتصادية التي لجأ اليها عمرو لحرق الكتب خيالية، ومدعاة للسخرية، فاذا كان الحريق قد تقرر فعلا، وبدافع ديني، لأحرقت المكتبة دفعة واحدة وفي مكانها، بدلا من توزيعها بين الحمامات على مدى ستة أشهر، مما يسمح بتسرب الكتب بسهولة تامة.

وينتهي بتلر من هذا التحليل الى أن القصة مختلقة، وأن العرب لم يجدوا بالاسكندرية مكتبة عند فتحهم لها. ولا شك ان الدراسة التي قام بها بتلر تمثل واحدة من أرقى الدراسات في المناقشات التي دارت حول المكتبة ومصيرها. ورغم اهميتها الكبرى فانها لم تضع حدا للخلاف. وفي الواقع يمكن أن يطرح بشأنها اعتراضان أساسيان. أولا ان القول بتعريف يحي النحوي بشخصية يوحنا فيلوبونوس، ليس بالضرورة صحيحا، بسبب شيوع اسم يوحنا أو يحي بين المسيحيين في تلك الفترة من تاريخ المسيحية، كما أن لقب grammaticus الذي ترجم بالنحوي كان يطلق على كل كاتب تقريبا دون تمييز. ومن ثم احتمال وجود شخص آخر يسمى يحي النحوي في زمن الفتح العربي. ثانيا، الادعاء بأن الكتب منذ القرن الرابع أصبحت تكتب على رقوق الجلد، ليس مقنعا، نظرا لأن الجلد كان نادرا وشديد الغلاء في مصر، مما حال دون شيوع استخدامه كما حدث في آسيا الصغرى وأوروبا. ويتبين من الاكتشافات الأثرية أن ورق البردى استمر المادة الأساسية للكتابة في مصر حتى القرن الثامن الميلادي. وبالاضافة الى هذا كله، نحن لا نعرف من اين استقى بتلر معلوماته بأن الجلد لا يحترق، فمن الثابت الآن أن الجلد يحترق عند درجة ٨٠٠ ف تقريبا، أي أعلى قليلا من درجة احتراق الورق (٥٤١ ف).

ولكن نظرا لاستمرار أهمية نص ابن القفطي بالنسبة للمناقشة، فسوف أحاول اخضاعه لأسلوب مختلف من النقد. وفي الواقع ليس نص ابن القفطي كله مختلقا، ولا هو من النصوص البسيطة بحيث يمكن أن يقبل كله أو يرفض كله، بل هو نص مركب التكوين يمكن رد بعض أجزائه الصحيحة الى أصول تاريخية أكثر قدما. ولهذا السبب يجب أن نلاحظ أن هذا النص يتكون من ثلاثة أجزاء :

أولا : الجزء الخاص بالتعريف بيحي النحوي، وهو يكاد يتفق كلمة كلمة مع نص أكثر قدما أورده ابن النديم في كتابه الفهرست الذي ورد أنه فرغ من كتابته سنة ٣٧٧ هـ/ ٩٨٩ م، اي قبل ابن القفطي بقرنين ونصف تقريبا. وذكر ابن النديم في معرض التعريف بيحي النحوي ما يأتي : « كان يحي تلميذ ساواري، وكان اسقفا في بعض الكنائس بمصر، ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبية، ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث، فاجتمعت الأساقفة وناظرته فغلبهم واستعطفته وآنسته وسألته الرجوع عما هو عليه وترك اظهاره، فأقام على ما كان عليه، وأبى أن يرجع فأسقطوه وعاش الى أن فتحت مصر على يدي عمرو بن العاص، فدخل اليه وأكرمه ورأى له موضعا، وقد فسر ارسطليس، وقد ذكرت ما فسره في موضعه، وله من الكتب بعد ذلك... الخ. »[٥٩]

ومن المحتمل أن ابن القفطي أخذ تعريفه ليحي النحوي عن نص ابن النديم، او ان كليهما أخذا عن مصدر أكثر قدما. وواضح أن ابن النديم رغم استمراره في الحديث عن يحي ومؤلفاته، لا يذكر أن حديثا دار بينه وبين عمرو بشأن المكتبة.

ثانيا، الجزء الخاص بالتعريف بنشأة مكتبة الاسكندرية زمن البطالمة. فيبدو أن الفكر العربي كان على علم بأمر مكتبة الاسكندرية القديمة وظروف تأسيسها منذ القرن الرابع الهجري على الأقل، وربما قبل ذلك أيضا. اذ أن ابن النديم نفسه يورد نصا طريفا لاسحق الراهب يتحدث فيه عن تأسيس مكتبة الاسكندرية. وبطبيعة الحال كان اسحق الراهب سابقا على ابن

النديم، وهو أحد أولئك المسيحيين في بلاد الشام الذين نشطوا في نقل التراث اليوناني الى اللغة العربية بين القرنين الثالث والرابع الهجريين. والنص كما يورده ابن النديم يكاد يتفق أيضا مع عبارة ابن القفطي. والنص حسب رواية ابن النديم في نهاية حديثه عن المكتبات الكبرى القديمة هو : « وحكى اسحق الراهب في تاريخه أن بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية، لما ملك فحص عن كتب العلم وولى أمرها رجلا يعرف بزميره، فجمع من ذلك - على ما حكى - أربعة وخمسين ألف كتاب ومائة وعشرين كتابا، وقال له قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم. »[٦٠]

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه العبارة تكاد تتفق مع الفقرة المعروفة للكاتب البيزنطي تزتزيس Tzetzes من القرن الثاني عشر، وقد سبق ذكرها في الفصل الثالث. ومن المحتمل أن كلا من اسحق وتزتزيس يستمد من مصدر مشترك يرجع أصلا الى « رسالة ارستياس » من القرن الثاني ق.م.، فجميعهم يتفقون في الدور الفعال الذي قام به ديميتريوس، ويسميه العرب زميرة، في تأسيس المكتبة، وجميعهم يتفقون في نسبة تأسيس المكتبة الى بطليموس الثاني فيلادلفوس، وليس الى بطليموس الأول سويتر حسب رواية أخرى أكثر قبولا الآن بين الدارسين.[٦١]

ثالثا، هناك الفقرة الأخيرة ذات الطابع القصصي وأقرب لأسباب التسلية، وهي التي تروي تبادل الرسائل بين عمرو والخليفة، وتنتهي بوصف الطريقة الاقتصادية التي اتبعها عمرو في استخدام الكتب وقودا للحمامات العامة في المدينة. هذا الجزء الثالث لم يمكن ارجاعه الى مصدر أسبق من ابن القفطي نفسه

يتبين من العرض السابق أن الكتّاب العرب والبيزنطيين حتى القرن الثاني عشر كانوا على علم بمكتبة الاسكندرية ومتتبعين لأخبارها ومع ذلك فلا يعلم أحد منهم أن عمرو بن العاص وجد لها أثرا بالاسكندرية، ولذلك يبدو أن هذه الفقرة الأخيرة المتعلقة بقيام عمرو بحرق الكتب، اختلاق حدث في أثناء فترة متأخرة من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي.

ومن أجل تفسير هذا الاقتراح، لا بد من ايضاح نقطتين .
أولا، ماذا حدث خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر بالذات، مما بعث اهتماما مفاجئا بمصير مكتبة الاسكندرية وأدى الى اتهام عمرو بجريرة حرقها ؛

ثانيا، لماذا ـ بعد صمت كامل استمر ثمانية قرون منذ تدمير السرابيون ـ نجد ابن القفطي بالذات حريصا على ذكر مثل هذه القصة في أوفى تفصيلاتها ؟

للاجابة على السؤال الأول، يجب أن نذكر أن فترة القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، كانت فترة حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية، كما تمثل مفترق طرق في التاريخ العام. ففي أثناء هذين القرنين تقرر مستقبل تاريخ العالم ؛ وقد اهتم بدراسة أحداثهما البالغة التعقيد أعداد غفيرة من المؤرخين، وهم على سبيل التبسيط يقسمونها تقسيما ثلاثيا معروفا، الى . صليبية وثقافية واقتصادية، أما فيما يتعلق بموضوع اهتمامنا هنا، فهناك تطوران أساسيان كانت تتوالى أحداثهما في كل من أوروبا والعالم العربي ـ دون أن تبدو الصلة بينهما واضحة للوهلة الأولى. الأول عسكري، وقد تقرر لصالح العرب على أرض المعركة في فلسطين، والثاني ثقافي وأعمق أثرا، وقد تقرر لصالح أوروبا. ففي كل من بيزنطة وأوروبا، كانت هناك حركة نشطة تثير الاعجاب لاحياء العلوم الكلاسيكية. ففي القسطنطينية تأسست في منتصف القرن الحادي عشر أكاديمية جديدة للقانون والفلسفة واللغة. كما برزت في القرن الثاني عشر شخصية تزتزيس، الذي يدل فيض انتاجه من الأعمال الأدبية والتاريخية على أنه قد أحاط بالأدب اليوناني الكلاسيكي.[٦٢]

وفي غرب أوروبا ازدهرت الحركة المدرسية المشهورة وأدت الى انتشار ظاهرة تأسيس المدارس في ايطاليا وفرنسا وانجلترا والمانيا. هذه هي الفترة التي ظهرت فيها البدايات الأولى لمدارس وجامعات بولونيا وشارتر وباريس واكسفورد وغيرها. فمنذ البادرة الكارولنجية، ونحن نلحظ أن ملوك أوروبا يبذلون جهدا

واعيا لتشجيع العلم. فنسمع مثلا في ١١٥٨ الامبراطور الالماني فريدريك باربااروسا يعلن أمن وحماية أولئك الذين يدرسون في شمال ايطاليا، ويخصهم بمعاملة متميزة في جميع أرجاء مملكته.[٦٣]

ان ما نتج عن هذه الحركة من خلع الصبغة الدينية عنها تمثل بصورة ملموسة فيما طرأ على صناعة الكتاب من تطور أثناء القرن الثاني عشر. قبل ذلك كان انتاج الكتب يكاد يقتصر على الأديرة. فباعتباره عملا من أعمال التوبة أو الايمان، كان من معالم الكتاب الديري جلد فاخر، ورق مذهب، هوامش عريضة، خط متقن، مصورات فنية توضيحية. وبالضرورة كانت هذه الروائع الجميلة قليلة العدد وباهظة الثمن، وفوق طاقة آلاف الأساتذة والطلبة الذين تكاثروا على مدارس القرن الثاني عشر. من أجل تلبية حاجات هؤلاء الدارسين، ظهر ناشرون يصدرون الكتب في أعداد كبيرة (Stationarii) عن طريق النسخ الجماعي للكتب، يقوم به ناسخون مدربون على الانتاج السريع. ونتيجة لذلك اختفت المصورات، وضاقت الهوامش، واستخدمت الجلود الرخيصة، وكثرت المختصرات في الكتابة ومع ازدياد الطلب اشتد السعي الحثيث في كل مكان وراء الحصول على مصادر جديدة للكتب ليقوموا على نشرها وتقديمها للدارسين، في هذا الوقت كان قد أصبح ينظر الى المدن الكبرى في العالم الاسلامي بمكتباتها المشهورة على أنها مستودعات لكنوز من الكتب، وخاصة كتب اليونان القديمة. ففي هدا القرن الثاني عشر قام ابيلارد من مدينة باث ببريطانيا بزيارة اسبانيا واليونان وآسيا الصغرى ومصر، وقد ورد أنه من أسبق من قام بترجمة اقليدس من اللغة العربية الى اللاتينية. وأصبحت الترجمة من العربية الى اللاتينية ظاهرة ملازمة لحركة احياء العلوم، وهكذا عرفت أوروبا كثيرا من الأعمال اليونانية الكلاسيكية عن طريق أخذها عن تراجم عربية. وبالاضافة الى اقليدس، اشتد السعي في حرص متصل وراء أعمال أبقراط وجالينوس، والمجسطي لبطليموس وأرسطو بشروح ابن سينا وابن رشد ... وغيرها، وتمت ترجمتها

من العربية الى اللاتينية في أوروبا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر.(٦٤)

اذا ما قارنا هذه الصورة في الغرب الأوروبي مع ما كان حادثا في الشرق الاسلامي في ما يتعلق بالكتب والمكتبات نجد صورة مختلفة كل الاختلاف. فهناك عدد من الاحداث التي صاحبت فترة الحروب الصليبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر (الخامس/السادس الهجريين) أدت الى تدمير المكتبات وخرابها. وأسبق حادثة بلغتنا عن ضرر فادح أصاب مكتبة عامة كان زمن الشدة العظمى التي أصابت مصر حوالي ٤٦٠/٤٦١ هـ (١٠٧٠ م.) حين اضطر الخليفة الفاطمي المستنصر بالله الى عرض آلاف الكتب للبيع من المكتبة الفاطمية الكبرى في القاهرة ليتمكن من دفع مستحقات جنوده من الترك. فقيل انه في أحدى المناسبات باع « ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة » وفي مناسبة ثانية، في يوم واحد أخرج من المكتبة خمسة وعشرين جملا موقرة كتبا ليدفع دينا عليه لاثنين من كبار رجال الدولة، احدهما الوزير أبو الفرج « وقومت حصته بخمسة آلاف دينار، وكانت تساوي أكثر من مائة ألف دينار »، من هذه الكتب ما نهب فيما بعد... وأبحر بها بالنيل وأرسل الى الاسكندرية أو المغرب... وفي حادثة ثالثة هاجم السودان القصر ونهبوا محتوياته، وأخذوا الكتب المجلدة تجليدا فاخرا وأحرقوا أوراقها، واتخذوا من جلودها نعالا لهم، سوى ما غرق وتلف، « وحمل الى سائر الأقطار ».

ويحدثنا المقريزي عما وهب الخليفة المستنصر في عام الشدة، « وصار الى فخر الدولة... مقطع من الحرير الأزرق... دقيق بديع الصنع منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير تنبيتا، فيه صورة أقاليم الأرض بمدنها وجبالها وبحارها وأنهارها وسعة حصونها ومسالكها شبه جغرافيا، وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر، ومكتوب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب او الفضة أو الحرير. وفي آخره : مما أمر بعمله المعز لدين الله تشوقا الى حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله، في سنة

٣٥٢ هجرية، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار ». وهكذا، يضيف المقريزي، أن كتبا لا تقدر بثمن ولا يحيط بها حصر انتشرت في جميع سائر الاقطار.(٦٥)

ومن كوارث الحروب المؤلمة ما حدث عند استيلاء الصليبيين على مدينة طرابلس على ساحل بلاد الشام سنة ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م. فبعد حصار دام ست سنوات، عرضت المدينة التسليم بشرط أن يمنح أهلها الامان على أرواحهم وأملاكهم، فأجابهم الصليبيون الى ذلك. ولكن بعد أن تم التسليم ودخل الجنود الصليبيون المدينة، يقول ابن الأثير انهم أعملوا السلب والنهب « فغنموا من أهلها الأموال والأمتعة وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحصى. »(٦٨)

وهناك حادثة أخرى أقل خطورة، ولكنها تشير الى نوع الحوادث التي كانت تقع في تلك الأيام العصيبة، وهي حادثة استيلاء الصليبيين على أموال اسامة بن منقذ ومكتبته الخاصة أمام مدينة عكا، أثناء ابحار اسرته بها من مصر الى الشام، وذلك بعد أن أعطاهم الأمان ملك بيت المقدس الصليبي. وقد أورد هذه الحادثة أسامة نفسه في سيرته الذاتية الشيقة ثم أضاف في ايجاز مؤثر « وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال، الا ما ذهب لي من الكتب، فانها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة. فان ذهابها حزازة في قلبي ما عشت ».(٦٧)

هذه الحوادث وأمثالها كثيرا ما أثارت مشاعر الغضب والاستياء العام، وكثيرا ما أدت الى تبادل الاتهام والتشهير بين الجانبين. في مثل هذه الأحوال يصبح اختلاق قصة تصف تدمير أشهر مكتبة وجدت في التاريخ القديم كله في الاسكندرية على أيدي العرب مادة مناسبة لمعارك القذف والاتهام التي صاحبت معارك القتال في الفترة الصليبية.

والسؤال الثاني، ماذا دفع ابن القفطي، في حرص واضح، الى ايراد قصة مختلقة من هذا القبيل، ودون أن يثبت لها سندا، فيسجلها بأوفى تفصيلاتها ؟ لعل المحرك لدوافعه يكمن في العلاقة الوثيقة بين ابن القفطي ووالده بصلاح الدين وأسرته. فقد ولي

والده يوسف القفطي قضاء بيت المقدس من قبل صلاح الدين، ومن بعده ولي ابن القفطي نفسه قضاء حلب من قبل الأيوبيين عام ٦١١هـ/ ١٢١٤ م وبعبارة أخرى كان ابن القفطي ووالده من أعوان صلاح الدين ورجال دولته الجديدة التي أقامها على أنقاض الحكم الفاطمي الشيعي في مصر. ومن المعروف أن صلاح الدين كان في حاجة الى المال لينفق على اعداد حملاته او ليدفع مستحقات من تعاونوا معه، وكانت من وسائله للحصول على المال أن يفرق أو يبيع الكنوز ذات القيمة التي يغنمها. وفي موقفين نعلم أن من بين الكنوز التي تصرف فيها على هذا النحو كانت المكتبات الكبرى.

الحادثة الأولى يوردها المقريزي عن صلاح الدين بعد أن استقل بالحكم في مصر (٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م) أن أعلن تفريق وبيع المكتبة الفاطمية الشهيرة بالمزاد العلني، وتولى بيعها ابن صورة دلال الكتب، واستمر بيعها عدة أعوام. ثم يضيف المقريزي في شيء كثير من الاسى، نقلا عن ابن أبي طي، بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر : « ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا، ويقال انه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التي بالقاهرة في القصر. »[٦٨] ويؤكد الحادثة مؤرخ آخر وهو أبو شامة، باسناده الى العماد (من رجال صلاح الدين)، أن عدد كتب المكتبة آنذاك « مائة وعشرون ألف مجلدة مؤبدة من العهد القديم... ونقلت منها ثمانية أحمال الى بلاد الشام. » وهكذا انهى واجهز صلاح الدين على ما تبقى من المكتبة التي بدأ الفاطميون انفسهم ببيعها، حين كانت كتبها في تقدير أبي شامة يزيد على المليونين.[٦٩]

الحادثة الثانية يوردها ابو شامة في حديثه عن مدينة آمد بأقصى الشمال السوري في منطقة الفرات الأعلى (الآن في تركيا)، فقد وجد بها صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م خزانة كتب تحوي ألف ألف وأربعين ألف كتاب، فوهب السلطان الكتب للقاضي الفاضل (من كبار رجال دولته)، فانتخب منها حمل سبعين حجارة (وثاق الجمل)، ويقال ان ابن قَرَة أرسلان (أيضا من رجال الدولة)

باع من ذخائر آمد وخزائنها مالا حاجة له به مدة سبع سنين، حتى امتلأت الأرض من ذخائرها.(٧٠)

يتضح من مجموع الأحداث والشواهد التاريخية السابقة أمران لهما دلالتهما. الأول، أن الطلب على الكتب القديمة ازداد خلال فترة الحروب الصليبية، وخاصة في القرن السادس هـ/ الثاني عشر م.، زيادة كبرى وأن هذا الطلب كان من جانب الغرب، الذي كان يمر بفترة من الوعي الثقافي أصبحت تعرف بنهضة القرن الثاني عشر. ويكفي أن نذكر حادثتي مكتبة طرابلس العامة ومكتبة اسامة بن منقذ الخاصة، لنتبين أن الحصول على الكتب كان من أهم مطالب الصليبيين، وهو مطلب استمر الغربيون يحرصون عليه الى يومنا هذا. كما أن كثيرا من الكتب التي بيعت لم تبق داخل البلاد، ولكن حملت خارجها. فالشواهد المتعددة، والتي تكاد تكون معاصرة للأحداث تؤكد أن الكتب التي باعها المستنصر أولا زمن الشدة العظمى « أبحر بهذه الكتب بالنيل، وارسل الى الاسكندرية أو المغرب »، أو « حمل الى سائر الأقطار ». وأكثر تحديدا نجد الكتب التي باعها صلاح الدين في القاهرة، قسم منها على الأقل « انتقل الى بلاد الشام »، وما وهب وباع من خزائن آمد السورية « امتلأت الارض من ذخائرها ».

الأمر الثاني، ان عبارات الأسى التي توردها المصادر السابقة تشير الى احساس عام بالسخط لفقد ذلك التراث الذي لا سبيل لتعويضه. ولا بد أن صلاح الدين تعرض لحملة شديدة من النقد لهذا السبب، وخاصة من جانب أتباع الفاطميين الذين كان يخشاهم ويسارع الى البطش بهم. في مثل هذه الظروف يصبح رجال الحاشية في الدولة الأيوبية الجديدة مطالبين بالدعاية للنظام الجديد والدفاع عن أعماله. وهكذا توفر لابن القفطي الحافز لأن يستجيب لمتطلبات الموقف العام، ويقوم بالدور المنتظر منه في خدمة الدولة، فضمن كتابه « تاريخ الحكماء » تلك القصة العجيبة بأن عمرو بن العاص أمر بأن تستخدم كتب مكتبة الاسكندرية القديمة وقودا لحمامات المدينة، فبيع الكتب اهون من حرقها من غير شك.

الفصل السادس

كلمة أخيرة
من الاسكندرية
الى بغداد

الى جانب قصة عمرو وعمر والمكتبة، للعرب مع علوم الاسكندرية قصة أخرى اكثر صدقا واكثر اهمية. سبق ان رأينا أن الاسكندرية لعبت دورا قياديا في الحياة العقلية والعلمية في الشرق الأدنى طيلة العصرين الهللينستي والروماني. وحين أصبح العرب يمثلون القوة العظمى في المنطقة، كان عليهم أن يتعاملوا مع ثقافة سرت في نسيجها مقومات المعرفة التي أبدعتها الاسكندرية. لذلك لم يكن غريبا أن وجدنا ـ منذ بدايات العصور الوسطى ـ الاهتمام بالحضارة اليونانية والرومانية عميقا في التفكير العربي، مع إختلافات من وقت الى آخر بطبيعة الحال في الدرجة أو النوعية. وكان أوج هذا الاهتمام في القرون الأربعة الأولى من الاسلام، حين اقترن بحركة ترجمة قوية.

شغل القرنان الإولان من الحكم العربي في الشرق الأوسط بمشاكل الادارة العملية في جوانبها المختلفة. ولزم في أثناء ذلك قدر كبير من الترجمة للتغلب على الفارق اللغوي بين الحكام الجدد وأهل البلاد. ففي كل من سوريا ومصر، استمرت اليونانية، نحوا من مائة سنة، لغة الادارة الرسمية، بينما لزمت تراجم عربية لكبار الموظفين في مستويات الادارة العليا. لذلك وجدت فئة من المترجمين متمرسين في اللغات اليونانية، والسريانية أو القبطية، والعربية في خدمة الحكام الجدد من العرب.

وتحت تأثير رواية تاريخية معينة، صور لنا ابن خلدون أن اليقظة الثقافية والاهتمام بالعلوم الأجنبية بدأت مع الدولة العباسية في منتصف القرن الثاني هـ/الثامن م. فيذكر أن الخليفة المنصور حصل من بيزنطة على كتب في العلوم المختلفة من بينها كتاب الأوليات لأقليدس. وأكد ابن خلدون أن هذا الكتاب كان « أول ما ترجم من كتب اليونانيين في الملة أيام جعفر المنصور. »[١] ولكن هناك ما يدل على أن الترجمة من اليونانية كانت قد بدأت قبل ذلك في القرن الأول هـ/السابع م. زمن الدولة الأموية. فلدينا مؤلف آخر، أقدم من ابن خلدون بأكثر من أربعة قرون، وهو ابن النديم (القرن الرابع هـ/العاشر م.)، يذكر أن خالد بن يزيد بن معاوية، أحد أفراد بني أمية البارزين، أمر جماعة من الفلاسفة اليونانيين المقيمين في مصر أن يقوموا بترجمة كتب الطب من اليونانية والقبطية الى العربية. ويعقب ابن النديم على هذا الخبر بقوله « وهذا أول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة. »[٢]

كما ورد أن المصلح الأموي الكبير الخليفة عبد الملك ابن مروان، الذي بدأ سياسة تعريب الدواوين، أسس ادارة خاصة للترجمة.[٣] وقد تابع عمله من بعده ابنه وخليفته هشام بن عبد الملك، فيقال ان كاتبه سالم قام بترجمة رسائل أرسطو للاسكندر، وأنها بلغت مائة ورقة.[٤] ولكن جهود عبد الملك وهشام في مجال الثقافة والعلوم لم يقدر لها الاستمرار على أيدي خلفائهما، حتى اذا ما أبدى الخلفاء العباسيون الأوائل اهتمامهم بدعم العلوم، بدا الأمر وكأن كل شيء جديد.

وفي الواقع، كان الأمر جديدا في أكثر من وجه. فظاهرة جديدة على ساحة الثقافة الاسلامية هو اقبال الخلفاء العباسيين الأوائل اقبالا كليا على تأسيس المكتبات، وخاصة « بيت الحكمة » في بغداد. وكان مؤسسها الأول هو هارون الرشيد، ولكنها في عصر ابنه المأمون نمت من مجرد مكتبة بسيطة الى مركز حقيقي للعمل العلمي. وكان من أهم اهدافها ترجمة الكتب اليونانية والفارسية والهندية الى العربية.[٥]

وعرفت حركة الترجمة في العصر العباسي بدرجة عالية من التنظيم والتخصص[٦] فكان هناك مترجمون من عدة لغات أجنبية، اليونانية والفارسية والسنسكريتية والأرمينية وحتى الحبشية، وفي جميع فروع المعرفة. وتنافس الخلفاء المتعاقبون في ارسال الوفود بحثا عن الكتب الأجنبية، وحذا حذوهم بعض أفراد الأسر النبيلة.[٧]

ومن الأمثلة الطريفة التي تصور الروح الجديدة التي سادت لدى بعض الخلفاء العباسيين الأوائل، ما يرويه كاتب متأخر مثل ابن نباته المصري (توفي ٧٦٨ هـ حوالي ١٣٧٠ م) عن المأمون وكيف استغل مركزه القوي في بعض علاقاته السياسية الخارجية من أجل الحصول على الكتب القديمة النادرة. والنص له قيمته في دلالته واصطلاحاته ولذلك اقتبسه مطولا. فيقول في معرض التعريف بأحد المشتغلين بالترجمة : « سهل بن هارون... جعله المأمون كاتبا على خزانة الحكمة، وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص. ذلك ان المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة ارسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد أبدا. فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوي الرأي واستشارهم في حمل الخزانة الى المأمون فكلهم أشاروا بعدم الموافقة الا مطرانا واحدا، فانه قال تعجل بأنفاذها اليه فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية الا أفسدتها وأوقعت بين علمائها، فأرسلها اليه. واغتبط بها المأمون، وأمر بتعريبها، وجعل سهل بن هارون خازنا لها. »[٨]

وهكذا أصبح بيت الحكمة بما تجمع فيه من أعداد متزايدة من المخطوطات، مقصد العلماء ومقر عمل المترجمين والنساخ فكانت الكتب تفحص وتوزع بين المترجمين المختلفين، كل حسب تخصصه وفي كثير من الأحوال كان المترجمون علماء متخصصين في مجالات معينة، كما هو الحال بالنسبة لأبناء شاكر، الذين كانوا علماء في الطبيعة والرياضيات[٩]، كما كان حنين ابن اسحق « رئيس الأطباء ببغداد »[١٠] وتؤكد مصادرنا أن حنينا ـ أعظم المترجمين في عصره ـ كان متقنا لليونانية والسريانية والعربية،[١١] وانه تعلم لسان اليونانيين بالاسكندرية »[١٢]، وهي

اضافة لها دلالتها عن استمرار الدراسة اليونانية في الاسكندرية قرنين بعد الفتح العربي. ويبدو أن درجة اتقانه للغة اليونانية كانت مثار الاعجاب، فتناقلوا اخبار مقدرته اللغوية، فمن ذلك أنه شوهد وهو ينشد من الذاكرة أشعار هوميروس في لغتها الأصلية.(١٣)

وألحق حنين بجماعة المترجمين وهو لا يزال في مطلع العقد الثالث من عمره، ولم يلبث أن تفوق على الجميع وأصبح أفضل المترجمين من اليونانية(١٤) ثم اختصه المأمون بمهمة مراجعة أعمال غيره من المترجمين المعروفين.(١٥) ولم يقنع حنين بما جمعه الرشيد والمأمون في بغداد من كتب، فسافر بنفسه في أرجاء بلاد الاسلام وداخل بلاد الروم بحثا عن مزيد من « الكتب القديمة ».(١٦) وفي احدى هذه المناسبات قيل انه عاد « بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارثماطيقي والطب »(١٧) وقد شملت تراجمه معظم هذه العلوم، ونظر اليها باعتبارها رفيعة المستوى، باستثناء الرياضيات والفلك، ففيهما كانت تراجمه تعرض على ثابت بن قرة لمراجعتها.(١٨) ولا جدال أن مكانته الفريدة التي لا يدانيه فيها أحد، كانت في مجال الطب، كما تمثل في ترجمته لأعمال جالينوس الى العربية. فبعد مضي أربعة قرون على وفاته (في ٢٦٠ هـ/ ٨٧٢ م.) نجد مؤرخا متأخرا من القرن السابع هـ (الثالث عشر م.) يقول « انه في غالب الأمر، لا يوجد شيء من كتب جالينوس الا وهي بنقل حنين أو باصلاحه لما نقل غيره، فان رؤي شيء منها وقد تفرد بنقله غيره من النقلة... فانه لا يعتنى به ولا يرغب فيه كما يكون بنقل حنين واصلاحه وانما ذلك لفصاحته وبلاغته ولمعرفته أيضا بآراء جالينوس. »(١٩)

وطيلة حكم ثلاثة من الخلفاء العباسيين ازدهرت بقيادة حنين ابن اسحق مدرسة متميزة في الترجمة، لا زال كثير من أعمالها باقيا الى يومنا هذا. من بينهم ابنه اسحق بن حنين (نقل الطبيعة والأخلاق لأرسطو)(٢٠)، والبطريق (الحيوان لأرسطو)(٢١)، ابن مطر (المجسطي لبطلميوس)(٢٢)، وابن قُرّة (راجع تراجم حنين لاقليدس وبطلميوس).

استمرت من بعدهم حركة الترجمة نشطة حتى نهاية القرن الرابع هـ/ العاشر م. وتوفر عشرات من المترجمين على نقل ما توفرت تحت أيديهم من ذخائر بيت الحكمة الى اللغة العربية، في شتى فروع المعرفة. ولكن نالت بعض الدراسات عناية أكثر من أخرى، كما حدث في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والعلوم بصفة عامة، بينما تجنبوا الشعر والمسرحيات والديانة والتاريخ، باستثناء عمل واحد وهو ترجمة كتاب الشعر لأرسطو، الذي قام بنقله أبو بشر متى في القرن الرابع هـ/ العاشر م.[٢٣]

وكما هو معروف حازت بعض الكتب الكبرى شهرة خاصة، وتمت ترجمتها والتعليق عليها أكثر من مرة وعلى راسها الأوليات لاقليدس، والمجسطي لبطلميوس، وأعمال جالينوس في الطب، بالاضافة بطبيعة الحال الى أعمال أفلاطون وأرسطو التي احتلت مكان الصدارة المطلقة في الفلسفة. كما ترجمت الى العربية شروح كتبت أصلا باليونانية عن هذه الأعمال، كما هو الحال في شرح ثمستيوس عن كتاب النفس لأرسطو، ونقله حنين.[٢٤] واذا بالعلماء العرب يقومون هم أيضا بكتابة شروحهم ونقدهم للأعمال اليونانية. من أمثلة ذلك ما كتبه الطبيب أبو بكر الرازي (القرن الرابع هـ/ العاشر م.) من نقد على جالينوس معروف باسم « الشكوك على جالينوس » وعرف في الغرب في ترجمة لاتينية باسم « Dubtitationes ad Galenum »[٢٥] وفي القرن السابع هـ/ الثالث عشر م.، كتب الطبيب ابن النفيس شروحا على بعض فصول من أعمال أبقراط.[٢٦] وفي الطبيعة أخضع ابن الهيثم (القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م.) بطليموس لنقد شديد في عملين معروفين وهما « الشكوك على بطلميوس » و « شكوك على المجسطي. »[٢٧] ثم اتبع ذلك ابن الهيثم بعملين نقديين لاقليدس، هما « حل شكوك في أوليات اقليدس » و « شرح فروض أوليات اقليدس ». ومن المحتمل أن هذين العملين كانا تمهيدا لكتابة تعليق كامل على أوليات اقليدس.[٢٨]

وفي الفترة الأخيرة من العصور الوسطى، أي من القرن السادس هـ/ الثاني عشر م. وما بعده، يدخل اهتمام العرب بالتراث القديم مرحلة مختلفة، ولم نعد نرى تراجم أو شروح مباشرة، ويسود الاتجاه نحو الكتب الموسوعية والعرض الشامل لأعمال السابقين، مثل كتاب تاريخ الحكماء لابن القفطي، وطبقات الأطباء لابن أبي اصيبعة، والملل والنحل للشهرستاني. وفي الفترة اللاحقة، بعد القرن التاسع هـ/ الخامس عشر م.، تضاءل أو اضمحل الاهتمام بدراسة أو صيانة التراث العقلي القديم، حتى اذا كان القرن العشرين وجدنا انبعاثا جديدا على أسس جديدة.

يتضح من هذا العرض الموجز أن التجربة العلمية العربية مرت بثلاث مراحل رئيسية : ترجمة، شرح ونقد، تواريخ العلوم مطولة أو مختصرة. كما يتضح أيضا مقدار اهمية أعمال مدرسة الاسكندرية في العصرين الهللينستي والروماني للتجربة العلمية العربية. ولكن يبدو أن تأثير علماء الاسكندرية لم يقتصر على ترجمة أعمالهم والتعليق عليها، ولكن هناك تأثير آخر أكثر عمقا هو اتباع العرب لأحد مناهج البحث في الاسكندرية، وكان في اعتقادي تأثيرا مدمرا في نهاية الأمر. لقد سبق أن ذكرنا أن الحركة العلمية لموسيون الاسكندرية تقدمت في اتجاهين أساسيين، أحدهما هو صيانة ودراسة التراث العقلي المنحدر من الماضي، الثاني القيام بأبحاث علمية أساسية بهدف توسيع آفاق المعرفة الانسانية وكشف قوانين الكون، كما تمثلت في أعمال ارستارخس واراتوستنيس وكتيسيبوس وهيروفيلوس وغيرهم.

وكان أحد المناهج التي طبقها الاسكندريون في دراسة ماضي التراث اليوناني هو البحث عن « مشاكل » أو « معضلات » في النص موضوع الدراسة، ومحاولة التعرف على « حلول » لها. ويمكن ارجاع نشأة هذا المنهج الى أرسطو نفسه، الذي يبدو أنه درج على أن يعد لمحاضراته قوائم بنقاط تثير مشكلة في التفسير في أشعار هوميروس، وهي التي سماها مسائل zetemata، ثم اقترح لها حلولا Luseis. هذا التقليد بوضع

مسائل او مشاكل ربما كان له رواجـه في ندوات أهـل الثقافـة في أثينـا. وقد تنـاقلت أجيال متعـاقبة مجمـوعـة أرسـطو من المسائل الهومرية الى أن قام بنشرها بورفيريوس (توفي ٣٠٥ م.) فيما عرف باليونانية أيضا Homerou Problemata وباللاتينية «Quaestiones Homeri»[٢٩].

ولدينا دليل كاف على أن العلماء الأقل شأنا في الاسكندرية مـارسوا هـذا المنهـج في دراسـاتهم الأدبيـة، كمـا ورد عنـد بورفيريوس اشارة صريحة الى وجـود تقليد « وضـع المسائـل ورصد الحلول بين علماء الموسيون »[٣٠] ومن المعروف، على سبيل المثال، أن أبولودوروس الأثيني طبق في الاسكندرية هذا الاسلوب في دراسته لمشكلة جغرافية هوميروس، وأن الناقد سوسيبيوس الملقب «Lutikos»، أي حـلّال المشـاكـل، اشتهـر بتخصصـه في حل المسائل الهومـرية.[٣١] في حـين أن كبار العلمـاء والأكثر جـديـة كـرهـوا هـذا المنهـج في الدراسـة، ونـظروا اليـه عـلى أنـه نـوع من العبث الرخيص. ومـن هـؤلاء النـاقـد واللغـوي الكبير أرستـارخس الذي نظر اليـه بـازدراء وحـذر من قصـوره وضعف نتـائجـه.[٣٢] ورغم ذلك، فبمـرور الوقت وذبول دوحة الاصـالة في البيئة العلميـة بالاسكنـدرية، ازداد اغراء هذا المنهج في الدراسة، واستمـر مستخدمـا في المدارس الفلسفية وغيرها

ولعل خير دليل على قدرة هذا المنهج على الاستمرار باصرار حتى القرن السادس الميـلادي، قبيل حـركة الفتـوح العربيـة مباشرة هو العمل الذي قام به « الدمشقي » (Damascius) من أعلام الأفلوطونية الحديثة الروحانيين في نهاية العصور القديمة. ولا تخلو سيرة حياته من دلالة، فقد تعلم في الاسكندرية ثم أصبح بعد ذلك رئيسا لمدرسة أثينا الى أن أغلقها جستنيان في عام ٥٢٩. فقرر هو وآخرون في ٥٣٢ الرحيل الى قصر كسرى أنو شروان، ملك فارس المستنير الذي شجـع على تـرجمة أعمـال أفلاطون وارسطو. ولكن معاهدة أبرمت بين كسرى وجستنيان سنة ٥٣٢

نصت على حماية الفلاسفة من الاضطهاد بسبب آرائهم. وهكذا عادوا، لا ليستقروا في أثينا ولكن في الاسكندرية، أما في ما يتعلق بنقطة اهتمامنا، فمن بين ما بقي من أعمال « الدمشقي » كتاب يسمى « معضلات وحلول في المبادىء الأولى »، التي تبين كيف أن ممارسة منهج « وضع المشاكل » كان قد أصبح تقليدا مستقرا في الدوائر الأكاديمية.[٢٣]

وفي فترة لاحقة من العصور الوسطى، حين أقبل العلماء العرب على دراسة الأعمال العلمية اليونانية السابقة، عثروا أيضا على هذا المنهج الدراسي، وتحت قوة تأثير التقليد الاسكندري وأمام سحر السابقة الأرسطية، لم يترددوا في اعتناقه باعتباره منهجا علميا صحيحا للبحث العلمي. ويمثل هذا الموقف قول ابن أبي أصيبعة بأن حنين بن اسحق « عمد الى كتب جالينوس فاحتذا حذو الاسكندرانيين، وصنفها على سبيل المسألة والجواب »[٢٤]. ويؤكد هذا الاتجاه ويوضحه عدد كبير من أعمال كبار العلماء العرب، وقد سبقت الاشارة الى « الشكوك على جالينوس » لأبي بكر الرازي، و « الشكوك على بطليموس »، و « حل شكوك في المجسطي »، « حل مسائل في أوليات اقليدس » وهي لابن الهيثم. وغني عن البيان أن جميع هذه المؤلفات وغيرها تعكس بقوة منهج « المسائل والمعضلات » كما تطور في الاسكندرية القديمة وبعبارة أخرى بدلا من الاتجاه كلية لمعالجة قضايا العلم الأساسية، وجهوا اهتمامهم الى « مسائل » أو « شكوك » في نصوص معينة. وان اقبالهم على استخدام هذا المنهج ليكشف عن حقيقة خطيرة، وهي أنه لم يتوفر، بدرجة كافية، بين العلماء العرب في العصور الوسطى موقف نقدي صميم، كما يدل على أنهم لم يدركوا ادراكا كاملا الأهمية القصوى للممارسة بمقدرة لمنهج علمي دقيق، منهج يلزم اخضاعه دوما لنقد صارم، ويجب مراجعته وتطويره حسب متطلبات أصول البحث العلمي الأساسي. ولعل هذا هو السبب أنهم وقفوا مبهورين أمام الفكر اليوناني، ولم يتمكنوا من أن يحرروا أنفسهم تحريرا كاملا من حدود آفاق

التجربة العقلية اليونانية. كانت هناك، دون أدنى شك، إيجابيات وتصويبات وكذلك اضافات، ولكنهم لم يقووا على الانطلاق الكامل أو التجاوز الكلي.

ولكي نوضح مقدار الضرر الذي لحق التجربة العلمية العربية من جراء تطبيق هذا المنهج، يمكننا أن نضرب مثالا باقتناعهم بأن كتاب المجسطي لبطليموس - رغم غوامضه أو شكوكه - يمثل القول الفصل في علم الفلك. هذا التسليم بنص معين صرف عقول المشتغلين بالفلك من العرب عن أعمال أخرى ذات قيمة علمية كبرى لعلماء اسكندريين سابقين على بطليموس. ويمكننا ان نستشهد في هذا المقام بانجازات أريستارخس من جزيرة ساموس، والذي عاش في الاسكندرية في النصف الأول من القرن الثالث ق م. وكان سابقا الى اقتراح نظام مركزية الشمس للكون. ولم تصلنا لسوء الحظ كتابات اريستارخس نفسه، ولكن أشار اليه ارخميدس في شيء من الوضوح على النحو التالي: « وضع اريستارخس كتابا يشتمل على بعض نظريات يستنتج منها أن الكون أكبر مما نظن أضعافا مضاعفة. وتذهب نظرياته الى أن النجوم والشمس ثابتة غير متحركة، وأن الأرض تدور حول الشمس في فلك دائري، بينما تقع الشمس في مركز المدار... »[٢٥] هذه النظرية لم يلحظها العرب، لأن أنظارهم كانت مثبتة على بطليموس ونظريته في أن الأرض هي مركز الكون.

ومن أجل اعادة اكتشاف مركزية الشمس للكون، كان لا بد من الانتظار حتى حدث تحول الى منهج علمي أكثر نقدا، منهج يؤمن بالتجربة والملاحظة الدقيقة والحكم النقدي، أكثر مما يؤمن بشهادة أو سلطان كتاب واحد. وقد تمثل هذا الموقف العقلي الجديد في شخصية كوبيرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٣)، الذي صوب من جديد معرفتنا بالكون. وغني عن القول أن تعليمه قام على أساس علوم اليونان والرومان، ولكن بدلا من أن يأخذ نفسه بحجية مصدر واحد أساسي، التزم أساسا بالقضية العلمية موضوع دراسته، ولذلك تقصى المعرفة السابقة كلها المتعلقة بها.

وجدير بالملاحظة في هذا الشأن أن كوبيرنيكوس في رسالة الى البابا بولس الثالث عام ١٥٤٣، ذكر أن أول اشارة قرأها الى أن الأرض تتحرك كانت في عبارة وردت في كتاب « الأكاديميات » لششرون، وهي صياغة لاتينية للعبارة التي أشرنا اليها عند أرخميدس.[٢٦]

الـهوامش

الهوامش

الفصل الاول : الاسكندر المكتشف

١ ـ هيرودوت ٥/٢٢/١ – ٢ : ٨/١٢٧/١.
٢ ـ انظر R.L. Fox, Alexander the Great (London, 1973) p. 48 f.
حيث يقدم المؤلف صورة حية لوصف الجو الثقافي والاجتماعي متعدد العناصر في القصر المقدوني
٣ ـ بلوتارخس : سيرة الاسكندر ٨.
٤ ـ يرفض تارن W.W. Tarn, Alexander the Great (Cambridge, 1948) أن الاسكندر تأثر بهيرودوت ص ٤٢٩ و ١٤٤، ولكن يقبل تأثير زينوفون ص ٤٢ و ١٤٢. ومن ناحية أخرى يرى :
H.U Instinsky, Alexander der Grosse am Hellespont (Godesberg, 1949)
ان الاسكندر كان مطلعا على هيرودوت، ص ٤٦ – ٥٣ : انظر :
Lionel Pearson, The Lost Histories of Alexander the Great (Chico, California, 1960, 1983) pp. 8-13.
٥ ـ بلوتارخس ، الاسكندر ٨. ارّخ فيليستوس لأحداث صقلية، وتوفي ٣٥٦ ق.م.
٦ ـ المصدر السابق.
٧ ـ اثينايوس ١٢/٥٣٧ د.
٨ ـ استرابون ١٣/١/١٢.
٩ ـ راجع استرابون ١/٢/١.
١٠ ـ استرابون ٢/١/٦ : انظر :
P. Pfister, «Das Alexanderarchiv und die Hellenistischeroemische Wissenschaft», in: Historia 14 (1961), p. 30-67.
١١ ـ ديودور الصقلي ١/٣٢/١ : ١/٣٦/٧.
١٢ ـ ديودور ١/٣٧/٧.
١٣ ـ أريانوس : أناباسيس Anabasis ٥/٩/٤.
١٤ ـ المصدر السابق ٦/١/٢ – ٣. كان لملاحظة الاسكندر تأثير على مستقبل البحث بعد ذلك : منجد فيلادلفوس (٢٨٥ – ٢٤٦ ق.م.) يتخذ خطوات نحو استكشاف أقاليم نائية في اثيوبيا، كما جاء في ديودور ١/٣٧/٥. وفي منتصف القرن الثاني ق.م. نجد أجثارخيدس، وهو من رحالة ومكتشفي البحر الأحمر، يذكر انه « كما تسبب أمطار الصيف في شمال الهند فيضان نهر هيداسبيس، كذلك الأمطار المتصلة على جبال إثيوبيا تسبب فيضان النيل »، راجع ديودور ١/٤١/٤ – ٨.
١٥ ـ اريانوس ، اناباسيس ٥/٢٠/٨ – ٩.
١٦ ـ المرجع السابق ٤/٢٥/٤.

الهوامش

١٧ ـ انظر بيرسون، بالحاشية ٤ أعلاه، ص‌ص ١١٢ – ١٤٩.

١٨ ـ هذا الأسلوب في نقل السفن المفككة بطريق البر، ثم اعادة تركيبها، لجأ إليه الاسكندر ثانية في الهند قبل معركة نهر هيداسبيس، راجع ديودور ٥/٨/٥ : ويرى بيرسون ص ١٩٨ أن هذه المعلومة اقتبسها ديودور من رواية بطليموس

١٩ ـ أريانوس، اناباسيس ٧/١٩/٣ – ٤.

٢٠ ـ المصدر السابق ٧/٢٠/٣ – ٨ · انظر المقال القيم ·

C. Roueche and K S.M. Sherwin-White, « Some Aspects of the Seleucid Empire: The Greek Inscription from Failaka in the Arabian Gulf», Chiron, vol. XV, (1985) 1-9.

الهوامش

الفصل الثاني : الاسكندرية عاصمة عهد جديد

١ ـ بلوتارخس : الاسكندر، ٢٦.
٢ ـ المصدر السابق : استرابون ١٧/١/١٦ : اميانوس ماركللينوس ٢٢/١٦/١٧.
٣ ـ استرابون ١١/٥/٥.
٤ ـ C.B. Wells, The Reliability of Ptolemy as an Historian, in *Miscellanea di Studi Alexandrini in memoria di A. Rostagni* (Turin, 1963), p 101-116; A.B. Bosworth, Arrian and the Alexander Vulgate, in *Alexandre le Grand: Entretiens Hardt*, 22 (Geneve, 1975), p. 1-33; R.S. Bagnall, review of D.W. Engels, Alexander the Great and the Logistics of the Macedonian Army (California, 1978), in *Classical Journal* (1980), p. 348-9.

اطلق اصطلاح Vulgate على سير الاسكندر التي شابها شيء من خيال الأدب الشعبي كما في السيرة المنسوبة الى [كاليسثنيس] وفي كتابات : ديودور الصقلي، كورتيوس روفوس Q. Curtius Rufus، يوستينوس Justinus

٥ ـ [كاليسثنيس] ١/٣١/٦ و٩.
٦ ـ أوردها ديودور ١/٣١/٢.
٧ ـ اراتوسثنيس، اورده استرابون ١٧/١/١٩.
٨ ـ الاوديسة ٤/٣٥٤ ـ ٩.
٩ ـ هيرودوت ٢/١٧٩ : وفي ٢/١١٣ يذكر كيف ارغمت ريح معاكسة باريس وهيلين على دخول الفرع الكانوبي للنيل.
١٠ ـ الأوديسة ٤/٤٤٧ : لم يستخدم هوميروس كلمة أخرى للنيل، كما لاحظ ذلك قديما اريانوس : الرحلة الآسيوية (اناباسيس) ٦/١/٢. يجب ملاحظة أن هوميروس يستخدم الاسم لفظ Aigyptos في حالة المذكر للنهر، وفي حالة المؤنث للدولة. أما لفظ Neilos لنهر النيل فقد ورد لأول مرة باليونانية عند هيسيود انساب الآلهة Theogony سنة ٣٣٨

١١ ـ Batis-Combe Gunn, 'Notes on the Naukratis Stela', *JEA*, 29, 1943, 55-9.
١٢ ـ G. Jondet, Les ports submergés de l'ancienne île de Pharos, *Mémoires présentés à l'Institut égyptien*, IX (1916); R. Weill, *Les ports ante-helléniques de le côte d'Alexandrie et l'empire crétois*, *BIFAO.*, XVI (1919); F. Petrie, apud Ed. Bevan, *Ptolemaic Egypt* (1927) 7; P.M. Fraser, *Ptolemaic Alexandria* (1972), p. 5-6 and note.
١٣ ـ استرابون ١٧/١/٦ : [كاليسثنيس] ١/٣١/٢ الى ٥.
١٤ ـ Bacchylides, *Carmina cum fragmentis*, ed. B. Shell, Teubner (1949), Fragmenta, *enkomei*, 20B, 13-16.
١٥ ـ ورد في [كاليسثنيس] ـ ١/٣١/٢ ـ ان الاسكندرية احتفلت بعيد تأسيسها في العصر الروماني يوم ٢٥ طوبة، الذي يقابل ٢٠ يناير

ولكن نظرا لأن سنة التأسيس في ٣٣١ ق.م. تقع قبل تطبيق التقويم اليولياني، فيكون تأسيس المدينة حدث في ٧ إبريل، انظر المؤلف مصر من الاسكندر الأكبر الى الفتح العربي (١٩٦٦) ٢٠ حاشية ٢؛ وحديثا انظر . R S Bagnall, The Date of the Foundation of Alexandria, *AJAH*, 4 (1979), p. 46-9

١٦ ـ راجع A.H.M Jones, The Greek City, 2 ff.

١٧ ـ يوستينوس ١١/١١/٣١.

١٨ ـ كورتيوس ٤/٨/٥ : [أرسطو] : الاقتصاد ٢/٢٣.

١٩ ـ المؤلف : كليومينيس وسياسته التجارية، مجلة كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية (١٩٦٤) ٦٥ ـ ٨٥.

٢٠ ـ المصدر السابق.

٢١ ـ يوستينوس ١١/١١/١٣.

٢٢ ـ C. Seltman, Greek Coins, p. 211-212

٢٣ ـ لمناقشة وافية انظر : فريزر . المرجع السابق، ٧ حاشية ٢٨ يقترح هذا التاريخ بناء على تحليل نقش هيروغليفي يتضمن بيانا أصدره الكهنة المصريون. النص الأصلي منشور في :

K. Sethe, *Hierogl. Urkunden, Griech. Rom.* II, p. 11 ff Bevan, Ptolemaic Dynasty, p. 28-32

٢٤ ـ تاكيتوس : تاريخ ٤/٨٣١

٢٥ ـ المصدر السابق.

٢٦ ـ استرابون ١٧/١/٨ (٧٩٤ ـ ٨١٧) . « اخذ بطليموس جثمان الاسكندر (Soma) وقام بدفنه في الاسكندرية ». ولكن يحتمل أن الجثمان كان قد دفن مؤقتا في منف قبل نقله الى الاسكندرية، حسب ما ورد عند [كاليسثنيس] ٣/٣٤ : كورتيوس روفوس ١٠/١٠/٢٠.

٢٧ ـ راجع المصدر القاموسي سويداس Suidas مادة « فاروس » Pharos : استرابون ١٧/١/٦ (= ٧٩١)، نشر لوب Loeb جـ ٨ ص ٢٥ حاشية ٢ . بلينيوس . تاريخ طبيعي ٣٦/٨٣.

٢٨ ـ بلوتارخس . كتابه بعنوان « لا يمكنني الحياة سعيدا بجوار ابيقور » ١٣/١٠٩٥ د . يوسيبيوس تاريخ الكنيسة ٥/٨/١١ . انظر

R P Pfeiffer, *History of Classical Scholarship* (1968) 96 f.; Fraser, Ptolemaic Alexandria, p. 312 ff and 321-322.

٢٩ ـ استرابون ١٧/١/٨ (= ٧٩٣).

٣٠ ـ مثل بلينيوس . تاريخ طبيعي ٣٦/٨٢ (فاروس) . اثينايوس ٢٠٣ د هـ (الموسيون) . [ارستياس] . رسالة الى فيلوكراتيس ٩ و ١٠ (المكتبة)، الناشر هاداس M. Hadas، نيويورك (١٩٥٥).

٣١ ـ Alan Rowe, *The Discovery of the famous Temple and Enclosure of Sarapis of Alexandria*, Cairo (1966).

٣٢ ـ ثيوكريتوس ١٧ س ٨٦ الى ٩٠.

٣٣ ـ هيروداس ، الميميات ١ س ٢٦ الى ٣٢.

٣٤ ـ استرابون ١٧/١/٨(= ٧٩٣ و٧٩٤).

٣٥ ـ ثيوكريتوس ١٥ س ٨٧ الى ٩٥ بيليروفون بطل يوناني اسطوري ركب الحصان المجنح بيجاسوس وقتل الحيوان الخرافي الخيميرة، له رأس أسد وجسم شاه وذيل ثعبان.

٣٦ ـ *Corpus Inscriptionum Indicarum*, ed. E. Hultzsch, Oxford (1925), vol. I, p. 48; cf. A. Parsons, *op. cit.*, p. 199-202; P. Fraser, *op. cit.*, p. 180-181 and notes.

٣٧ ـ Callixeinus, *apud* Athenaeus, 200 F = F Jacoby, *Die Fragmente der griechischen Historiker*, Berlin (1923), 627 F2.

إن ذكر « كلاب هندية » لا زال يمثل مشكلة، ولكن لا ينبغي أن نشك مع فريزر (الحاشية السابقة) في حقيقة وجود ابقار هندية. لقد سبق أن ذكرنا كيف أن الاسكندر أعجب بحجم وجمال بعض الأبقار الهندية وأراد أن يرسلها الى مقدونيا. يذكر كالكسينوس ايضا ان الموكب ضم مئات الأغنام من إثيوبيا وبلاد العرب ويوبيا. وقد ورد أيضا في إحدى برديات زينون بالقاهرة رقم ٥٧ (٢٥٧ ق.م.) أن طوبياس رئيس العمونيين أرسل الى أبولونيوس، وزير مالية فيلادلفوس، إثنين من دواب عربية.

٣٨ ـ F. Preisigke, *Sammelbuch griechischer Urkunden aus Aegypten*, nos. 7169 and 7170.

٣٩ ـ بوليبيوس، أورده استرابون ١٧/١/١٢ (= ٧٩٧).

٤٠ ـ ثيوكريتوس ١٤ س ٥٨ و٦٥ الى ٦٨

٤١ ـ يوليوس قيصر : الحرب الأهلية ٣/١١٠ و١١١.

٤٢ ـ بوليبيوس ٥/٦٥/١٠٧.

٤٣ ـ W. Dittenberger, *Orientis Graeci Inscriptiones Selectae*, p. 731.

٤٤ ـ ديودور ٣١/١٥ أ

٤٥ ـ بوليبيوس، أورده استرابون ١٧/١/١٢ (= ٧٩٧).

٤٦ ـ M.A.H.El-Abbadi, «The Alexandrian citizenship», *JEA* 48 (1962), p. 106-123.

٤٧ ـ استرابون ١٧/١/١٠ (= ٧٩٥) : انظر .

P. Fraser, *op. cit.*, vol. I, p. 29 and vol. II, p. 93, n. 208.

٤٨ ـ اثينايوس ٢٩٢ ب

٤٩ ـ *Corpus Papyrorum Judaicorum*, 3 vol. A. Fuchs and V. Tcherikover (Cambridge, Mass. 1957-1964), see Introduction, I, p. 1-47 and Index.

٥٠ ـ بلوتارخس إيزيس واوزيريس ٢٨ ، تاكيتوس : تاريخ ٤/٣/٨٤.

٥١ ـ R.E. Witt, *Isis in the Graeco-Roman World*, London (1971), p. 51.

٥٢ - هيرودوت ٣/٢٨.

٥٣ - U. Wilcken, *Urkunder Ptolemaerzeit*, I. p. 25-9 = *Preisigke Sammelbuch* (= SB) 2059. Delta (5th cent. B C.), a Greek dedication to Apis bull; also Wilcken, op. cit. 1 = SB 5103 (late 4th cent. B.C) prayer of Artemisia to Oserapi, cf. H.I. Bell, *Cults and Greeds in Graeco-Roman Egypt*, Liverpool (1953), p. 18 f.

٥٤ - أورده ديودور ١/٨٤/٨.

٥٥ - أورده ديودور ١/٢٥/٢.

٥٦ - J.-Ph. Lauer, Saqqara, *The Royal Cemetery of Memphis, Excavations and Discoveries since 1850*, London (1976), p. 26, cf. Egypt. in: Nagel' *Encyclopaedia-Guide*, Geneva (1983), p. 339.

٥٧ - تاكيتوس : تاريخ ٤/٨٣ و٨٤ : بلوتارخس · إيزيس وأوزيريس ٢٨.

٥٨ - هيرودوت ٢/١٤٤ : « أوزيريس هو الذي يسمى ديونيسوس باليونانية »، ديودور ١/٩٦/٤ : « لأن شعائر أوزيريس هي ذات شعائر ديميتير، الاسم فقط هو الذي تغير ».

٥٩ - Satyrus, *apud* Theophilus, ad Autolycum, 2.7 (= Jacoby, *Fragmente der griechischen Historiker*, p. 631 Fl) P. (Sc. Philopator Ptolemy)

٦٠ - J.-P. Lauer, *op., cit* p 17 and 24 and plates, Nagel. Egypt 337.

٦١ - ديوجينيس لايرتيوس ٥/٧٦.

٦٢ - Charles Picard and J-Ph. Lauer, *Les statues ptolémaïques du Sarapéion de Memphis*, Paris (1955), p. 30 ff.; also see Charles Picard, *Bull. Inst. Egypte*, vol. 38 (1955-6, publ. 1962) p. 5-13 where he stresses the early date; cf. P. Fraser, P.A., vol. II, p. 404, n. 512, is inclined to an early date.

٦٣ - Charles Picard, *op. cit.*, p. 50 ff. and p. 180 ff.; J -P. Lauer, *op. cit.*, p. 18; Dorothy J. Thompson, Ptolemaios and the 'Lighthouse': Greek culture in the Memphite Sarapeum, *Proceedings of the Cambridge Philological Society*, 213 (1987) III, p. 106-121, *esp* 112.

٦٤ - A. Rowe, *op. cit.*, p.1 ff.

٦٥ - P. Fraser, *op. cit.*, p. 250-265 ff. and notes, with extensive bibliography.

٦٦ - ديودور ١/٤٦/٨، يوسيفوس : ضد ابيون ١/١٨٣.

٦٧ - أورده ديودور ١/٢٤/١.

٦٨ - أورده ديودور ١/١٢/١ : عن تعليمه انظر ديوجينيس لا يرتيوس ٩/٦٩.

٦٩ - انظر ديودور ١/١٣/٤ الى ١٤/٣ : ١/١٧ الى ٢٠/٥ : ٢٧/٥.

٧٠ - ديودور ١/٢١/٦.

٧١ - ديودور ١/٢١/١٠ : ٨٨/٤.

٧٢ - ديودور ١/٨٧/١ الى ٥ : ٨٨/٦ الى ٨٩/١.

٧٣ - ديودور ١/٧٠/١٠.

٧٤ - ديودور ١/٥٠/١.

٧٥ ـ ديودور ١/٩٦/١.

٧٦ ـ ديودور ١/٩٨/١ الى ٤.

٧٧ ـ Conveniently collected and translated by W.G. Waddell, Manetho, Loeb.

٧٨ ـ يوسيفوس : ضد ابيون ١/١٤، ٧٢ وما بعده.

٧٩ ـ كان مستشارا لسوتير : بلوتارخس : إيزيس وأوزيريس ٢٨ ، كما أهدى أحد أعماله لفيلادلفوس، راجع :

Synecellus, p. 72; apud Manetho frag. 80; Appendix I.

٨٠ ـ مانيتون، فقرة رقم ٧٦.

٨١ ـ ديـودور ٦/١/٤ Eusebius, *Praeparatio Evangelica*, 2.2.59 B-61A = cf. P. Fraser, *op. cit.*, p. 289 ff. and notes.

٨٢ ـ ديودور ٦/٢/١ = مالالاس ص ٥٤ (Malalas, p. 54).

٨٣ ـ ديودور ٥/٤٢ الى ٤٦.

٨٤ ـ نظرا للطابع المصري المتميز اعتقد كاتب متأخر يسمى لاكتانتيوس أنه تاريخ لمصر استمد المؤلف مادته من نقوش المعابد :

Lactantius, *Inst.* div. I. 11.

٨٥ ـ ديوجينيس لا ييرتيوس ٨/١١ ؛ بلينيوس : التاريخ الطبيعي ٧/١٩٣ ؛ انظر :

Jacoby, *op. cit* , II B, l, and f. 11 a; P. Oxyrhynchus, 15, 1802, on Anticleides.

٨٦ ـ أورده ديـودور ٥/٥٦/٧ ؛ بوليبيـوس ١٦/٢٤ الذي انتقـد زينـون لعاطفته الوطنية ١٧/٨.

٨٧ ـ ديودور ٥/٥٧/٢ ـ ١٤.

الفصل الثالث : الموسيون والمكتبات

١ ـ هيكاتايوس، أورده ديودور ١/٨١/١ و٤.

٢ ـ ديودور ١/١٥/٤.

٣ ـ ديودور ١/٤٩/٣.

٤ ـ Margaret A. Murray, *Egyptian Temples*, London (1946), p. 139

٥ ـ المرجع نفسه ١٦٥.

٦ ـ فيلون : السفارة الى جايوس ١٥١، *Legatio ad Gaium*.

٧ ـ أوروسيوس التاريخ ضد الوثنيين ٦/١٥/٣١ : Orosius, *Historiae versus Paganos*.

٨ ـ J.B. Pritchard, *Ancient Near-Eastern Texts*, Princeton (1969); P. Matthiae, *Ebla, An Empire Rediscovered*, London (1980).

٩ ـ استرابون ١٣/١/٥٤ (= ٦٠٩)، ديوجينيس لاييرتيوس ٨/١٥.

١٠ ـ بوليبيوس ١٢/٢٧/٤،٥.

١١ ـ سويتونيوس : يوليوس ٤٤، أولوس جيلليوس ١٢/١٩.

١٢ ـ Suidas, S.V. Callimachus; Photius, *Bibliotheca or Myrobiblion*, 161, p. 104 b. 38; Aristonicus.

١٣ ـ اثينايوس ٥/٢٠٣ د هـ.

١٤ ـ رسالة أرستياس ١٢، أوردها Eusebius, *Praeparatio Evangelica*, 8,1

١٥ ـ Irenaeus (second cent. A.D.) *Adversus Haereses* III, 21.2, *apud* Eusebius, *Historia Ecclesiastica* V, 8.11-15.

١٦ ـ Clement of Alexandria, *Stromata* (= Miscellanies) I, 22

١٧ ـ فيلون : سيرة موسى ١١/٧/٢٧ (يمجد فيلادلفوس فوق جميع الملوك البطالمة).

١٨ ـ Tzetzes (XIIth cent.) *Prolegomena to Aristophanes = Scholium Plautinum*, translated in A. Parsons, *Alexandrian Library* p. 106 ff; cf. R. Pfeiffer, *History of Classical Scholarship*, p. 101 (text).

الرواية التاريخية العربية انظر ابن القفطي : مختصر تاريخ الحكماء ٣٥٤ : انظر النص في الفصل الخامس فيما بعد.

١٩ ـ عرض بارسونز للمشكلة مع الآراء السابقة A. Parsons, *op. cit.*, ch. IV; حديثا انظر.

R. Pfeiffer, *op. cit.*, p. 96-104; P Fraser, *op. cit.*, p. 314-322; A. Bowman, *Egypt after the Pharaohs*, (California, 1986), p. 224-5; L. Canfora, *La véritable histoire de la bibliothèque d'Alexandrie*, *Paris (1988) p. 29 ff., 41 ff.*

وتكاد تنفرد في السنوات الأخيرة دوروثي تومبسون في نسبة المكتبة الى فيلادلفوس.

D.J. Thompson, «Ptolemaios and the 'Lighthouse'» *Proceedings of the Cambridge Philological Society*, (1987), p. 112.

٢٠ ـ ديوجينيس لايبرتيوس ٥/٧٧ الى ٨٠.

٢١ ـ بلوتارخس · أقوال الملوك والقادة .

(Apophthegms of Kings and Generals 189)

٢٢ ـ Aelian, *Varia Historia*, III. 17.

٢٣ ـ F. Wehrli, *Straton von Lampsacus, Die Schule des Ariototeles*, 5, (1950) fr. 2.

٢٤ ـ ديوجينيس لايبرتيوس ٥/٧٨، ششرون : دفاع عن رابيريوس بوستوموس ٢٣ (Cicero, *Pro. C. Raberio Postumo 23*)

٢٥ ـ ديوجينيس لايبرتيوس ٤/١٩.

٢٦ ـ المرجع نفسه ٥/٥١ الى ٥٢.

٢٧ ـ Vitruvius, *De Architechtura*, 5.11.2

٢٨ ـ استرابون ١٧/١/٨ (= ٧٩٤)

٢٩ ـ انظر حاشية ١٢ اعلاه.

٣٠ ـ فتروفيوس ٩ : مقدمة ٧.

٣١ ـ Suidas, S.V. Philitas and Zenodotus

٣٢ ـ Proclus, p. 68, lines 10 ff = Ivor Thomas, *History of Greek Mathematics* (Loeb) p. 155.

٣٣ ـ F. Durrbach, *Choix d'inscriptions de Delos*, 90 (c. 125 B.C.) cf. P. Fraser, *op. cit.*, vol. I, p. 316, vol II p. 179n. 31.

٣٤ ـ W Dittenberger, *OGIS*, 714; F Preisigke, *Sammelbuch* 6012; Athenaeus 22 D; cf. N. Lewis, in *Mnemosyne* (1963) p 257-261 (a list).

٣٥ ـ Papyrus Halensis, I *(Dikaiomata)*, col. xii, lines 260 ff.

٣٦ ـ ديوجينيس لايبرتيوس ٥/٥٨.

٣٧ ـ L. Preller, *Polemonis Periegetae (of Illium) Fragmenta* (1838, reprinted, 1964) fr. 84 = C. Müller, *Frag. Hist. Graec.*, III pp. 108-9.

٣٨ ـ اثينايوس ١١/٤٩٣ الى ٤٩٤.

٣٩ ـ نفسه ٦٢١ ـ أ.

٤٠ ـ فتروفيوس ٧/مقدمة ٨، سويداس · (سيرة) زويلوس.

٤١ ـ Müller, Frag. Hist. Graec., 270 F9

٤٢ ـ History of Greek Mathematics, (Loeb) I, 488 = Pappus, *Mathematical Collection* VIII, p. 35.

٤٣ ـ سويداس . (سيرة) إستروس Istrus، اثينايوس ٢٣١ ـ (ميلوستيفانوس).

٤٤ ـ انظر الفصل الرابع فيما بعد.

٤٥ ـ فتروفيوس ٧/مقدمة ٨ الى ٩.

٤٦ ـ استرابون ١٤/٥/١٣ (= ٦٧٣ الى ٦٧٤).

٤٧ ـ فتروفيوس ٧/مقدمة ٥.

٤٨ ـ استرابون ١٤/٥/١٣.

الهوامش

٤٩ ـ Suetonius, *Divus Claudius*, 42; *Scriptores Historiae Augustae* · Flavius Vopiscus, *Vita Saturnini 8* (Loeb).

انظر ايضا حاشية ٣٤ اعلاه.

٥٠ ـ بلوتارخس : أنطونيوس ٨٠.

٥١ ـ سويداس : (سيرة) ابيون : فيلون : السفارة الى جايوس، يوسيفوس : ضد أبيون.

٥٢ ـ انظر حاشية ١٨ اعلاه. Tzetzes, Proleg. p. 31 Mb 8 ff.

٥٣ ـ A. Rowe, *The Discovery of the Famous Temple and Enclosure of Sarapis of Alexandria*, p. 1-10.

٥٤ ـ Aphthonius, *Prosgymnasmata*, c. 12, *apud* Botti, *La colonne théodosienne*, p. 26.

٥٥ ـ *Letter of Aristeas*, p. 12.

٥٦ ـ OGIS, 172 (c. 88 B.C.); Plutarch *Caesar* 49; *Galen, Commentari in Hippocratem Epidem*, III 17 a606.

٥٧ ـ Epiphanius, *De Ponderibus* et *Mensuris*, 12.

٥٨ ـ تزيتزيس : انظر حاشية ١٨ اعلاه، P. Fraser, P.A. 322 and notes.

٥٩ ـ رسالة ارستياس ١٢.

٦٠ ـ OGIS, 172 (c. 88 B.C.)

٦١ ـ سويداس : سير كل من أرستوفانيس، زينودوتوس، ابوللونيوس الرودسي.

٦٢ ـ تزيتزيس : كما في حاشية ١٨.

٦٣ ـ P. Fraser, *op. cit*, p. 322 and notes.

٦٤ ـ سويداس : (سير) زينودوتوس، ارستارخس، P. Oxyrhinchus 1241 col. ii, lines 3-5 (Apollonius), 13-15 (Aristarchus).

٦٥ ـ P. Oxyrhinchus, 1241.

٦٦ ـ P. Fraser, *op. cit*, p. 330-333; R. Pfeiffer, *History of Clanical Scholarship*, p. 154, 172, 184.

٦٧ ـ L. Aristias 9, *apud* Eusebius, Praeparatio Evangelica, VIII 2.1-4. Tzetzes, *Prolegomene*, Mb p. 13-31, R. Pfeiffer, *op. cit.*, p. 127.

٦٨ ـ P.Lines 17-31; Fraser, *op. cit.*

٦٩ ـ OGIS, 172, cf. P. Fraser, *op. cit.*, p. 334 and n. 222.

٧٠ ـ رسالة ارستياس ٩ الى ١٠.

٧١ ـ ديوجينيس لايبرتيوس ٥/٥١ الى ٥٢.

٧٢ ـ اثينايوس ١/١٠.

٧٣ ـ استرابون ١٢/١/٥٤.

٧٤ ـ يقترح كانفورا (حاشية ١٩ اعلاه) ص ٣٥ – ٣٩ فرضا نظريا لا اساس له . كيف أن نيليوس خدع رسل الملك من الاسكندرية.

٧٥ ـ بلوتارخس : (سيرة) سولا ٢٩.

٧٦ ـ عبداللطيف البغدادي : الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ص ٤٢ (القاهرة)، المقريزي : الخطط جـ[١] ص ١٥٨ – ١٥٩، Benjamin de Tudela, *apud* D.E. Garcia de Herreros, *Quatre voyageurs espagnols à Alexandrie*, p. 27

٧٧ ـ استرابون ١٢/١/٥٤.

٧٨ ـ *The Zenon Papyri*, II (= *Papyri Columbia*, IV) 60.

٧٩ ـ Galen, *Commentarii in Hippocratem Epidem.*, III, p. 4-11

٨٠ ـ Galen, *In Hippocratem de Natura Hominis*, I, p. 44-105. (= *Corpus Medic. Graec.* V, p. 9.1, p. 55).

٨١ ـ اثينايوس ١/١٠.

٨٢ ـ R. Pfeiffer, *op. cit.*, 94, 110.139; P. Fraser, *op. cit.*, I, 328, II 483n. 163.

٨٣ ـ *Letter of Aristeas*, p. 9-10; Justinus, *Apology* I, 31; Ps. Justinus, *Exhortation to Greeks*, 13; Epiphanius, *De Pond. et Mens.*, *3-11; Plaut. Schol. apud* Tzetzes *Proleg.* p. 31, Mb 8 f.

٨٤ ـ Syncellus, p. 32 = Manethon (Loeb) fr. 3

٨٥ ـ بلينيوس : تاريخ طبيعي ٣٠، ديوجينيس لاييرتيوس ٨/مقدمة يذكر كتابا عن المجوس لهرميبوس.

٨٦ ـ انظر الفصل الثاني أعلاه ص ٤١.

٨٧ ـ *Apud* Euseb. *Praep. Evang.* VIII 2.1. ff; Josephus, *Ant. Jud.* XII, 2-38; cf. M. Hadas, *Aristeas to Philocrates*, New York, (1955); A. Pelletier, *La Lettre d'Aristée à Philocrate (Sources chrétiennes)*, vol. 89, 1962.

٨٨ ـ V. Tcherikover, *Corpus Papyrorum Judaicarum*, I, p. 30 f.

٨٩ ـ جالينوس (حاشية ٧٩ اعلاه).

٩٠ ـ سويداس . سيرة زينودوتوس. انظر . J.E. Sandys, *History of Classical Scholarship*, Cambridge *(1906, 1964), p. 34 n. 3, 'ekdosis' by Antimachus.*

انظر الفصل الرابع

٩١ ـ Menander, Sicyonius, ed. A. Blanchard et A. Bataille, *Recherches de papyrologie*, III, (1964) 161; *Pap. Sorb.* 2272, col. XXI, p. 13.

لاحظ ديوجينيس لايرتيوس يذكر مرارا عدد الأسطر لمجموع اعمال المؤلف . ٤/٥ (سبيوسيبوس ٤٣٤٧٥ سطرا)، ٤/١٤ (زينوكراتيس ٢٣٩، ٢٢٤ سطرا) ٥/٢٧ (ارسطو ٤٤٥,٢٧٠ سطرا)، ٥/٥٠ (ثيوفراسطوس ٢٣٢,٨٠٠ سطرا).

British Museum Papyrus 2110, Oxyrhynchus (A.D. II) ed. H.I. Bell in Aegyptus 2 (1921) pp. 281 ff., Edict of Diocletian, col. VII, 39-41; cf. E.G. Turner, Greek Manuscripts of the Ancient World, Oxford, 1971.

٩٢ ـ F. Schmidt, *Die Pinakes des Kallimachos*, Berlin (1922) p. 23-8; R. Pfeiffer, *Callimachus*, 2 vols Oxford (1948, 1953), see the *Pinakes*, (fragments), I. nos. 429-453.

٩٣ ـ R. Pfeiffer, *History of Classical Scholarship* p. 127-133; A. Parsons, *Alexandrian Library* p 206 ff; F. Schmidt, *Pinakes*, p. 48 ff.; O. Regenbogen, «Pinax», *Real-Encyklopädie*, vol XX (1950), p. 1420-6.

٩٤ ـ Fragment no 447 in R. Pfeiffer, *Callimachus* above.

٩٥ ـ هرميبوس من ازمير، تلميذ كاليماخس، كتب « سيرا » لتكون ملحقا لكتاب استاذه، انظر فقرة من مختصر السير *Papyri Oxyrhynchus 1367*، اثينايوس ٤٠٨ هـ (= 408 E) يذكر أن أرستوفانيس رئيس المكتبة كتب نقدا لكتاب كاليماخس (السجلات).

الفصل الرابع : الحياة العلمية

١ ـ O. Guéraud and P. Jouguet, *Un livre d'écolier du III° siècle avant J.-C.*, p 34; D.L. Page, *Greek Literary Papyri* (Loeb) I.57 lines 42-44.
وأورد ديوجينيس لايبرتيوس ٢ / ١٢٠ مثالا آخر من مسرحية سوفيلوس بعنوان « الزفاف » وفيها يسخر من الفيلسوف ستيلبو المجارى Stilpo of Megara.

٢ ـ أورده اثينايوس ٢٢/د، ويقول ديوجينيس لايرتيوس ٩/١١١ و١١٣ عن تيمون « انه هاجم الجميع وهجا فلاسفة المدارس... وانه رفض النسخ التي حققها الاسكندريون ».

٣ ـ فتروفيوس ٧/مقدمة ١ – ٢.

٤ ـ إلياذة ١/٥ وحاشية النص (لوب).

٥ ـ إلياذة ٤/٤٨، ٩/٢٢٥، أوديسة ٨/٩٨، انظر ايضا إلياذة ١/٤٢٤، ٤/٢٥، ٣٤٣ – ٣٤٤، ٩/٤٨٧، ٢٣/٤٨، اوديسة ١/٢٢٥، ٧/٩٩، ١٠/١٢٤.

٦ ـ Athenaeus, *Epitome*, I, 12 C-F

٧ ـ ايسخولوس . أجاممنون، ١٢٤٢، ١٥٩٢، ساكبات القربان، ٤٨٢، سوفوكليس : فيلوكتيتوس، ٩٥٧، يوريبيدس : الكيكلوبس ٢٤٥، انظر : Pfeiffer, *Histroy of Classical Scholarship*, I, p. 112-13.

٨ ـ اثينايوس (حاشية ٦ أعلاه).

٩ ـ Suetonius, *De Grammaticis*, 10

١٠ ـ استرابون ٢/١/١ – ٦.

١١ ـ استرابون ١/١/١٠، ١/٢/٣.

١٢ ـ اكسينوفانيس، أورده هيروديان ٢/١٦ – ٢٠، افلاطون : جمهورية ٦٠٦ هـ.

١٣ ـ مثل اكسينوفانيس، أورده سكستون امبيريكوس : ضد الرياضيين ٩/١٩٣ (Sextus Empiricus· *Adversus Mathematicos*) : هرقليطس، أورده ديوجينيس لايبرتيوس ٩/١ فيثاغورس، أورده ديوجينيس لايبرتيوس ٨/٢١ : افلاطون : جمهورية ٣٧٧ د ـ ٣٧٨ هـ، ٣٩٨ ا، ٦٠٧ ا. هؤلاء هاجموا هوميروس لأسباب دينية وأخلاقية. في الاسكندرية هاجمه زويلوس، انظر فتروفيوس ٧/٨.

١٤ ـ *Geographici Graeci Minores*, I, 8; cf. P. Fraser, P.A. II, p. 775 n. 171.

١٥ ـ استرابون ١/٢/٣.

١٦ ـ استرابون ١/٢/٢، سويداس : « اراتوسثنيس ».

١٧ ـ ديوجينيس لايرتيوس ٧/ ٤، ٦٧، ٩/ ٧٢، ديون خريسوستوم : خطبة ٥٣/ ٤.

١٨ ـ استرابون ١/ ٤/ ٩. انظر J. Bingen, « *La Bibliothèque d'Alexandrie souvenir et projet* », Diogène, 141 (1988), p. 55.

١٩ ـ فتروفيوس ٧/ ٦ ـ ٧.

٢٠ ـ برديات أوكسيرنخوس رقم ١ ٨٤١

٢١ ـ بعض اقتراحاته غير المقنعة في إلياذة ٧/ ٢٢ و٩/ ٢٤٩ انظر
P. Fraser, *op. cit.*, II, p. 664 n. 102

٢٢ ـ *Inscriptiones Graecae*, XIV, 1183 C = Menandrea test. 61, c, ed. Koerte

٢٣ ـ Menandrea, 32, ed. Koerte; cf. J. Sandys, I, p. 130, n. 1

٢٤ ـ مثل ديكايارخوس، تلميذ ارسطو، كتب حوالي ٣٠٠ ق.م.، أورده سكستوس امبيريكوس « ضد الرياضيين » ٣/ ٢، راجع :

F. Wehrli, *Die Schule des Aristoteles*, I, 1944, Dicaearchus, fr. 78; Aristotle's '*Didascalia*' in V. Rose, Aristotelis fragmenta 618-630; A. Trendelenburg, *Grammaticorum Graecorum de arte tragica indicorum reliquiae*, Bonn (1867) p. 3 f.

٢٥ ـ R.A. Coles and J. W. Barns, 'Fragments of dramatic hypotheses from Oxyrhynchus', *Classical Quarterly*, n.s., XV (1965) 52 ff.

أمثلة منها في مخطوطات العصور الوسطى، انظر ترنديلينبورج (الحاشية السابقة).

٢٦ ـ R. Pfeiffer, *op. cit.*, I, p. 197-202.

٢٧ ـ اكتشفها وقام بنشرها .

E. Miller, Mélanges de littérature grecque (1868) pp. 327-334; cf. H. Erbse, Untersuchungen zu den Attizistischen Lexika, *Abhandlungen der Deutschen Akademie d. Wiss. zu Berlin, Phil-Hist.*, Kl. Jg. (1949) nr. 2 (1950), 5 and *passim*, cf. R. Pfeiffer, *op. cit.* 197 ff.

٢٨ ـ Papyrus Oxyrhynchus 2176, fr. 1.1, Hipponax, ed. O. Masson (1962) fr. 118, 1 and Commentary

٢٩ ـ Papyrus Oxyrhynchus 1241, lines 11-15; Suidas, *Vita Aristarchi*; Athenaeus, 71B; cf. P. Fraser, P.A. II, p. 477, nn. 126-7

٣٠ ـ P. Amherst, II, 12.

٣١ ـ R. Pfeiffer, *op. cit.*, p. 219 n. 7.

٣٢ ـ Porphyrius, Quaestiones Homericae ad Iliadem pertinentes, p. 297, ed H. Schrader, 2 vols. (1880-82). J. Bidez, *Vie de Porphyre* (1913) p. 31 ff

٣٣ ـ J. A. Davidson, «Homeric Criticism», in *Companion to Homer* (1963) p. 220 ff

٣٤ ـ ششرون . رسائل الى اتيكوس ١٦/ ١١/ ٢.

٣٥ ـ كوينتيليان ١٠/ ١/ ٥٤.

الهوامش

٣٦ ـ سويداس : سير دينارخس وبيثياس (Vita Deinarchi, Vita Pytheae)

٣٧ ـ ششرون أكاديميات ٢/٧٣ . وصع بعض فلاسفة الرواقيين في الطبقة الخامسة (Quintae classis)

٣٨ ـ لاحظ في هوميروس، إلياذة ٤/١٩٤ و٢٠٤، نجد الطبيب مخيون (Machaon) بن اسكليبيوس، يسمى أيضا اسكليبياديس وفي نقش كتابي نجد قرارا من نقابة أسكليبياداي Asclepiadae من جزيرتي قوص وكنيدوس (SEG XVI 326 (c 360 B C عثر عليه في دلفي· انظر أيضا Galen (ed Kuehn) X 5-6

٣٩ ـ لعرض حديث مع بيان وافي بالمراجع انظر P Fraser, ch 7(i) حيث يشك في وجود علاقة بين اراسستراتوس والاسكندرية ص ٣٤٧.

٤٠ ـ P Fraser, P.A., I, p 357 and II p. 526-7 nn 163-170.

٤١ ـ Tertullian, *De Anima*, 10

٤٢ ـ Galen, II 894-5.

٤٣ ـ Ps Rufus, *Anatom.*, 71-4 (ed. Ruelle, p 184-5); Galen, VIII, 212. Papyri Rylands, 21 = Pack, 2346; J F. Dobson, *Proc Roy Soc. Med.*, 18 (1925) p. 10-32; cf P. Fraser, P.A II, p. 512 nn 96-7.

٤٤ ـ فريزر ص ٣٥٤.

٤٥ ـ بوليبيوس ١٢/٢٥/د ٣ – ٤

٤٦ ـ جالينوس ١٤/٦٨٣

٤٧ ـ Celsus, Proem, 10, *op. cit.*

٤٨ ـ Deichgraeber, *Die Griechischen Empiriker* (1965) p 292 ff, P.A. K Fraser, p. 359 ff.

٤٩ ـ جالينوس يعبّر عن ثقة عالية في شخصية هيراقليديس كطبيب .

Galen, XVIII a 735, Celsus VII, 7 68; Caelius Aurelianus, *Acut.* Morb., III, 17, 142 (ed Drabkin)

٥٠ ـ R. Walzer, *Galen, On Medical Experience*, Oxford (1944)

٥١ ـ P. Sattler, *Griech Pap u Ostr der Heid Papyrus Samml , herausg vom der Heid. Akad der Wiss. Phil-Hist* Kl 3 (1963) p. 12, Nr. 2, (215-213 B C)

٥٢ ـ هيرودوت ٢/٨٤.

٥٣ ـ UPZ 148 = Remondon, Problèmes du bilinguisme dans l'Egypte lagide', *Chronique d'Égypte, vol. 39 (1964), p. 126-146.*

٥٤ ـ بلينيوس (الصغير) . رسائل ١٠/٥ – ٧ و١٠.

٥٥ ـ اميانوس مارقللينوس ٢٢/١٦/١٧.

٥٦ ـ أورده ديودور ١/٢٥/٢ – ٧ : انظر Witt, Isis, p. 131 ff.

٥٧ ـ ديوجينيس لايرتيوس ٥/٧٦، كذلك اشتهر معبد السرابيون في منف بالقدرة على الشفاء، انظر

S B 1934 (reign of Soter ?) Wilcken, *op cit* , I p 34-5
Lauer and Picard, *op cit* , p 176 ff, P Fraser P A. II, p 402, n 498

٥٨ ـ استرابون ١٧/١/١٧، قيل ان ديميتريوس الفاليري كان من بين من كتبوا عن الاحلام والشفاء بفضل الاله سرابيس على وجه الخصوص، انظر « عن تفسير الأحلام »

Artemidorus, *Onirocritica*, II. 44 (fr. 99 Wehrli).

وفي معنى روحـــاني محض، وصف فيلون منـطقـــة مـريــوط بقــرب الاسكندرية، أنها موطن « الشافين » .

(therapeutae) Philo, *De Vita Contemplativa*, 22, Introduction par F. Daumas et traduction par P. Miguel (Paris, 1963) 39-46

٥٩ ـ ششرون . رسائل الى الأصدقاء ٧/١٢/١: ٩/٢٠/١ و٢٥/٢.

٦٠ ـ ديــوجينيس لاييــرتيــوس ٢/٩٣ – ٩٦ (هيــجيسيـــاس)، ٩٧ – ١٠٣ (ثيــودوروس)، ١١١ : سكستــوس امبيــريكــوس بيــرون ٢/٥ ٢٤ (ديودوروس).

٦١ ـ ششرون اكاديميات ١/٤ – ٨ و١٩، ديوجينيس لاييرتيوس ٧/ ٣٩.

٦٢ ـ ششرون · اكاديميات ٢/١١ – ١٢.

٦٣ ـ المصدر السابق ١/١٧ و٢٢.

٦٤ ـ المصدر نفسه ١/٢١ و٢٩ و٣٥ وما بعده.

٦٥ ـ انظر دراسة ممتعة :

Philip Merlan, *From Platonism to Neoplatonism*, 3rd ed., The Hague (1975).

٦٦ ـ R. Walzer, 'Un frammento nuovo do Aristoteli', *Studi italiani di Filologia classica*, 14 (1937) 125-137; *idem*, *From Greek into Arabic*, Oxford (1964) 38 ff; = *Aristotle, Select Fragments*, trans. W D Ross (1952) p. 23, II; cf. P. Merlan, *op. cit.* p 4.
يقترح ميرلان اعادة اثارة قضيــة « ارسطو العــربي » . Aristoteles Arabus.

٦٧ ـ Stobaeus, *Eclogai*, II, ii-vii Plutarch, *Antony* 80.

٦٨ ـ Philo, *De mut. nom.* 259; *De fug et inv* 138 ,

٦٩ ـ E. Zeller, *Outlines of the History of Greek Philosophy*, 13th ed. revised by W. Nestle, trans by L R Palmer (London. 1969) pp. 259 ff. A.A. Long, *Hellenistic Philosophy* (1974, 1986) 117; R. Pfeiffer, *op cit.*, p. 237 ff.

٧٠ ـ Origen, *Philocalia*, c. 12, p. 19, J.A. Robinson.

٧١ ـ E R. Hardy, *Christian Egypt*, (Oxford 1952) 15 ff., P. Merlan, *op. cit.* 11 ff; J. Sandys, *History of Classical Scholarship*, 341-2

٧٢ ـ J. Scherer, Entretiens d'Origène avec Héraclide et les évêques, ses colloques sur le Père, le Fils et l'Ame (Publications de la Société Fouad I de papyrologie, IX (Le Caire, 1949).

٧٣ ـ Eusebius, *Historia Ecclesiastica* VII, 24 (Nepos), VII, 1 ff (Dionysius)

٧٤ ـ H.I. Bell, *Cults and Creeds in Greco-Roman Egypt* (1953)

٧٥ ـ Porphyrius, *Vita Plotinii*, 1 ff.

٧٦ ـ من ظاهرة التعدد عن الواحد انظر . .

P. Merlan, *op. cit*, 123 f «by the falling away from the One and the overflowing of the One.»

٧٧ ـ انظر P. Merlan, *op. cit.* 133 ff.

٧٨ ـ Plotinus, *Enneades*, II 9

٧٩ ـ وصف أفلوطين تجربته الروحية Plotinus, *Enneades* VI, p. 4, 7, 11; V, 3.10.17; Porphyrius, *Vita Plotinii*, 23.

لا يزال يمثل زيللر (حاشية ٦٩) عرضا ممتازا لأهم عناصر هذه الفلسفة؛ لمناقشات تفصيلية قيمة انظر، P. Merlan, *op. cit.* 100-2, 122-7, 133-9

٨٠ ـ Porphyrus, *Vita Plotinil, 10.*

٨١ ـ Papyrus Oxyrhynchus 2190

٨٢ ـ Vie de Sévère, par Zacharie le scholastique, p. 22-3.

٨٣ ـ J. Maspero, Horapollon et la fin du paganisme égyptien, *Bull. Instit. français*, (1913) 184 ff.

٨٤ ـ سينيسيوس · رسائل ٥٤.

٨٥ ـ المصدر نفسه ١٣٦.

٨٦ ـ استرابون ١٤/٥/١٢.

الفصل الخامس : مصير المكتبات

١ - أوفى قائمة مراجع لما نشر قبل ١٩٥٢ في :

E. Parsons, *Alexandrian Library*, 432 ff.

٢ - من بين من اتهم العرب بالتدمير الأخير للمكتبة :

L. Canfora, *op. cit.*, 97 ff.; E. Parsons, *op. cit.*, 371 ff.; M. Matter, *Histoire de l'école d'Alexandrie*, 319 ff ; J.B. Bury, (dir pub. de E. Gibbon), Appçndix to ch. 28 n. 3; E.W. Ritschl, *Die Alexandrinischen Bibliotheken*, 123 ff.

هناك آخرون يرون أن المكتبة لم تبق الى الفتح العربي :

A.K. Bowman, *Egypt after the Pharaohs*, 225; P Fraser, *op. cit.*, I, 334 and II, 493 n. 224; G. Milne, *Roman Egypt*, 252; J E. Sandys, *History of Classical Scholarship*, I, 113; A.J. Butler, *The Arab Conquest of Egypt, 387;* F. Susemihl, *Greschichte der Griechischen Literature in der Alexandrienzeit*, 344; E. Gibbon, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, ch. 28.

هناك من اتخذ موقفا محايدا تماما وقال ان الكتب تبلى من الاستخدام

W L. Westermann, The library of Ancient Alexandria, *Bulletin of the Faculty of Arts*, , Alexandria, 15 (1952).

٣ - كتاب كانفورا يتميز بأسلوب جذاب من غير شك، ولكنه بعيد عن الحيدة الأكاديمية كما يتمثل في تعسفه في استخدام النصوص، مثل صص ١٢ و١٦.

٤ - الحرب الأهلية ٣/١١١.

٥ - حرب الاسكندرية ١.

٦ - Lucan, *Pharsalia*, X 440 f. 486-505

٧ - Seneca, *De Animi Tranquillitate*, IX, 5.: ورد في الأصل اللفظ اللاتيني *quadraginta* (اي ٤٠,٠٠٠)، ولكنها صوبت الى *quadringenta* (اي ٤٠٠,٠٠٠) كما هو في نص اوروسيوس ٦/١٥/٣١ (انظر فيما بعد).

٨ - بلوتارخس · سيرة قيصر ٤٩.

٩ - مثل :

Aulus Gellius, Attic Nights, VII. 17. 3, Dio Cassius, 42. 38; Ammianus Marcellinus, 22.26.13, Orosius, *Historiae adversus Paganos*, VI. 15.31.

١٠ - L. Westermann, p. 13; A. Parsons, 289; L. Canfora, 89.

١١ - حرب الاسكندرية ١٢.

١٢ - انظر حاشية ٦ اعلاه.

١٣ - بلوتارخس : سيرة انطونيوس ٢٨، حيث يروي نوادر سمعها من جده عن حياة البذخ التي عاشها انطونيوس وكليوباترا في الاسكندرية، كما شاهدها احد اصدقاء جده الطبيب فيلوتاس الذي كان يدرس الطب بالاسكندرية في عصر كليوباترا.

١٤ ـ ديون كاسيوس ٤٢/٣٨.

١٥ ـ مثل :

Ed Bevan, *Egypt under the Ptolemaic Dynasty*, 364: A Parsons, 312 f., L. Canfora, 82 f.; W. Westermann, 12-13.

١٦ ـ Galen, *Commentari in Hipparatem Epidem*, III. xvii a 606-7

١٧ ـ عبارة اوروسيوس ٦/١٥/٣١ «*Proximis forte aedibus*» تعني حرفيا «(الكتب المودعة) في بناء حدث ان كان قريبا (من الشاطىء)» ونجد بارسنز، متاثرا بحماسه لنظريته يكتب ص ٣٠٦ الترجمة الخاطئة « ان ٤٠,٠٠٠ مجلدا حدث ان كانت مودعة... »، ولكنه في ٣٧٢ ـ دون أن يدرك التناقض ـ يكتب الترجمة الصحيحة. كانفورا ص ٨٣ يستخدم الترجمة الخاطئة.

١٨ ـ سينيكا، كما في حاشية ٧

١٩ ـ انظر فريزر حـ ١ ٣٢٤، بارسنز ٣٧٦. من العريب ان كانفورا لا يرى المشكلة في نص استرابون.

٢٠ ـ قام هيبارخس بتسجيل ملاحظاته عن طول السنة في الاسكندرية في سنة ١٤٦ ق.م. وما بعدها، كما جاء في Ptolemy, *Synt.* I, p. 9195-6 انظر فريزر حـ ٢/٦٠٩ حاشية ٣٧٣ – ٣٧٤

٢١ ـ استرابون ٢/١/٥ (= ٦٩).

٢٢ ـ عين الامبراطور هادريان ديونيسيوس عضوا بالموسيون، راجع :

Philostratus, *Vita Dionysii*, P. 525

(انظر الفصل الرابع، حاشية ٤٩).

٢٣ ـ استرابون ٢/١/٥.

٢٤ ـ Philo, *Legatio ad Gaium*, 151; cf. A. Calderini, *Dizionario dei Nomi Geografici e Topografici dell'Egitto Greco-Romano*, «bibliothekai».

٢٥ ـ بلوتارخس . انطونيوس ٥٨.

٢٦ ـ Herodian, 4 8.9., Dio Cassius 77.2-3

٢٧ ـ يوسيبيوس . تاريخ الكنيسة ٧/٢١ – ٣٢.

٢٨ ـ *Scriptores Historiae Augustae*, Aurelianus, 32; and Firmus 3; Ammianus Marcellinus 22.16.15.

٢٩ ـ John Malalas, *Chronographia*, 308-9; Suidas, s.v. Diokeltianus; John of Antioch, Excerpt. Vaselian. p. 834 (Migne, *Patrologia Graecia*, vol. 77 = Müller, *Frag. Hist. Graec.* IV 601).

٣٠ ـ اميانوس مرقللينوس ٢٠/١٦/١٥.

٣١ ـ St. Jerome, *Vita S. Antonii; Vita S. Hilarionis*

٣٢ ـ اميانوس ماقللينوس ٢٢/١٦/١٧. انظر فصل ٤ حاشية ٥٥ اعلاه.

٣٣ ـ Synesius, *Calvitii Encomium*, 6.

٣٤ ـ سويداس : سيرة ثيون.

٣٥ ـ Socrates, *Historia Ecclesiastica*, 5.16.

٣٦ ـ Polybius 5.39; Aphthonius, in G. Botti, *Fouilles à la colonne théodosienne*, p. 23 ff. Clement of Alexandria, I, 42.

٣٧ ـ اورد وصف تدمير السرابيون عدد من المؤرخين، مثل :

Rufinus, *Historia Ecclesiastica*, 2.23-30; Socrates, *Historia Ecclesiastica*, 5.16; Sozimos, *Historia Ecclesiastica*, 7.15; Theodoret, *Historia Ecclesiastica*, 5.22. Eunapius, *Vita Aedesii*, 77-8, John of Nikio, 78.45.

يذكر المصدر الاخير يحي النقيوس (٣٨/٨٣) انه اطلق على الكنيسة الجديدة اسم هونوريوس، الابن الأصغر للامبراطور ثيودوسيوس.

٣٨ ـ للآراء المتعارضة السابقة، انظر بارسنز ص ٣٥٧ وما بعدها.

٣٩ ـ ثيودوريت . تاريخ الكنيسة ٥/٢٢.

٤٠ ـ يونابيوس : سيرة ايديسيوس ٧٧ — ٧٨ (Eunapius, Vita Aedesii).

٤١ ـ انظر بارسنز ص ٣٠٥٩ — ٣٧١.

٤٢ ـ افثونيوس « قلعة الاسكندرية »، راجع النص الكامل في :

G. Botti *Fouilles à la colonne théodosienne*, p. 23-6.

٤٣ ـ بتلر ص ٢٨٢ و٤١٥.

٤٤ ـ ماتير (Matter) ص ٣٢٠.

٤٥ ـ سويداس : سيرة افثونيوس، عن كتابه « تدريبات أولية » *(Prosgymnasmata)* راجع J. Sandys, *op. cit.*, p. 381.

٤٦ ـ روفينوس تاريخ الكنيسة ٢/٢٣.

٤٧ ـ H.I. Bell, *Jews and Christians in Egypt*. Oxford (1924) pp. 38-9.

٤٨ ـ Gregory the Great, Epistle, 13.34

٤٩ ـ Apostolic Constitutions 1.6; A.H.M. Jones, The Later Roman Empire, II, 1005-7; id., *The Decline of the Ancient World*, 351-360

٥٠ ـ سقراط (مؤرخ) : تاريخ الكنيسة ٣/١٦.

٥١ ـ جيروم : رسالة ٢٢/٣.

٥٢ ـ سويداس : سيرة جوفيانوس (Jovianus)

٥٣ ـ اميانوس مارقللينوس ٢٨/٤/١٤، ١٤/٦/١٨.

٥٤ ـ اوروسيوس ٦/١٥/٣٢.

٥٥ ـ عبد اللطيف البغدادي : الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعانية بأرض مصر (القاهرة) ص ٤٢.

٥٦ ـ ابن القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي) . تاريخ الحكماء، وهو مختصر الزوزني من كتاب اخبار العلماء بأخبار الحكماء. ليبزج ص ٣٥٤.

٥٧ ـ أبو الفرج المعروف بابن العبري : تاريخ مختصر الدول، طبعة بوكوك اكسفورد (١٦٦٥ و١٨٠٦) ص ١٨٠ — ١٨١، النص غير كامل في

طبعة الأب انطوان صالحاني اليسوعي، بيروت (١٨٩٠) ص ١٧٥
ابن أبو الفدا : تاريخ ص ٣٥١، المقريزي : خطط (ط. بولاق) ١/٢٥٧، يردد عبارة عبد اللطيف البغدادي.
لاحظ ان كتاب « ابو الفرج » لا يخلو من مشكلة وهو جريجوريوس بن هارون ابو الفرج المطلي، وهو أرمني نصراني، وعرف بابن العبري لأن والده كان طبيبا يهوديا قبل أن يتحول الى المسيحية، وهو من مؤرخي القرن السابع هـ/ الثالث عشر م. وكان يظن من قبل انه إقدم مصدر لقصة حرق عمرو بن العاص لمكتبة الاسكندرية. وكان نسبه اليهودي وتحوله الى المسيحية مدعاة للشك في خبر من هذا القبيل كان يتفرد بالسبق فيه وكان هذا هو الموقف حين كتب بتلر في مطلع القرن العشرين. ولكن بعد أن تبين أن قصة الحريق قد وردت على نحو أوفى في نص أكثر قدما عند ابن القفطي، فقد زالت عن ابي الفرج هذه المسؤولية، بل لعل من الممكن تبرئته منها نهائيا. لانه وضع كتابه أصلا مطولا باللغة السريانية ثم اختصره بالعربية. وقد أشار كاتب هندي أن النص السرياني لا يشتمل على قصة الحريق :

R. Vasudeva Rau, «Omar and the Alexandrian Library», *in the Nineteenth Century*, October (1894) pp. 555-571, esp. 561.

٥٨ ـ بتلر ص ٤٠٠ وما بعدها، قام بترجمته محمد فريد أبو حديد : فتح العرب لمصر، ط ٢ القاهرة (١٩٤٦) ص ٢٩٤ – ٣٢١.
اشار كثير من الكتاب العرب الحديثين الى ما ذهب اليه بتلر، ولكن كتابتهم في هذه المشكلة لم تكتسب قيمة علمية، لأن كتابتهم صدرت ـ مثل بعض الغربيين ـ عن موقف عاطفي اساسي ويكفي أن نستشهد بكتاب له قيمته مثل دكتور محمد ماهر حمادة : المكتبات في الاسلام ـ ط ١ مؤسسة الرسالة (١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م.) ص ٢٤. بعد أن قدم ما انتهى اليه بتلر، يقول « ونحب ان نضيف تعليقا أخيرا مهما على ما مر ذكره وهو أن احراق الكتب واتلاف مخلفات الحضارة ليس من شيمة الاسلام ولا المسلمين، هذا الدين الذي يحض على العلم والتعلم ويحمي المغلوب.. » هذا قول لا يقنع كثيرين في مجال الدراسة التاريخية الجادة، ولم يقتنع به ابن خلدون نفسه حين أشار الى فتح المغول لبغداد على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م : فقال « والقيت كتب العلم في دجلة، مقابلة لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن » حـ ٥/ ٥٤٣، كما ذكر عبارة مشابهة دون تخصيص المدائن حـ ٣/ ٥٢٧.

٥٩ ـ ابن النديم ص ٣٥٦.

٦٠ ـ ابن النديم ص ٣٣٤.

٦١ ـ انظر فصل ٣ حاشية ٥٨ و٦٧.

٦٢ ـ On the reorganization of the university of Constantinople see *Cambridge Medieval History*, IV ed. J.M. Hussey, Chapters 27 and 28, esp. pp. 272 ff. in 1045.

٦٣ ـ Charles R. Young, ed., the Twelfth - Century Renaissance, (Holt, Rinehart and Winston, Inc. New York, 1969) esp. : Ch. H. Haskins, «The Renaissance of the Twelfth Century», pp. 6-10; and D. Knowles, «The Difference Between Scholasticism and Humanism», pp. 87-94. Hellen Waddell, The *Wandering Scholars*, Boston & New York (1927).

٦٤ ـ John W. Baldwin, *The Scholastic Culture of the Middle Ages*, 1000-1300, Lexington, Mass. (1971) esp. pp. 46, 56 ff

٦٥ ـ المقريزي : خطط ١/٤٨٧، ٢/٢٥٤، وله · اتعاظ الحنفي بأخبار الائمة الفـاطميين الخلفـاء، جـ ٢ تحقيقي د. محمد حلمي محمـد احمـد، القاهرة (١٩٧١) ص ٢٩٢ وما بعدها.

٦٦ ـ ابن الاثير : تاريخ، حوادث سنة ٥٠٢ هـ. انظر عمـر تدمـري : دار العلم في القرن الخامس ـ طرابلس (١٩٨٢) ٦٨ - ٧٢.

٦٧ ـ اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتي (١٩٣٠) ص ٣٥.

٦٨ ـ المقريزي : خطط ٢/٢٥٥، ابن خلكان · وفيات، سيرة صلاح الدين، ٢/٥٠٦.

٦٩ ـ أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي) : كتاب الروضتـين في أخبار الدولتين، القاهرة، مطبعة وادي النيل (١٢٨٧ هـ) ١/٢٠٠.

٧٠ ـ أبو شامة، كتاب الروضتين ٢/٢٩.

الفصل السادس · كلمة اخيرة . من الاسكندرية الى بغداد

١ ـ ابن خلدون : مقدمة ١/٢ – ٨٩٢ و٩٠٢ (بيروت ١٩٥٨).
٢ ـ ابن النديم : الفهرست ٨ – ٣٣٩.
٣ ـ بـان الطقـطقـي : الفـخـري ٢٥٩ – ٢٦٠ ط. جـوتـا Gotha (Greifswald ١٨٦٦).
٤ ـ ابن النديم ١١٧.
٥ ـ ابن النديم ١٧٤ . « ابو سهل الفضل بن نوبخت ـ كان في خـزانة الحكمة لهارون الرشيد ». وفي بداية حكم المأمون استمر اسم خزانة الحكمة مستخدما : « سهل بن هارون، كان متحققا بخدمة المأمـون وصاحب خزانة الحكمة »، ثم تغير الى « بيت الحكمة » في وقت لاحق من حكم المأمون : « سلم، صاحب بيت الحكمة مع سهل بن هارون وله نقـول من الفارسي الى العـربي ». المصدر نفسـه، راجع ابن نبـاتة المصـري . سرح العيـون ١٣٧. حول تـأسيس المكتبـات في العصر العباسي انظر كوركيس عواد : خزائن الكتب القديمة في العراق، منذ اقـدم العصـور حتـى سنـة ١٠٠٠ للهـجـرة (بيـروت ١٩٨٦) ص ١٠١ – ١٢٥.
٦ ـ A.I Sabra, « The Scientific Enterprise», in *The World of Islam*, ed. B. Lewis (Thames and Hudson, London, 1976) 181 ff., M Salama-Carr, L'École de Hunayn Ibn Ishaq et son importance pour la traduction, thèse pour le doctorat de 3[e] Cycle, Université de la Sorbonne Nouvelle, Paris 3, 1982.
٧ ـ من الأمثلة المعروفة بعثـات أرسلها كـل من : المنصور، ذكـرها ابن خلدون : مقدمة ١/٨٩٢، الرشيد، ذكرها ابن النديم ١٧٤، المأمون، ابن خلدون : مقدمة ٨٩٢. الاسر النبيلة، مثل اسرة اولاد موسى بن شـاكر، وبني المنجم، راجـع ابن النـديم ٢٣٩ – ٢٤٠ و٤٠٩، ابن القفطي ١٧٣. انظر :
A. I. Sabra, «The Exact Sciences», in *The Genius of Arab Civilization: Source of Renaissance*, ed. J. R. Hayes (MIT, Mass. USA 1983); 'The Sons of Musa bin Shakir' P. 164.
٨ ـ ابن نباته المصري (الامام جمال الدين محمد ـ ت ٧٦٨ هـ) : سرح العيون، طـ. مصطفى البابي الحلبي (١٩٥٧) ص ١٢٧. عن وضع قبرص بين المسلمين وبيزنطة، انظر :
R.J.H. Jenkins, *Studies on Byzantine History*, ch. XXII 'Cyprus between Byzantium and Islam A.D. 688-965» Variorum Reprints, London (1970).
٩ ـ ابن النديم ٢٤٠.
١٠ ـ ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء (القاهرة ١٨٨٢) ١/١٩٨

الهوامش

١١ - ابن النديم، ٤٠٩.
١٢ - ابن أبي أصيبعة ١/ ١٨٩.
١٣ - ابن أبي أصيبعة ١/ ١٨٥.
١٤ - ابن القفطي ١٧١، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١/ ٢٤٥.
١٥ - ابن أبي أصيبعة ١/١٨٧، نظرا لأن حنين ولد في ١٩٤ هـ/ ٨٠٩ م.، فلا يكاد يتجاوز عمره الخامسة والعشرين عند وفاة المأمون ٢١٨ هـ/ ٨٣٣ م.
١٦ - ابن النديم ٤٠٩، ابن القفطي ١٩٧.
١٧ - ابن النديم ٢٣٩ - ٢٤٠.
١٨ - ابن خلكان : وفيات ١/ ٢٤٥، الصفدي، أورده بهاء الدين العاملي الكشكول ١/٣٨٨.
١٩ - ابن أبي أصيبعة ١/ ٨ - ١٨٩.
٢٠ - تحقيق عبد الرحمٰن بدوي (القاهرة ١٩٦٥ و١٩٧٩).
٢١ - تحقيق عبد الرحمٰن بدوي (القاهرة ١٩٧٧).
٢٢ - انظر عبد الحميد صبرة : الشكوك على بطليموس، لابن الهيثم، المقدمة ص ٥.
٢٣ - الطبعة الأخيرة، س.م. عياد، ١٩٦٧.
٢٤ - ذكره ابن القفطي ١٧٢، تحقيق عبد الرحمٰن بدوي (القاهرة ١٩٥٤).
٢٥ - انظر عبد الحميد صبرة، المرجع نفسه ؛ محمد سليم سالم : كتاب النبض لجالينوس، المقدمة (القاهرة ١٩٨٦).
٢٦ - محمد سليم سالم · كتاب جالينوس الى غلوكن في الشفاء، مقدمة (القاهرة ١٩٨٢).
٢٧ - الحسن بن الهيثم : الشكوك على بطليموس، تحقيق عبد الحميد صبره و ن. الشهابي (القاهرة ١٩٧١) - مقدمة صبره.
٢٨ - A.I. Sabra, Ibn Al-Haytham, in *Dictionary of Scientific Biography*. 199-201.
٢٩ - Porphyrius, *Quaestiones Homerical ad Iliadem*, coll. H. Schrader (1880) pp. 415 ff., and *Quaestiones Homerical ad Odysseam* (1890) p. 180 ff., see R. Pfeiffer, p. 69.
٣٠ - Porphyrius, *Quaestiones Homerical*, I, p. 141; cf. P. Fraser, II, p. 471, n. 86
٣١ - Suidas, s.v. Apollodorus; Sosibios 'Luticus', in Athen. 493 E- 394 B. cf. A. Gudemann, 'Luseis', Pauly- Wissowa, *RE*, XIII, 2511 ff., P. Fraser, p. 471
٣٢ - ديوجينيس لايرتيوس ٧/ ٤، ديون خريسوستوم ٥٣/ ٤.
٣٣ - Agathias, II, 30; C.E. Ruelle, (dir. pub.) *Dubitationes et Solutiones*, 2 vols., Paris (1889); cf. J. Sandys p. 375.

٣٤ ـ ابن أبي أصيبعة ١ / ١٨٩، ٢٠٠، انظر ابراهيم خليفة شعلان : النحو بين العرب واليونان (تحت الطبع).

٣٥ ـ Ivor Thomas, *History of Greek Mathematics*, vol. 2, p. 2 (Loeb); Cicero, *Academica*, II, 123.

٣٦ ـ H Rackham, Cicero, *Aacademica*, Introduction p. 405 (Loeb).

مراجع ببليوغرافية

Adriani, A. *Repertorio d'arte dell'Egitto Greco-Romano,* Palermo, 1961-66.

Austin, M. M. *The Hellenistic World.* Cambridge, 1981.

Awad, K. *Ancient Libraries in Iraq from the Earliest Times till A.D. 1600/A.H. 1000.* Beirut, 1986. (In Arabic.)

Bagnall, .R. S. The Date of the Founding of Alexandria. *AJAH,* 4, 1979, pp. 46-9.

Baldwin, J. W. *The Scholastic Culture of the Middle Ages, 1000-1300.* Lexington, Mass., 1971.

Bell, H. I. *Jews and Christians in Egypt.* Oxford, 1924.

——. *Cults and Creeds in Greco-Roman Egypt.* Liverpool, 1953.

Bernal, M. *Black Athena, Free Association.* London, 1987.

Bernard, A. *Alexandrie la Grande.* Paris, 1966.

Bingen, J. The Library of Alexandria: Past and Future. *Diogenes,* 141, 1988, pp. 55 ff.

Bosworth, A. B. Arrian and the Alexander Vulgate. In: *Alexandre le Grand, Entretiens Hardt* (Geneva), 22, 1975, pp. 1-33.

Botti, G. L'Acropole d'Alexandrie et le Sérapéum d'après Aphthonius et les fouilles. *Mémoires présentés à la Société Archéologique d'Alexandrie.* 1895.

Bowman, A. *Egypt after the Pharaohs.* California, 1986.

Breccia, E. *Alexandria ad Aegyptum.* Pergamo, 1922.

Butler, A. J. *The Arab Conquest of Egypt.* Oxford, 1902. (2nd ed., P. M. Fraser, 1978.)

Canfora, L. *La véritable histoire de la Bibliothèque d'Alexandrie.* Paris, 1988.

Coles, R. A.; Barns, J. W. Fragments of Dramatic Hypo-

theses from Oxyrhynchos. *Classical Quarterly*, n.s. XV, 1965, pp. 52 ff.

Davis, H. T. *Alexandria the Golden City*. 2 vols. Illinois, 1957.

El-Abbadi, M. A. H. The Alexandrian Citizenship. *JEA*, 48, 1962, pp. 106-23.

——. Cleomenes and his Trade Policy. *Bulletin of the Faculty of Arts* (Alexandria), 1964, pp. 65-85. (In Arabic.)

——. *Egypt from Alexander the Great to the Arab Conquest*. Cairo, 1966. (In Arabic.)

——. *The Ancient Library of Alexandria*. Cairo, 1975. (In Arabic.)

——. Aspects of Scholarships and the Library of Ptolemaic Alexandria. *Diogenes*, 141, 1988, pp. 24-40.

Forster, E. M. *Alexandria, A History and Guide*. 2nd ed., New York, 1961.

——. *Pharos and Pharillon*. Richmond, 1923. (Printed and published by Leonard and Virginia Woolf at the Hogarth Press.)

Fox, R. L. *Alexander the Great*. London, 1973.

Fraser, P. M. *Ptolemaic Alexandria*. Oxford, 1972.

Gunn, B.-C. Notes on the Naukratis Stela. *JEA*, 29, 1943, pp. 55-9.

Hamada, M. M. *Libraries in Islam*. Cairo, 1970. (In Arabic.)

Hardy, E. R. *Christian Egypt*. Oxford, 1952.

Hauben, H. On the Melitians. *Proceedings of the XVIth International Congress of Papyrology*, pp. 447-56. New York, 1980.

Herreros, E. G. de. *Quatre voyageurs espagnols à Alexandrie d'Egypte*. Société Archéologique d'Alexandrie, 1922.

Instinsky, H. U. *Alexander der Grosse am Hellespond*. Godesberg, 1949.

Jacob, C. (ed.). *Les Bibliothèques d'Alexandrie. Dossier de préfaces*. Paris, 1989.

Jenkins, R. J. H. Cyprus between Byzantium and Islam, A.D. 688-965. In: *Studies on Byzantine History*. London, Variorum Reprints, 1970.

Jondet, G. Les ports submergés de l'ancienne île de Pharos. *Mémoires présentés à l'Institut égyptien*, IX. Cairo, 1916.

Jones, A. H. M. *The Later Roman Empire*. Oxford, 1964.

——. *The Greek City from Alexander to Justinian*. Oxford, 1940.

——. *The Decline of the Ancient World*. London, 1966.

Kiss, Z. *Sculptures des fouilles polonaises à Kom El-Dikka, 1960-82*. Warsaw, 1988.

Lauer, J.-P. *Saqqara, the Royal Cemetery of Memphis; Excavations and Discoveries since 1850*. London, 1976.

Long, A. A. *Hellenistic Philosophy, Stoics, Epicureans, Sceptics*, 2nd ed. Berkeley, University of California Press, 1986.

Matthiae, P. *Ebla, An Empire Rediscovered*. London, 1980.

Merlan, P. *From Platonism to Neoplatonism*. 3rd ed. The Hague, 1975.

Michalowski, K. *Alexandria*. Vienna/Munich, 1970.

Murray, M. A. *Egyptian Temples*. London, 1946.

Nagel. *Egypt: Encyclopedia-Guide*. Geneva, 1983.

Parsons, A. L. *The Alexandrian Library*. New York, 1952.

Pearson, L. *The Lost Histories of Alexander the Great*. Chico, Calif., 1960, 1983.

Pfeiffer, R. *History of Classical Scholarship*. Oxford, 1968.

Pfister, F. Das Alexanderarchiv und die Hellenistisch-römische Wissenschaft. *Historia*, 14, 1961, pp. 30-67.

Picard, C.; Lauer, J.-P. *Les statues ptolémaiques du Sarapeion de Memphis*. Paris, 1955.

Pritchard, J. B. *Ancient Near-Eastern Texts*. Princeton, N.J., 1969.

Rodziewicz, M. *Les habitations romaines tardives d'Alexandrie*. Warsaw, 1984.

Rouecke, C.; Sherwin-White, K. S. M. Some Aspects of the

Seleucid Empire: The Greek Inscriptions from Failaka in the Arabian Gulf. *Chiron*, 15, 1985, pp. 1-9.

Rowe, A. *The Discovery of the Famous Temple and Enclosure of Sarapis of Alexandria.* Cairo, Institut Français, 1946.

Sabra, A. I. The Scientific Enterprise. In: B. Lewis (ed.), *The World of Islam*, pp. 181 ff. London, Thames & Hudson, 1979.

—— The Exact Science. In: J. R. Hayes (ed.), *The Genius of Arab Civilization: Source of the Renaissance*, pp. 151 ff. Cambridge, Mass., MIT.

Sagan, C. *Cosmos.* New York, 1980.

Salama-Carr, M. *L'Ecole de Hunayn Ibn Ishaq et son importance pour la traduction.* University of the Sorbonne (Paris-3), 1982. See also by same author, *La traduction à l'époque abbasside.* Paris, Didier Erudition, 1990. ('Traductologie' series, 6.)

Sandys, J. E. *A History of Classical Scholarship.* Cambridge, 1906-08 (reprinted 1968).

Schmidt, F. *Die Pinakes des Kallimachos.* Berlin, 1932.

Seider, R. *Paläographie der griechischen Papyri.* Stuttgart, 1967.

Staten, H. von. *Herophilus, The Art of Medicine in Early Alexandria.* Cambridge, 1989.

Tarn, W. W. *Alexander the Great.* Cambridge, 1979.

Thompson, D. J. Ptolemaios and the 'Light-house': Greek Culture in the Memphis Sarapeum. *Proceedings of the Cambridge Philological Society*, 213, 1987.

——. *Memphis Under the Ptolemies.* Princeton, N.J., 1989.

Turner, E. G. *Greek Papyri, An Introduction.* Oxford, 1969.

——. *Greek Manuscripts of the Ancient World.* Oxford, 1971.

Vasudeva, R. Omar and the Alexandrian Library. *The Nineteenth Century*, October 1894, pp. 555-71.

Wehrli, F. *Straton von Lampsacus, Die Schule des Aristotles*, 5, 1950.

Weill, R. Les ports anté-helléniques de la Côte d'Alexandrie et l'empire crétois. *BIFAO*, XVI, 1919.

Welles, C. B. The Reliability of Ptolemy as an Historian. *Miscellania in Studi Alexandrini* (Turin), 1963, pp. 101-16.

Westerman, W. L. The Library of Ancient Alexandria. *Bulletin of the Faculty of Arts, Alexandria*, 15, 1952.

Wilamowitz-Möllendorff, U. von. *History of Classical Scholarship*, 2nd ed. Teubner, 1927 (reprinted 1959). English translation by A. Harris, with an Introduction by Hugh Lloyd-Jones. London, Duckworth, 1982.

Witt, R. E. *Isis in the Graeco-Roman World*. London, 1971.

Zeller, E. *Outlines of the History of Greek Philosophy*, 13th ed., rev. W. Nestle, trans. L. R. Palmer, London, 1969.

فهرس الأعلام
والأماكن والموضوعات

أعيد الطبع عام ٢٠٠٠
فى مركز مطبوعات اليونسكو
١ شارع طلعت حرب – القاهرة
لحساب مكتبة الإسكندرية
بمناسبة افتتاحها

المؤلف :

ولد مصطفى العبّادي في القاهرة عام ١٩٢٨ ؛ وحصل على شهادة الليسانس في التاريخ من جامعة الاسكندرية عام ١٩٥١ كما حصل على درجة الدكتوراه من جامعة كمبردج عام ١٩٦٠. وقام بالتدريس في جامعة الاسكندرية ابتداء من عام ١٩٦١. وفي عام ١٩٧٢ أصبح أستاذا للتاريخ القديم بنفس الجامعة. واعير الأستاذ العبّادي لجامعة بيروت العربية لفترة من الوقت، كما عمل أستاذا زائرا بجامعات العراق والنمسا وألمانيا الشرقية والولايات المتحدة الأمريكية والكويت والمملكة العربية السعودية والجزائر وقطر.

وفي ١٩٨٦ شغل وظيفة أستاذ التاريخ القديم بجامعة الكويت حيث يعمل في الوقت الحاضر. ويتمثل المجال الرئيسي لبحوثه في أوراق البردي اليونانية وفي تاريخ مصر في العصر اليوناني الروماني.

وفي السنوات الاخيرة أسهم بعدة بحوث في دراسة أوراق البردي اليونانية والعربية التي ترجع الى العصر الاسلامي الأول. ويرجع اهتمامه بمكتبة الاسكندرية القديمة الى أوائل السبعينات حينما نشر دراسة باللغة العربية عن موضوع تدميرها. وقد شارك الاستاذ العبّادي في بعض جوانب مشروع احياء مكتبة الاسكندرية القديمة.

صورة الغلاف :
المفكر اريسطوبيوس،
من نقش على أحد شواهد القبور، الشاطبي، الاسكندرية
حجر جيري (بطليموسي)

ISBN 92-3-602632-X